رواية



ألبرتو مانغويل

كل البشر كاذبون

ترجمة : د. منذر عياشي

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

ألبرتو مانغويل

كل البشر كاذبون

ترجمة : د. منذر عياشي



Book: Kol Albasher Kathebon

الكتاب : كل البشر كاذبون

Author: Alberto Manguel

المؤلف: ألبرتو مانغويل

Translated by : Mounzer Ayashi

ترجمة : د. منذر عياشي

Cover Plate: Mahdi Abdu

لوحة الغلاف: مهدي عبده

First Edition: 2014

الطبعة الأولى ٢٠١٤



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel : 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع : منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Al-Kamel Verlag

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى كريغ، الذي لم يكذب قط

ولقد قلت على عجالة: كل
البشر يكذبون

C X V I, 2. زبور

I
تقريظ

ما هو الكذب الذي يقوم في العالم
بعيداً عنه؟

ميشيل دي مونتين
تقريظ لريمون سيبون، 12,II.

أإليَّ تحديداً يتجه الكلام عن أليجاندرو بيفيلاكا! عزيزي تيراديلوس، ماذا أستطيع أن أقول عن هذه الشخصية التي التقت حياتي منذ ثلاثين عاماً؟ إني أكاد أعرفها، سطحياً على كل حال. أو بالأحرى، لكي أكون صادقاً تماماً، فإني لم أشأ أن أتعرفها. وأريد أن أقول، لقد عرفتها جيداً، أطاوعكم في هذا، ولكني أطاوعكم على مضض. فعلاقتنا (إذا افترضنا أنها علاقة) تقوم على المجاملة الشكلية، وعلى الحنين الذي يتقاسمه المنفيون. . ولا أدري إذا كنتم تتابعونني. لنقل إن القدر جمعنا، وإذا اضطررتموني إلى القسم، ويدي على قلبي، بأننا كنا أصدقاء، فسأكون مرغماً أن أعترف لكم بأنه لا يوجد شيء مشترك بيننا، باستثناء الكلمات «الجمهورية الأرجنتينية»، مكتوبة بحروف مذهبة على جوازي سفرنا.

هل موت هذا الرجل هو الذي يجذبك يا تيراديلوس؟ هل هو هذه الصورة التي لا تزال تسكن كوابيسي وإن لم أكن قد رأيته بأم عيني: هذه الصورة لبيفيلاكا وهو ممدّد فوق الرصيف، مرضوخ الجمجمة، سائل الدم في المجرى المائي كما لو أنه يهرب من هذا الجسد الساكن، وكما لو أنه يرفض أن يكون على علاقة بهذه الجريمة الشنيعة، وبهذه النهاية البالغة الظلم، وغير المنتظرة بتاتاً؟ هل هذا هو ما تبحث عنه؟

اسمح لي أن أشك. وهذا الشك لا يأتي من صحفي عاشق للحياة كما أنت، ولا من رجل عملي كما أحددك أنا. فأنت لست باحثاً عن ترجمة للأموات يا تيراديلوس. إنك على العكس من ذلك، فأنت بوصفك باحثاً في العالم، فإنك تبحث عن الوقائع ذات الصلة بالحياة. وتريد أن تحملها لقرائك، ولبعض الأشخاص الذين يهتمون بفنان مثل بيفيلاكا، الذي تعمقت جذوره في يوم ما في منطقة «بواتو شارانت». وهذه المنطقة، يجب ألا ننسى هذا، هي منطقتك أيضاً يا تيراديلوس. فأنت تريد أن يعرف هؤلاء القراء الحقيقة. وهو متصور خطير إذا كانت المتصورات كذلك. فأنت أردت رد الاعتبار لبيفيلاكا وهو في قبره. كما أردت أن تعطي لبيفيلاكا سيرة ذاتية جديدة مبنية من عناصر مستلة من ذكريات أعيد تكوينها بمساعدة الكلمات. وإن كل هذا يعود إلى سبب تافه وهو أن أم بيفيلاكا قد ولدته في هذا المكان من العالم الذي ولدتما فيه. هذا مشروع عبثي يا صديقي! هل تعرف ما أوصيك به؟ أوصيك بأن تكرس نفسك لشخصيات أخرى، لأبطال أكثر علواً في لونها، ولمشهورين أكثر تألقاً، بحيث يستطيع أهل بواتو-

شارانت أن يكونوا فخورين بهم فعلاً، كهذا الشاذ، ضابط البحرية بيير لوتي، أو هذا الطفل المدلل للجامعات الأمريكية، الأصلع ميشيل فوكو. وهذه هي نصيحتي. إنك قادر يا تيراديلوس أن تكتب أخباراً علمية. وأنا الذي أقول لك هذا، وأنا أعرف نفسي. فلا تُضِع وقتك في اعتبارات سديمية، وفي ذكريات معتمة تتعلق بمتذمر عجوز.

واسمح لي أن أعيد طرح السؤال عليك: لماذا أنا؟

فلننظر، فلننظر. لقد ولدت في مكان ما، حيث ثمة عائلة يهودية من سُهْب آسيوية توقفت أثناء هجرتها الطويلة نحو سُهْب أمريكا الجنوبية. أما ما يخص البيفيلاكا، فقد وصلوا رأساً من برغام إلى ما سيسمي في نهاية القرن الثامن عشر ريف السانتافي. فلقد أقام أسلافهم الإيطاليون، المغامرون، مذبحاً في هذه المستعمرة البعيدة. ولكي يحتفوا بذكرى صنيعهم الدموي، عام ١٩٢٣، فقد سمى محافظ فينادو تويرتو أحد الأزقة الأقل ثراء من أزقة الضاحية الجنوبية باسم البيفيلاكا، وقد عرف الأب بيفيلاكا مارييتا غيتون، أو بقول آخر عرف الأم بيفيلاكا. وقد تزوجا بعد مضي عدة أشهر من ذلك. وعندما بلغ أليجاندرو السنة من عمره، هلك أبواه في كارثة السكة الحديد لعام ١٩٣٩. وبعد ذلك، قررت الجدة من جهة الأب أخذ الطفل إلى عاصمة الجمهورية. وقد افتتحت هنا، في حي بلغرانو، متجراً للذائذ. وشرح لي بيفيلاكا (الذي كان يتميز، كما تعرف، بكونه مماحكاً ببسالة مزعجة) في يوم من الأيام بأن عائلته لم تكن دائماً تعمل في الكرش وجزارة الخنازير، وذلك لأن واحداً من سلالة البيفيلاكا،

كان يعمل جراحاً قبل عدة قرون، هناك في إيطاليا ببلاط بعض الأساقفة أو الكاردينالات. ولما كانت السيدة بيفيلاكا فخورة بأصولها الغامضة والمميزة (وهي ستفضل دائماً تجاهل الفروع الهوغونوتي من عائلة غيتون)، فقد كانت ما كنا نسميه في شبابنا ضفدع الجرن المقدس، وأعتقد أنها لم تتخلف قط عن القداس مرة واحدة خلال سبعين سنة من الوجود، وذلك حتى عندما أصيبت بالسُداد المزمن.

يا صديقي، تيراديلوس، إنك تعتقد أنني أستطيع أن أرسم لك لوحة صادقة، ومشبوبة، ووفية لبيفيلاكا، وأنك ستخطها بعد ذلك على الورق كما هي، مزيناً إياها بلمسة صغيرة. ولكن ما تطلبه مني لا أستطيع أن أفعله. أجل، لقد سارني بيفيلاكا، وعرض أمامي حياته الشخصية بكل دقة، وحشا رأسي بترهات حميمية، ما عدا أني، وللحق أقول، لم أفهم أبداً لماذا روى عليّ كل هذا. وأؤكد أني لم أفعل شيئاً لكي أشجعه على ذلك بالأحرى، لقد كان العكس من هذا. وربما كان يعيرني، أنا مواطنه، لطفاً لا أملكه، إلا إذا كان قد قرر أن يؤول غيابي العاطفي الظاهر بوصفه احتراساً عاطفياً. وفي الواقع، فقد كان يأتي إليّ في بيتي في كل ساعة من ساعات النهار والليل. وقد كان هذا منه، في الظاهر، من غير أن يلاحظ بأن العمل يغمرني، وأني بحاجة إليه في كسب عيشي. فقد كان يمضي في الكلام عن ماضيه، كما لو أن مجرى الكلمات، كلماته هو، تعيد خلق الواقع الذي يعرف أو يحس، على الرغم من كل شيء، بأنه ضاع تماماً. ولم يكن من المفيد أن أحاول إقناعه بأني لم أكن منفياً، وبأني أصغر من ثاني أولاده بعشر

سنوات، وقد غادرت الأرجنتين أكاد أكون مراهقاً وذلك رغبة بالسياحة، وأني بعد أن تجذرت على استحياء في بواتييه، جئت إلى مدريد في سانت - سيباستيان أو في برشلونة، وذلك على الرغم من الغيظ الذي يحسه الأرجنتينيون بالضرورة إزاء عاصمة الوطن الأم.

لا داعي لحمل هذا محمل السوء، ولكن بيفيلاكا، في رأيي، لم يكن من أولئك الذين يلتصقون بمقعدك من غير مبالاة، والذين لا نستطيع اقتلاعهم حتى لو استعملنا التربنتين. لقد كان، على العكس من هذا، واحداً من أولئك الأشخاص الذين لا نتصور أنهم يتلفظون بأقل البذاءات. وهذا بالضبط ما يمنع المرء أن يطلب منه الذهاب. فبيفيلاكا كان يمتلك ضرباً من اللطف الطبعي، واللباقة من غير تفاخر، وحضوراً غفلاً. وهو إذ كان ذا جسم كبير ونحيل، فقد كان ينتقل ببطء، كما لو أنه زرافة. كان أجش الصوت مهدئاً، ويعطيه هيئة ناعسة، وكان يثبت نظره على نحو يصعب على المرء معه أن يحول نظره عندما يتكلم. ثم إنه عندما يمد أصابعه الرفيعة، المصفرة بالنيكوتين، لكي يتعلق بكم، فإن المرء يستسلم لممسكه، مقتنعاً أن أي مقاومة لا تجدي نفعاً. وفقط، في اللحظة التي ينصرف فيها، فإني أدرك أنه قد أكل لي ما بعد الظهر.

ربما يكون أحد الأسباب التي من أجلها كان بيفيلاكا يرتاح في إسبانيا، ولا سيما في سنواته الرمادية أيضاً، هو أن خياله كان يتعلق، كما يبدو دائماً، بالواقع ليس الملموس ولكن الواقع الظاهر. ولا أدري إذا كنت تشاطرني رأيي، ولكن كل شيء في

إسبانيا يوحي بأنه بدهي، وبأن لكل بناء لافتته الصغيرة، ولكل نصب بطاقته. وكما هو معلوم، فإن الناس النابهين يعرفون بأن المدينة - القرية لمدريد المختبئة هي شيء آخر، وبأن اللافتات مغلوطة، وبأن السياح لا يحضرون إلا الإخراج. ولسبب غريب، مع ذلك، فقد كان يعتمد على ظلاله التي تريه إياها عيناه وليس على ذاكرته أو على أحلامه. وحتى لو كان في بلدنا الأم قد كابد، عقداً بعد عقد، تزييفات السياسة وأحابيل الصحافة، فقد كان يزدرد بشكل مدهش تزييفات سياسة أرضه المتبناة وأحابيل صحافتها، متذرعاً أن المقصود هناك هو الكذب، بينما المقصود هنا فوقائع حقيقية.

سأشرح: لقد دأب بيفيلاكا أن يميز بين الخطأ الصواب والصواب الخطأ. وما دامت الحال كذلك، فقد بدا له الأول أنه أكثر واقعية من الآخر. هل تعلمون بأنه يغذي هوى من أجل الوثائقيات؟ إذ كلما كانت قاحلة، كانت أفضل. وقبل أن أعرف أنه كان بصدد نشر رواية، لم يكن يخطر لي ببال أنه كان يمتلك موهبة خيالية: لم أكن لأعرف أحداً، بأستثنائه، يستطيع أن يظل الليل بأكمله يشاهد فيلماً عن الحياة في مستودع لتبريد الأستوريا أو لتبريد مصح أراغوني.

انتهينا من هذا، لا تعتقدوا بأني لا أقدره على الإطلاق. فبيفيلاكا كان - لنستعمل الكلمة الدقيقة - رجلاً صادقاً. فإذا أعطى كلمته، فإن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر سوى الاعتقاد به، وما كان لأحد أن يظن بأن بادرته كانت تظاهراً أو لياقة. كانت له هيئة واحد من أولئك الرجال الهجن، الرفيعين مثل

خيط، الشعر مدهون تحت قبعة من الشبات. وقد رأيتهم في بوينس آيرس عندما كنت طفلاً، وكانوا في يوم الجمعة صباحاً يحيّون أمي وهم في طريقهم إلى السوق. لقد كانوا رجالاً (يعرف بعضهم بعضاً كما تعتقد أمي) أصحاب لسان نظيف نستطيع التحقق به من قطعة النقود إذا كانت من فضة أو إذا لم تكن وذلك بوضعها في أفواههم: إذا كانت مزورة، فإنها تسود بالتماس الأول مع لعابهم. وأفترض أن أمي، وهي قاسية دائماً في أحكامها، بعد أن نظرت نظرة خاطفة إلى بيفيلاكا، قد وصفته بأنه رجل، وبأن له شبهاً بسيد ريفي، أليجاندرو بيفيلاكا، وأنه نوع من الهدوء. ومثل هذا النقص في الفضول يجعلنا نضطر إلى تحديد المزاج بحضوره وإلى رواية كل طرفة مع أكبر قدر من الدقة الممكنة. وهو وإن لم يكن ناقصاً في خياله، إلا أنه ما كان يمتلك أي موهبة إزاء النزوات. وكما كان القديس توماس الرسول، فإنه كان يتلاعب بعناية بالأشباح قبل أن يعتقد بها. ولهذا كنت متفاجئاً عندما قدم إليّ ذات مساء وهو يقول إنه رأى شبحاً.

تعالوا نرى. إن الصباحات العديدة وفترات بعد الظهر والأمسيات التي أمضيتها في الاستماع لبيفيلاكا تعرض حلقات قاسية من حياته. ونحن حين نراه يدخن سيجارة فوق أخرى، قارصاً إياها بأصابعه الطويلة ذات اللون الأصفر الذهبي، وكذلك حين يصلب ساقيه ويفكهما لكي ينهض فجأة ويصعد إلى غرفتي بقفزة كبيرة، فإنني أقول إن كل هذا قد غدا في ذاكرتي واحداً ويوماً مسخاً يسكنه بشكل مطلق هذا الرجل النحيل والرمادي، وقد غدت ذاكرتي عرضة للهفوات أكثر فأكثر، وصارت في الوقت

نفسه دقيقة وغير دقيقة. وأريد أن أقول إنها لم تعد تتكون من نسيج من الذكريات المتميزة جيداً، ولكن من أكوام لعدد من الذكريات المختلطة بدقة، والمصابة بعدوى الأدب كما يمكن أن أقول. أعتقد أني أتذكر بيفيلاكا، وإني إذ أفعل هذا، فإني أفكر في لوحات معينة لكامي، وبوريس فيان.

إذا لم أكن أتقاسم مع بيفيلاكا معظم لونه الرمادي فأقلّه في الوقت الحالي. وكذلك أيضاً وإن كان غير معقول، فقد صار لي بطن عندما دخلت الشيخوخة. أما هو فعلى العكس من ذلك، لم يتغير عمره عن الوقت الذي عرفته فيه. عمر نصفه اليوم هو عمر الشباب، بينما كنا نسمّيه سابقاً عمر النضج. أتابع، كالذي سيقول، قراءة هذه القصة والتي بدأناها معاً، أو التي بدأها بيفيلاكا في الأرجنتين التي ليست لنا. أعرف الفصول التي تبعت موته (أوشكت أقول «اختفاءه»، ولكن هذه الكلمة، يا عزيزي تيراديلوس، ممنوعة علينا). أما هو، فلا يعرفها طبعاً. وأريد أن أقول إن قصته ، تلك التي حاكها ثم فك حياكتها مرات كثيرة، تعود إليّ من الآن فصاعداً. وأنا الذي سأقرر مصيرها: أرويها، أعيد خلقها، ولم لا، أخترع قصة الآخر. خذ ما شئت من الوقائع في حياة إنسان، ورتبها تبعاً لذوقك، وإرادتك، فستحظى بشخصية معينة شبيهة بلا شك. ثم قم بترتيبها مع فارق لا يذكر، فسترى أن الشخصية قد تغيرت، إنها شخصية أخرى، ومع ذلك فهي حقيقية أيضاً. وأستطيع أن أضمن لكم فقط أنني سأحمل لكم، وأنا أروي حياة أليجاندرو بيفيلاكا، العناية نفسها التي أتمنى أن يقوم بها راويتي عندما سيكون المقصود أن يروي قصتي.

والسبب لأن المقصود ليس أبداً أن أرسم لوحة. وليس ألبرتو مانغويل هو الذي يهمكم. وكذلك، فإن مدخلاً عاماً عن هذا المؤثر، سيكون ضرورياً لكي يتمكن المرء، فيما بعد، أن يمخر بمهارة أكبر في نهر الأب. وأعدكم أن لا أتأخر واقفاً على ضفافي ولا أرمي بشبكة في أعماقي. ولكني محتاج أن أعرض عليكم بعض الوقائع المشتركة، ولكي أنجز هذا، فإني لا أستطيع أن أتلافى خروجاً عن الموضوع.

يبدو لي أنك حاورتني يا تيراديلوس، وأني قصصت عليك كيف أني ذهبت كي أعيش في مدريد، وذلك في أواسط السبعينيات، حيث سكنت في غرفتين صغيرتين في شارع برادو. وقد كان ذلك بفضل منحة أمريكية وبفضل هذه الصحة التي نمتلكها من قبل عمر الثلاثينيات. وسواء اعتقدتم بذلك أم لا، فإني قضيت سنة ونصف تقريباً لكي أهرب بعد ذلك. وكان هذا بعد الأحداث، وقد وجدت هنا ملجأ، هنا في بواتييه. ولقد سألتني حينئذ لماذا بواتييه. وأنا اليوم أجيبك: لكي لا أبقى في مدريد. فهذه مدينة مصابة بعدوى ظل أليجاندرو بيفيلاكا. وفي المرات النادرة التي عدت إليها منذ أن تغير كل شيء في هذه المدينة، واستمعت فيها للموسيقى ورأيت النور، وحتى عندما كنت أجلس في مقهى الكاستيلانا أو الأوبرا، فإني أحسست حضوره إلى جانبي، وأحسست بأصابعه على ذراعي، وبرائحة التبغ في منخريه، وبإيقاع صوته في أذني. وإني لأسأل نفسي عما إذا كانت مدريد ملائمة لمثل هذه الظواهر فوق الطبيعية خصوصاً. وإننا لنعلم، أنت وأنا، أن مثل هذه الحالة لا تتمثل في بواتييه.

أنا في بعض الأحيان، وعلى نحو عجيب، غير قادر أن أؤكد بكل يقين أن مثل هذه الذكريات هي منه وليست مني، وأعطيك على ذلك مثلاً. كان بيفيلاكا يتكلم بحنان عن بيته في بلغرانو، حيث كان يعيش مع جدّته لأمه. أنا أيضاً سكنت في هذا الحي ذي البيوت القاتمة والشوارع التي تحف بأرصفتها أشجار الجاراكندا، ولكن كان هذا بعد سبع أو ثماني سنوات من انتقال بيفيلاكا منها إلى مركز المدينة. ولا أردي إذا كان البيت الذي ألمحه هو بيتي أو هو البيت الذي وصفه بيفيلاكا، بأبوابه المقزّزة بدافع التهريج، وبدرجه المدبب، وستائره المخملية التي تفصل الصالون عن غرفة الطعام، والثريا المنعكسة فوق الطاولة المصنوعة من خشب الأكاجو، والمكتبة التي تحتوي الكتب الزرقاء لسلسلة «كنوز الشباب»، وأوركسترا القرود المصنوعة من خزف ميسن مع ببغاوات معفررة تردد لحناً صامتاً . وإني لأتساءل إذا لم يكن هذا منزلاً مكوناً انطلاقاً من ذكرياتي وذكرياته. لن أمتلك الجواب أبداً، لأن الحي قد أزيل لكي تنبت مكانه ناطحات السحاب. ولقد فهم هذا بيفيلاكا، بما أنه كان مهووساً بالدقة، من خلال هلوسته، وقد تأخر فيه.

كان بيفيلاكا يظن أنه ورث هذا الجانب الرائع من جدته. وهي امرأة قاسية ومتشددة. وكذلك هي من النوع الذي نقول عنه هنا، في أوروبا، إنها لوثرية بدلاً من كاثوليكية. وقد كانت جدته تقول، على امتداد طفولته كلّها، إن عين الله تحرسنا ليلاً ونهاراً مع ضراوة الشمس، وبأن كل حركة، وكل فكرة كان يسجلها في كتاب حسابه الكبير، وهو كتاب يشبه الكتاب الذي نفتحه في

الدكاكين للحساب. وقد كانت السيدة بيفيلاكا، مستقوية بهذا الاعتقاد، تدير تجارتها بدقة ونظافة مثالية، وكذلك كانت حرونة بلا هوادة لرواج المعارض الجديدة والكبيرة التي تحل بديلاً عن الدكاكين كدكانها، برفوفها الملونة وأضواء النيون. وقد ظلت البرغاموتا إلى منتصف عام ١٩٦٠، مفخرة حي بلغرانو.

وقد كانت تتعامل مع حفيدها بالدقة ذاتها. فالحرمان، والمنع، وضربات المقرعة على البساط تتناوب مع المكافآت والملاطفات. وفي مرة، لا أدري لأي حماقة من حماقات المراهقين، تركته محبوساً في غرفة حمامه ثلاثة أيام طوال. وقد أكد لي بيفيلاكا أنه لا يبالغ: كانت تعطيه ثلاث قطع من الخبز في اليوم وإبريقاً من الماء. وذلك لأن لها جانباً قروسطياً، وأنها عجوز حادة لا ليونة فيها، رئيسة عمال أو متسلطة.

ومع ذلك، حتى لو كانت السيدة بيفيلاكا تعبر جماهيرياً أن رغبة حفيدها تتمثل في اتباع التقاليد العائلية، إلا أنها لم يراودها الشعور قط بأن مصيره كان مرتبطاً بالسجق أو بالجبن. فبعد المدرسة، وقبل الدخول إلى الدكان الفائح بالماء المملح، حيث يساعد جدته في جمع الزيتون بالمعقلة من براميل البلوط أو يساعد في تدوير المقص لقطع شرائح لحم الخنزير المطبوخ، كان بيلفيلاكا يتوقف أمام المكتبة (هذا على الأقل هو ما أتصوره)، حيث تعرض الواجهة مؤلفات ذات أغلفة صفراء من مجموعة «روبين هود». وقد كان يذهب حالماً نحو بلاد بعيدة ولقاءات غريبة. لقد كان يرى نفسه ساندوكان، فيلياس فوغ، وكانت ممالكه القصية هي جزر «النمر»، وأن أميرته هندية، ابنة صيدلي.

وبعد ذلك، عندما بلغ سن البلوغ، فهم أن ما يجذبه، لم تكن الرحلات ولا المغامرات، ولكن فقط هو ما يبدو الوصول إليه عصياً.

متى رأيته للمرة الأولى؟ في مدريد، في شهر شباط أو آذار ١٩٧٦، في مكاتب كيتا.

بلانكا، بلانكيتا غرانفيلد. السيدة لارالد زوجة غرانفيلد. الأنيقة دائماً، والمتوفزة دائماً، والراكضة دائماً في الاتجاه الأخير - ألا ترى عمن أتكلم؟ آه، تيراديلوس! إن تقلبات الشهرة غريبة جداً! ففي الأرجنتين، وقبل الدكتاتورية، كانت بلانكيتا غرانفيلد تنزل الغيث وتصنع الطقس الجميل في الثقافة. إنها البنت الثانية لملاك الأراضي لارالد، والذين أضاعوا كل شيء حين حاولوا أن يُدخلوا إلى السهل أثوار التيبت أو الجمال. لقد كانت فتاة سمراء، وكانت خلاسية تقريباً. تزوجت منذ سن المراهقة لا أدري أي صناعي ألماني كان من لطفه أن مات بعد ذلك بقليل. إن بلانكا لارالد، سعيدة بهذه الرحلة التي حررتها من أب يتلاعب بها ومن زوج يجحدها، كانت تستخدم كثيراً اسم أبيها مرتكب جريمة زنى المحارم وثروة الصناعي المرحوم لكي تؤسس جمهوريتها الخاصة بالفنون والآداب. وقد كنا في بوينس آيرس لا نعلق لوحة، ولا ننشر كتاباً، ولا نعرض فيلماً، ولا نؤدي مسرحية من غير أن تكون كيتا حاضرة (هكذا كان كل الناس ينادونها، بدءاً من الموظف الأكثر بيروقراطية إلى الفنان الأكثر فوضوية). ولقد كانت كيتا في كل مكان. ولقد كانت كيتا أيضاً من بين الأوائل الذين سافروا. وعندما قام العسكر بإغلاق المؤسسات، وتفتيش المسارح وقاعات

العرض، كانت كيتا تقول «تعالوا نصنع الثقافة في الوطن الأم».

وبعد بضعة أسابيع من إقامتها في مدريد، أنشأت كيتا بيت «مارتان بيرو»، في الطابق الرابع من بناية «بروسب»، وذلك في وسط بنايات وبيوت عمالية. وهذه هي «أم العائلة» المرهفة. وقد كانت تستقبل فيه الهاربين، والتائبين، والمغتصبين، والناجين، كما كانت تستقبل العديد من ديكتاتوريات أميركا اللاتينية التي لم تنجح في الاختفاء تماماً.

بدت كيتا رائعة في ثوبها ولآلئها. وقد طرحت على كتفيها معطفاً من جلد الفهد كما يطرح قلع الصواري، وعلا شفتها العليا زغب أرستوقراطي، والتمعت النظرة الحية من خلف نظارتها الكبيرة المصنوعة من الخشف. وكانت كيتا تعطي لكل شخص الكلمة المناسبة، عارية من أي شوكة احتقار يكابدها كارهو البشر عموماً. ولقد برزت من خلف مكتب الاستقبال مكتبة مضيئة، تعرض كتاباً مغلفاً بجلد البقر ومن أعمال هيرناندز الخالد. وكذلك كان ثمة عدد من الكتب لمؤلفين فرض العسكر عليهم حظراً، بالإضافة إلى نبتتين أو ثلاث من نبات الدباء التي كانت أندريا، المساعدة الوفية، قد اعتادت تقديمها للقادمين الجدد. ومذ ذاك، ما كان يمكن للاجئ يصل إلى إسبانيا من غير أن يأتي لكي يقدم لكيتا أوراق اعتماده.

ذات صباح، في حين كنت أفكر أن بمقدوري أن أتدارك كبيراً من كبار تأخيرات النوم الذي هو وقف على الشباب، رن الهاتف في الصباح الباكر. إنها كيتا.

«تعال مباشرة».

سألت، بعينين لا تزالان مغمضتين، أين.

«إلى مارتان فيرو، بالطبع».

قلت إنني لا أفهم، فتأوهت كيتا لنفاد صبرها. وصلت للتو مجموعة من الأرجنتينيين، وهي محتاجة إلى مساعدتنا. ولا أدري لماذا أدخلني ضمير الجمع. وأعترف بأن هذا ملأني بالفخار. فقد لجأت كيتا إليّ. Ergo، أنا موجود.

ولقد بينت لي أن أحد اللاجئين يبدو كاتباً.

وأضافت كيتا: «إنه روائي، اسمه بيفيلاكا. إنه إنسان نبيل. هل تعرفه؟»

قلت لها لا. وللحق أقول إنني مذ غادرت بوينس آيرس، لم أتابع جيداً الأخبار الأدبية الأرجنتينية. وقد أعلنت بكبرياء الشباب أن هذا البيفيلاكا إذا كان قد نشر شيئاً خلال السنتين أو الثلاث سنوات الأخيرة، فالمقصود منه كان بلا ريب هو الدعاية الرسمية أو هو عمل أدبي لا قيمة له عطر بماء الورد.

وقد أضفت: «إننا ننتظر النهضة دائماً»، ولكن كيتا كانت قد قطعت خط الهاتف.

عندما بدأت دخولي إلى مارتان فيرو، وجدت بيفيلاكا جالساً على كرسي صغير جداً، وجدته جالساً بنبل كما لو أنه كان يجلس على عرش. وقد نهض عندما رآني.

لقد كان الإنسان الأكثر حزناً والذي لم أر له مثيلاً قط. وأما الواصلون الجدد، الثلاثة أو الأربعة، الذين يرافقونه، فقد نظروا إليّ كأنهم كلاب في محشر ولكن، وهذا للمقارنة، كانوا يبدون منهكين فقط. وكانت السوداوية التي تصيب معظم البورتينيين جلية

عند بيفيلاكا من رأسه إلى أخمص قدميه. إنه يتألم، وهذا بدهي، ولكن على نحو عميق لا يستطيع أن يخفيه. فجلده كان كابياً، وكتفاه منحنيتين، وقسماته مشدودة، وكان كل كائنه ذابلاً إلى درجة كان يصعب معها إعطاؤه عمراً. وإذا حاولنا أن نلمسه، فإنه يلتوي. ولا أدري بثمن أي مناورة ديبلوماسية، أُخرج من السجن مبكراً يومين على الأكثر، ووضع في طائرة مع حقيبة لكل أمتعته.

وقد أوضحت له كيتا، تبريراً لحضوري، أنني كاتب ومواطن، ولكي أفرش الحديث، سألته بحماقة ما هي الكتب التي نشرها. ابتسم لي بيفيلاكا للمرة الأولى، ثم أجابني:

«لا يا أخي، أنا لا أكتب الكتب. فأنا أكسب رزقي من كتابة روايات مصورة».

ربما يجب عليّ يا تيراديلوس أن أبين لك ما هي الروايات المصورة. إذ يبدو لي أنكم في فرنسا نادراً ما تهتمون بهذا النوع من الأدب. ثمة عبقري جمع في عام ١٩٣٠ بين السينما، والرسوم المتحركة، والقصص الرومانسية، وزاوج بين التصوير والحكاية الحوارية. ويوضع الممثلون في النثر المراد، ونصورهم من زوايا عديدة، ثم نضيف فقاعة تتضمن أجوبة كل شخصية من الشخصيات. وكان هذا النوع من القصة هو الذي يعلق عليه بيفيلاكا.

ما كانت كيتا لتدع نفسها في حيرة، فقالت لي:

«هذا فن أيضاً، عندما كنا وحدنا. ولن تقول لي إننا لا نستطيع أن نساعد إلا أولئك الذين يكرسون أنفسهم للأدب الجيد. فمعايير القبول عندي هي معايير الأكاديمية: يكفيني أن يعرف كتابة

إسبانيا من غير «h». لا تكن حقيراً يا مانغويل. فهذا الرجل يستحق دعمنا».

وبعد أن تمنيت لبيفيلاكا حظاً سعيداً، وأعطيته عنواني، وعانقته، قال رجل سمين: «ثمة أيضاً رجل مفضل. إن هذا لهو الشيء نفسه في كل مكان».

بعد يومين، في وسط بعد الظهيرة، نزل بيفيلاكا في بيتي، يرتجف من البرد. وكانت هذه هي المرة الأولى من سلسلة طويلة من لقاءات بعد الظهيرة.

تريد أن تعرف طبعاً تفاصيل حياته: النكات الأكثر وعورة لحياته المدرسية الأولى، ولبداياته الغرامية، ونشاطاته السياسية الوليدة، قبل السجن والتعذيب. أكرر لك: لست أنا من يجب أن تطرح عليه كل هذه الأسئلة. فالكتمان، وإذا شئت فعدم المبالاة، سيسم علاقاتنا أثناء الشهور القادمة. نعم، أعلم، إنه يتكلم وأنا أكتفي بالسماع إليه جيداً، وذلك إلى درجة يمكنك معها أن تفترض أنني قد نجحت، خلال كل هذه الفترة، أن أستخلص بعض المشاهد الدرامية، والحلقات الفاصلة، لست متأكداً بالطبع. فلقد روى لي بيفيلاكا حياته على نحو هائم، مالئاً مطفأة السكائر بأعقاب صفراء، وذلك من غير أن يهتم بإعطاء تماسك تاريخي أو زماني لوقائعه. إنه لا يؤلف بالنسبة إليّ مجمعاً روائياً، فهو يبدو بالأحرى متصوراً لسيناريو رواية مصورة، وهي متوقعة بمقدار ما هي مثيرة.

لنأخذ مثلاً عن بوينس آيرس التي يعتقد أنه يتذكرها تحت تأثير الحنين إليها. فبيفيلاكا ليس قادراً أن يعتقد بأنني غير مشتاق

لهذه المدينة التي، كما أرى، تحسنها الذكريات بشكل كبير. كان بيفيلاكا، على العكس من ذلك، يتحسر ليس فقط على العاصمة حيث عاش، ولكنه كان يتحسر على خريطة الأرجنتين بكاملها. وأريد أن أقول بهذا إنه كان يشتاق أيضاً للغابات، وللسهول الكبيرة التي كان قد رآها على الأكثر مرة أو مرتين من خلال نافذة القطار. أما أنا، فقد كنت على العكس من هذا، أبحث عن حيز يضيق أكثر فأكثر: ليس الريف، ولكن ساحة السوق، وليس المدينة، ولكن القرية. وكما تعرف، فإن مدريد وبواتييه مدينتان صغيرتان تميلان إلى العواصم. ولقد كان بيفيلاكا يشكو مما يسمّيه الفرنسيون عشق الوطن، ولكني أعتقد أنه سيكابده حتى ولو كانت عنده إمكانية العودة إليه. كان يحنّ إلى زمن مضى وليس إلى مكان، وإلى جغرافيا مصنوعة من ساعات مختفية في شوارع لم يعد لها وجود، ينتظر على عتبة بيوت متهدمة منذ سنوات، أو ينتظر في مقاهي قايضت منذ زمن طويل نجارة جدرانها ومرمرها مقابل جدران تكسوها المرايا والفورميكا. أنا أتفهم حنينه بكل تأكيد، ولكني لا أشاركه فيه.

بوينس آيرس مدينة قلّما عشت فيها. وهي، في الوقت الذي عرفتها فيه، قد بدأت تنحط بشدة. أما بيفيلاكا، فقد وقع في حب بوينس آيرس عندما كانت لا تزال سيدة كبرى في ثوب من التفتة وكعبين عاليين، مع لمسة حمراء في كل زاوية من الشارع، مزينة بالحلي ومعطرة، أنيقة من غير تفاخر، بارعة من غير ادعاء. ولكن خلال العقود الأخيرة (يفسر بيفيلاكا على هذا النحو التاريخ الأرجنتيني الحديث)، ثمة مرض معيب قد قرضها، فأضاعت

بذلك أناقتها، ومواهبها الخطابية. وثمة فسحة خاطئة تتسم بها شوارعها الجديدة التي تحف بها ناطحات السحاب. وكأنها سيقان من خشب. وكذلك، فقد ذبلت حدائقها. وكان يغرقها في الليل ضباب كثيف، يقطعه قليلاً ضوء متقطع ينبعث من مصابيح ذات لون برتقالي. وبالمقارنة مع بوينس آيرس هذه، الكامدة اللون، فإن مدينة طفولته قد غدت جميلة ومتألقة أكثر ألف مرة.

ومذ أخذ يلاحظ عنده، في وقت مبكر جداً، بعض الاضطراب تحت الجلد وحملاً يثقل ما بين الساقين، علم أن ما يشعر به تجاه بوينس آيرس، كان قريباً من الانفعال الساحر. وعندما كان يلامس واجهات الأبنية ذات الأحجار الخشنة، والحواجز الباردة، ويستنشق ياسمين أيلول والأرصفة المنداة في شهر آذار (أنا أيضاً عرفت الأروقة المقنطرة)، فقد كان يتهيج جسدياً. وسواء مشى في الشوارع، أم جلس على الكراسي البلاستيكية في حافلاتها، فإنه كان يلهث ويتعرق.

يقول الآخر: «ذكريات، ذكريات، ماذا تريد مني؟» أتذكر تفصيلاً، أظن أنه سيملأ فضولكم الصحفي الصعب.

لقد وقع بيفيلاكا في الحب للمرة الأولى عندما بلغ الحادية عشرة من عمره. كان له صديق في الصف، يسمى بابار، وهذا مثير للفضول (ولهذا فإني لم أنسه). وقد حدثه عن سينما تقع على بُعد عدّة شوارع من محطة ريتيرو. وهي ملصقة بالجدار الذي يفصل طرق بازيو كولون. وكان مستخدم قطع التذاكر لا ينزعج إذا عرف، كما تشترط الكتابة فوق المدخل، أن الصبي الذي يخشن صوته اصطناعياً قد احتفل بمولده الثامن عشر. ولقد دخل

بيفيلاكا في الظلمة والدم يخفق في أذنيه، وبحث تحسساً عن مكان. وكانت السينما، وأنا على يقين من ذلك، تضوع برائحة العرق والغاز.

لم ينجح بيفيلاكا أبداً في تذكّر عنوان الفيلم (هذا إذا افترضنا أنه قد عرفه في يوم ما): إنه يظن أنه إنتاج ألماني أو سويدي، ثم هو لم تتح له فرصة أخرى لرؤيته ثانية. ويبدو مما رواه لي مع التفصيل الفاخر، أنها كانت قصة فتاة ريفية سافرت إلى المدينة بحثاً عن الرزق. وكان للساذجة وجه على شكل قلب وترتدي ثوباً أبيض مزموم الخصر. وهي في المشهد الأكثر اختلاجاً في الفيلم، كانت تخلعه وترميه على الكرسي. وكان بيفيلاكا يتأمل، فاغر الفم، وجهها الذي يملأ الشاشة، في حين أن الشاب (بالطبع، لأنه يوجد شاب) كان يقبّلها. وقال لي بيفيلاكا بعد ذلك، مشمئزاً من النزعة العاطفية، إنه كان لديه الانطباع بأن شفتي الشاب كانتا شفتيه هو.

خفياً ومختلطاً بالظلام. ويظهر المشهد التالي بزوغ النهار فوق الأسطح. يقفز الشاب خارج السرير، عارياً إلا من سرواله الداخلي، ليحضّر بيضاً مقلياً. أما بيفيلاكا الذي كان فطوره يتكون، على الطريقة الأرجنتينية، من القهوة فقط مع الخبز المقمر، فإنه لن ينسى الجواب: «آكل ما أريد، عندما أريد». وقال لي: «هنا فهمت ما تنطوي عليه هذه الحرية التي كنت أحلم بها في مخزن جدتي. الحرية كانت بيضاً فوق الصحن في الصباح الباكر».

لا أعلم إذا كنت مقتنعاً فعلاً بملاءمة مبدأ بمثل هذا الغباء،

أو، يا للمسكين، إذا كان يقول هذا لكي يعيش المغامرة ثانية. ولكن الواقع هو أن بيفيلاكا قد قضى جزءاً كبيراً من مراهقته وهو يريد أن يفعل أشياء فريدة في أماكن غير متوقعة. ومع ذلك، فقد كان، لكي ينجو بحياته، يؤول طائعاً الأدوار العديدة التي تفرضها عليه المواضعات - الابن الصغير الوفي، الطالب المنتظم المراهق المعذب -، وقد كان بيفيلاكا يرى نفسه شاباً أكثر حكمة من أي بالغ آخر، وأكثر شجاعة من أي مغامر، وأكثر فيضاً بالحب المشبوب من خياله الملتحم بأشياء العالم كأنه واحد من هذه الخيوط الملتصقة التي نسمّيها في الأرجنتين «لعاب الشيطان».

الوجه في قلب الفنان الغفل يسهر على أحلامه. وأظن أن عليه أن يضعه على وجه أي امرأة أخرى، حتى بعد سنوات من لقائه بها. فالأوصاف التي يصنعها، مرهقة، وهي تتغير تبعاً للسياق. فالشعر يصبح في بعض المرات أسود وحريرياً مثل شعر لوريدانا. والعينان تضيقان وتلمعان مثل عيني غراسييلا. والوجه يصبح، في مرات أخرى، شفافاً، غائماً، مثل وجه امرأة تفجر اسمها. ولقد أمضى كل مراهقته بحثاً كي يجد هذا الوجه ثانية. وذات يوم، اعتقد أنه عرفه في «شوشو» أو في «تيتي فريتي»، وهي واحدة من تلك المجلات ذات المنحى الفضائحي قليلاً والتي تثير الاهتمام عند حلاقي الرجال.

إنك لتسأل من غير ريب كيف أستطيع أن أروي هذه المحادثات، وذلك على الرغم من تحفظي. وأعترف لك أنني أثناء إقامتي المدريدية، عندما لم أكن بعد سميناً ولحيتي لم تشتعل شيباً، قد حلمت بكتابة رواية. ومثل أي شخص يأسره ميله إلى

الكتب، فإن فكرة إضافة مجلد إلى المكتبة العالمية قد أغوتني وكأنها الخطيئة. فتخيلت شخصية، مبدعاً، فناناً أخفق في حياته بسبب كذبة واحدة. وتقع أحداث الرواية في بوينس آيرس. ولأنني أثق بمخيلتي أقل مما أثق بذاكرتي، فقد قلت لنفسي إن مسارات بيفيلاكا تغذي شخصيتي المتخيلة. وسرعان ما تبينت أن ذكريات بيفيلاكا ينقصها الانفعال، واللون، وهي تخلو من سبق الإصرار. وبذا، فقد بدأت أحمل قليلاً من التخيل، والحبور إلى حكاياته. هذا، وقد زينت دقة بيفيلاكا بملاحظة، وتعليق ساخر.

أكرر: لقد سعى بيفيلاكا أن يكون دقيقاً إلى أكبر حد ممكن، وهذه، كما تعرف، طريقة لإحباط الانفعالات. ولكي لا يطلعني على أسراره، فقد كان يبالغ في الغموض. وكان ينهض، بين كل سيجارتين يدخنهما، لكي يشرح كيف تتحرك شخصياته، ويحرك أصابعه المصغرة لكي يحاكي حركاتهم، ويصف لي أصواتهم، ويعد لي الأسماء، والتواريخ، والأمكنة. وكان عنده هوس بالمعلومات الدقيقة وخوف عظيم من الخطأ إلى درجة أنه، في معظم الأحيان، كان يعطي الانطباع بأنه ذاهب في إبداع ماضٍ مركب تركيباً، وكأنه يريد إقناعي بوجوده.

لا أدري إذا أوضحت جيداً، يا عزيزي تيراديلوس. فلا يوجد أحد يتذكر السنوات الماضية، اللهم إلا إذا صورها، وأرشفها، وأعاد إنتاجها. ويبدو أن بلزاك لكي يمنح شخصياته وجهاً، كان يؤلف أمام المرآة قبل أن يجلس كي يصفها. وكان بيفيلاكا يفعل الشيء نفسه. وقد كان يتكلم عن أناس الماضي بدقة إلى درجة كنت أعتقد معها، مثلاً، معرفة النظارات الصغيرة التي يضعها

لينون بابار، ومعاطفه العسكرية، وضحكته المعدية. وعندما انطلق بيفيلاكا، سكت لكي لا أشجعه. ولكن بقي لي بعد ذهابه انطباع بأنني شاهدت معرضاً تستعاد فيه الصور.

كان بيفيلاكا يعجب بالناس الذين كان الواقع بالنسبة إليهم يتكون من وقائع متينة، ومن أرقام ووثائق. وكان يحذر من الاختراع. وقد اكتشف بيفيلاكا هذا الحذر إزاء المظاهر في وقت مبكر، تقريباً عندما كان طفلاً. وأستطيع أن أعطيك تاريخاً: في يوم أحد من شهر أيلول، بعد الصلاة الإجبارية. بينما كان بيفيلاكا يمشي خلف جدته، رأى في زاوية الشارع، قريباً من شجرة الجاكاراندا، رجلاً عجوزاً رديء الهندام. وكان الخوري في موعظته حول الشريعة، قد وصف النموذج الأعلى للشحاذ وقد تلقى من القديس مارتان التورسي نصف معطف في مساء شتوي. وكان شارب العجوز الكث وكمّاه الممزقان يذكران بشحاذ الوعظ. ويعدّ هذا الظهور، بالنسبة إلى بيفيلاكا، برهاناً على سلطة الواقع الذي جاء ليعطي جسداً لكلام الخوري. واستجابة لهذه السلطة، فقد أخذ من جيبه بعض قطع النقود وجعلها تنزلق في اليد العظيمة. نظر العجوز إلى النقود، ثم نظر إلى المحسن إليه، ثم انفجر ضاحكاً. وقد مغمغ بيفيلاكا بشرح. أما العجوز فاعتذر من غير أن يتوقف عن الضحك، شاكراً ومعيداً له المال.

خلال عدة أيام بعد ذلك، بحث بيفيلاكا عن العجوز في زاوية الشارع. وذات مساء، بينما كان عائداً من المدرسة، رآه، جامداً تحت الشجرة نفسها وذلك كما في المرة الأولى. أشار إليه العجوز بالاقتراب. ذهب بيفيلاكا نحوه، كأنه قشة قلقة. والآن،

إذ هو يراه، ما كان ليعرف جيداً ماذا يقول له. وكان العجوز هو الذي بادر بالمحادثة.

«إنك لتسأل نفسك ماذا أفعل مزروعاً هنا، وحيداً، رديء الهندام، وإذا ما كنت شحاذاً، إيه؟ أنت تتصور أن الشحاذين هم كما أنا. إنك تراني وتقول لنفسك: هذا شحاذ. ولكن يجب على المرء أن لا يثق بالمظهر، يا صغيري. هل تحب الدمى المتحركة؟».

لقد رأى بيفيلاكا مسرحية للدمى المتحركة مرة واحدة في حياته، وذلك بمناسبة احتفال ممل من احتفالات عيد الميلاد. ولقد دفع به الفضول لكي يقبل.

قال الشحاذ المزور: «اتبعني». وقد أخذ الصبي من يده، وقاده إلى حي البارانكاس.

توقفا أمام منزل متهدم، نوافذه واطئة.

سأصف لك السيناريو.

لقد دخل بيفيلاكا إلى سن المراهقة. والفائدة التي كان يستطيع أن يثيرها عند البالغين، تشعل بكل تأكيد فضوله أكثر مما توقظ حذره في مواجهة الشبق الإنساني. وهذه النظرة المعززة في حافلة النقل، وهذه الركب المتقاربة في قاعة مظلمة للسينما، إن كل هذا كان بيفيلاكا يحس به على أكثر احتمال وكأنه تشريف لشخصه، أو كأنه بادرة ترحيب على عتبة العمر البالغ. أنا لست ذاهباً إلى القول إن العجوز كان فاسداً ولا أن بيفيلاكا كان يميل إلى هذه الأذواق الموصوفة جيداً في الأدب اليوناني. ولكن ثمة شيء لم يلاحظه إلى الآن رفع من حدة مخاوفه، وحضّه لكي

يذهب قُدماً، وليتبع الرجل العجوز، وأن يدلف إلى الغرف في هذا البيت المجهول.

أن نقول انزلق ربما لا يكون المصطلح الدقيق، لأنه يوحي بفكرة التقدم الذي لا يلقى مقاومة. وما دامت الحال كذلك، فإن غرف هذا البيت لم تكن سوى عوائق. فكل واحدة منها كانت مليئة بركام من الأشياء المختلفة: خزانات، ومكتبات مكتظة بالكتب الخربة، ومجالس، وطاولات، وممرات، وتماثيل تبدو من الحجر وقد تكشف أنها من الورق المعجون، وكرات من الجرائد مربوطة بحبال صغيرة، سلات للغسيل، وركام لا يمكن معرفته، وفوق كل شيء، وداخل كل تجويف، كانت توجد لعب متحركة من كل الأحجام وكل الأشكال الممكنة. وكان ثمة أذرع، وسيقان، ووجوه مرسومة بلا فن، وعيون من زجاج، وشعور مستعارة ملونة تظهر بحياء خلف المفروشات أو تعرض نفسها بهيئة لا حياء فيها فوق علبة تعطي انطباعاً بالعربدة أو بحقل معركة. وقد اعتقد بيفيلاكا، خلال فترة طويلة، أنه دخل إلى كهف غول مليء بجثث الأقزام.

رفع الرجل العجوز جندياً رومانياً كان يجلس على مقعد رث، ودعا بيفيلاكا كي يجلس وجلس أمامه على صندوق كبير ملون. إن العجوز في الظاهر (أعلم أن اسمه سبنغلر) قد دافع، في بعد الظهر هذا، دفاعاً طويلاً طويلاً وفاتناً عن فن اللعب المتحركة، وهي مخلوقات من الخشب، ومن اللباد، وتمثل أمام الجمهور واقعاً أكثر حقيقة من الواقع الوهمي لعالمنا نحن. وكان سبنغلر في المدارس، والحدائق، والمصانع، والسجون يقيم

مسرحه لكي يحكي ما يسمّيه «الأكاذيب الحقيقية»، وقد قال بيفيلاكا: «أنا مرسَل الحكاية». وبعد أن صفع بيفيلاكا على عجيزته صفعة خفيفة (والتي حكم عليها الصبي بأنها محتشمة، ولكني ربما لا أراها كذلك)، أخذ في تحريك الخيوط قافزاً من أثاث إلى آخر ومُصدراً ضوضاء غريبة.

وكما يمكنك أن تتخيل، فقد كان بيفيلاكا مسحوراً بكثرة الأيادي الصغيرة، وكثرة الجذوع، وكثرة الأنوف والعيون. إننا في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة نادراً ما نثمن العجيب، ولكنه يجذبنا في الوقت نفسه على نحو لا يقاوم. إنه يجذبنا ويخيفنا. وقد كان بيفيلاكا يريد أن يذهب وأن يبقى في الآن ذاته. وبينما كان بين هذه الخواطر، دخلت فتاة، امرأة تقريباً إلى الغرفة، وجلست إلى واحدة من الطاولات المكدسة لكي ترقع الألعاب. وعلم بيفيلاكا فيما بعد بأنها تسمّى لوريدانا.

أخذ بيفيلاكا يزور السيد سبنغلر صباحاً ومساءً: على مر السنين، لم يترك هذه العادة السيئة، فقد كان يظن أن زمن الآخرين يجب أن يتناسب مع زمنه. وكان يذهب إليه قبل أن يذهب إلى المدرسة، أو يذهب إليه في المساء، عندما تكون السيدة بيفيلاكا مشغولة في البرغاموتا. وإني لأتصور أن العجوز كان مزهواً بنفسه. ويبدو أن بيفيلاكا كان يملك على الدوام هذه النظرة الفاتنة التي تفيض بها الأهداب الدعجاء على امتداد الحواجب، والقزحيتين السوداوين. ولكن لم يكن سبنغلر هو من رآه الآن، حتى وإن بدأ يتعلق بالعجوز الأشنب. فالذي يهمه هي لوريدانا. وقد كانت بالكاد تتوجه إليه بالكلام، وهي مكبة على

خياطتها، بصدارتها المكشوفة الكتفين، وساقيها المتصالبتين معرية لساق لامعة مثل تفاحة. كان يجد سبنغلر إما نائماً على أحد المقاعد، وكتاب بيده، وإما يحرك بطريقة هيستيرية لعبة فوق مسرح قد ارتجل في إنشائه، وإما ناظراً عبر النافذة بهيئة مستغرقة، وإما ملوناً وجهاً، أو زينة بضربات قوية من الريشة. ويبدو السيد سبنغلر ماراً، من غير انتقال، من مرحلة شبه متخشبة إلى نشاط محموم. وقد كان بيفيلاكا يراهن حول الحالة التي يوجد فيها الرجل العجوز حين يقدم إليه في الصباح أو في المساء.

لم تكن لوريدانا في البيت دائماً، ولكن أن يعرف بأنها كانت هنا قبل عدة ساعات أو أنها ستأتي فيما بعد، وذلك عندما يكون قد غادر، فإن هذا يغرقه في أحلام صباحية من السأم. وعندما يتوصل إلى رؤيتها، فهي تبدو له أنها تتلاعب بالجنود والأمير بمهارة إلهية. ولم تكن الكلمة في فم بيفيلاكا مبالغة.

وإذا كان يجب عليّ اليوم أن أخترع حياة لبيفيلاكا، فإني سأعكف عليها بطريقة أخرى. وأنا إذ أعلم كيف كان عندما قدم إلى إسبانيا، وأعرف على وجه الخصوص نهايته المأساوية، والظروف الرهيبة التي قادته، فإني أعزو إليه طفولة أكثر إثارة: معاشرة للعصابات، علاقات مع فتيات أكبر سناً منه، ارتكاب أفعال إجرامية من نوع ما، والتي، فيما بعد، أثناء مراهقته تحولت إلى حراك ثوري وكما يروي هو الأمر بنفسه. فإن العنف، وسعار الحب، والسياسة (تلك التي قادته إلى السجن) لم تكن في حياته سوى ظروف عرضية، وصدفة ضائعة. وقد كان مقدراً لبيفيلاكا أن يمارس مهنة مراقب، ومتأمل، وذلك على طريقة سائح بودلير

الذي لا يهتم بأحد، ولا بعائلته، ولا بأصدقائه، وإنما بالغيوم فقط، بالغيوم الرائعة.

أعتقد، يا صديقي العزيز تيراديلوس، بأن من هذا الميل التأملي قد ولدت موهبته في الحكي، وكذلك من هذا النزوع إلى الانحراف قد ولدت التفاهة مع جرأة للجنس الفاضح. وعن سبنغلر مثلاً، الذي لم يشكل في حياته سوى مدخل إلى لوريدانا، فهو يقول إنه يتذكر سيرته من أولها إلى آخرها.

ولد العجوز في شتوتغارت، ليس بعيداً عن بيت الفيلسوف هيغل، الذي ألقى التحية، كما يبدو، على جده مرة أو مرتين. فعائلته كانت تعمل في مهنة الساعات. ولكثرة سماع الأصوات الإيقاعية لبندول الساعات، فإن كل أعضائه قد أصبحت لا تحس بمرور الزمن. ولقد كان سبنغلر الأب يهودياً نزقاً، وتقياً، ويقضي ساعات في ذم ظلم إلهه. وإنه كرس نفسه للساعات احتراماً لساعات الخلود العظمى، من غير البرهان عليها مع ذلك وكان يجد أنها فضيحة أن يخلق الله زمناً متصلاً، خالداً، وبالتزامن مع هذا كان قد أعطى للبشر وجوداً مؤقتاً، ومعجوناً، وهذا من العجائب، بالألم والحرمان. وكانت امرأته، وهي بلهاء سمينة، تبتسم ليلاً ونهاراً، في حين أنه كان يحمر من الغضب، منحنياً فوق مسنناته وراصوراته. وكان يهسهس قائلاً: «يجب على الإنسان أن يعمل، حتى لو كان رب عمله مجنوناً».

عندما بلغ سبنغلر سن الثانية عشرة، أُرسل إلى ورشة صناعة الدمى المتحركة، ولم يعد أبداً لكي يرى أهله. وقد أرجعته الحرب إلى شواطئ الأطلسي. وهناك، كان تعب رب عمله

الشديد يقعد به عن العبور إلى العالم الجديد. ولذا، فقد أعطاه صندوقاً مليئاً بالدمى المتحركة، كما أعطاه جزءاً مما وفره، ثم أركبه باخرة مليئة بالسوريين الذين لم يكونوا يعرفون جيداً إلى أين هم ذاهبون. وهكذا وصل إلى بوينس آيرس ذات مساء من الخريف، وآلاف السنين قبل ذلك. وكان يريد أن يعرف بيفيلاكا تاريخه لكي يفهم أن الحياة الإنسانية متطابقة في نهاية المطاف. وكان يردد على مسمع الصبي وهو يطبطب على ساقه: «إن الحياة الإنسانية فاقدة الاتجاه، وصعبة، وغير مفهومة، ولكنها متطابقة».

أرفض من حيث المبدأ كل تفسير نفسي منطقي، ولكني، إذا أردت رأيي، أظن أن بيفيلاكا شعر بأن حضور سبنغلر يعزز على نحو من الأنحاء الدين المبرم بموت أهله. ولذا، فقد قرر أن يكرس نفسه للدمى المتحركة، فتعلم الفن من العجوز، وكان هكذا بالقرب من لوريدانا. ولقد حظي من السيدة بيفيلاكا (والتي بدأت حينئذ في ضياع مفهوم الزمن، ونسيان أسماء الناس ووجودهم) إذناً بقضاء ساعات أكثر فأكثر عند سبنغلر. وذات يوم لا يُنسى، سمح له الرجل العجوز بتحريك الدمى أمام الجمهور. وبعد سنوات عدة، نجد أن بيفيلاكا لا يزال قادراً على دندنة النغم الذي يصاحب رفع الستارة.

لنتكلم الآن عن لوريدانا. كم مرة رآها؟ رآها ست مرات قريباً عند سبنغلر، وربما ما يعادل هذا في الشارع، ثم رآها في المسرح الصغير أيضاً. وانطلاقاً من هذه اللقاءات المتفرقة، كوّن لنفسه شخصية كاملة، من لحم وعظم. يقول الإنجليز: «وقع في الحب». أما بيفيلاكا، فلم يستخدم قط مثل هذا التعبير. وبالنسبة

إلى بيفيلاكا، فإن الوقوع في الحب ليس جزءاً من الحادث، ومن التصرف غير الحكيم. إن الوقوع في الحب يعدّ جزءاً من المواضعة، ومن العبور إلى حالة جديدة. فالمرء لا يقع، ولكن الحب هو الذي يقع فوقه، مثل المطر، وينديه حتى العظام. ولا أدري إذا كانت لوريدانا قد لاحظت ذلك. وإني لأعتقد أن نعم، فالنساء تمتلك حاسة شم بالنسبة إلى هذا الأمر. أما لوريدانا، فلم تشجعه قط. كانت تتعامل معه بأدب جم، وتسمح له بمرافقتها إلى الحافلة. كانت تقبل منه مطرباناً من مربى الفواكه، أو معجوناً من سفرجل الجيكوندا المسروق من دكان الجدة، ولكنها لم تسارره بسر حتى ولو كان صغيراً، ولم تسمح لنفسها بممازحته. وبيفيلاكا لم يعلم شيئاً عن حياتها أبداً خارج ورشة سبنغلر، ومن الجانب الآخر للستارة، ما كان يعرف شيئاً غير أن سبنغلر علّمها وأن لها اسم عائلة فيلاندية.

وقبل نويل عام ١٩٥٦، دعا منتج للمنوَّعات السيد سبنغلر لكي يقدم عرضاً في سانتياغو التشيلي. وستذهب لوريدانا معه بالطبع. أما بيفيلاكا، فقد أصيب بالإحباط. ولا أعتقد بأنه أفصح عن حاله لأي شخص. ولا يستطيع أن يروي شيئاً من هذا القبيل للسيدة بيفيلاكا، وكما أعلم، فلم يكن له في المدرسة صديق فعلاً. فالواقع يختزل إلى حدث وحيد وإلى نتائجه: لوريدانا على أهبة السفر. وسيبقى وحيداً. وإنه لا يستطيع العيش من دونها.

يمكنك أن تتصور دهشتي عندما قص عليّ تعبه من سن المراهقة. وليس ثمة أحد، وبالتأكيد ليس أنا، كان ينظر إلى بيفيلاكا بوصفه كائناً محرضاً، وحيواناً جُبل للعمل. وعندما كنا

نتكلم (أو بالأحرى يتكلم، بينما أنا، كما هي العادة، أنظر إلى ساعتي) عن السلوك المستعجل أو غير المتأني لأولئك الذين يماثلهم العالم بالمزاج اللاتيني، كان بيفيلاكا يقوم دائماً بالمديح. وليس هذا بقرار مأخوذ ببرودة، أو عن سبق إصرار، ولكن بقرار ينفجر فجأة كالرعد. أعتقد أني قلت لك إن بيفيلاكا، كما أرى، كان من إيطاليا الشمالية، وكان عقلانياً جداً. ولعله، لكي يبين لي أن كل هذا ليس حقيقياً، كان يروي لي مغامرته.

كانت الصعوبة الكبرى في عبور الحدود مع التشيلي. كان يعلم بأن بطاقة الهوية تكفي، ولكنه كان يعلم أيضاً، بما أنه قاصر، أنه يحتاج إلى إذن من جدته، وجدته لن تعطيه الإذن أبداً. وكان الحل في العثور على أوراق لشخص راشد. ومعللاً بأنه لا يمكن معرفة شخص من صورة بطاقته الشخصية، فقد أقنع بابار بأن يعطيه بطاقة هوية أخيه البكر على أن يعيدها له خلال أيام لكي يستطيع الدخول إلى مسرح منوعات له سمعة سيئة. ولكي يجد المال، باع آلة تسجيله غروندِيك لفتاة من بنات الجارات. ثم اشترى بطاقة القطار، وحشر بعض الثياب في حقيبة، وفي الفجر، ترك كلمة للسيدة بيفيلاكا، شارحاً لها أنه سافر بحثاً عن الثروة في العالم، وذلك بجهده الخاص، ومن غير مساعدة أحد. وأفهمها بأنه سيذهب في ضرب من المغامرة إلى باتاغونيا. وهذا يستدعي بالنسبة إلى السيدة بيفيلاكا مقاطعة مخيفة مثل غابة الأمازون.

لست أدري إذا كنت تشاطرني الرأي يا تيراديلوس. ولكن السفر في القطار يخالطه شيء من الجن. وأخذ القطار في بداية

حياة جديدة (أو ما تحس به السيدة بيفيلاكا بأنه مثل حياة جديدة) يجب أن يكون له بالنسبة إلى هذا الصبي طعم الملحمة. فأقل التفاصيل ستدهشه، كما لو أنها تمثل حدثاً تاريخياً: لون المقاعد البني، رجال الجمارك بشعورهم الطويلة، مجموعة من الفتيات تعزف على الغيتار. لكل شيء أهميته لأن كل لحظة، كما يقول بيفيلاكا، تشكل جزءاً من مستقبله.

لقد عبر مشهداً رتيباً خلال نهار طويل. ولقد كان عنده انطباع بأن هذا عبارة عن إعداد ضروري لانتصار كبير. وعندما ظهرت الجبال، أكدت توقعاته. وقبل حلول الليل، وصل إلى محطة حدودية جاثمة بين جدران من الحجر والثلج القذر. وإذ كانوا بانتظار تغيير عربات القطار، فقد ذهب بيفيلاكا والركاب الآخرون ينشطون أرجلهم بالتجول على الرصيف الذي نصفه أرجنتيني ونصفه الآخر تشيلي. وكان ثمة مستخدم ذو وجه نموذجي، ألقى نظرة غير مبالية على الوثيقة المزورة. وسيقول بيفيلاكا بعد عدة سنوات وكأنه استرد وعيه: «لقد مشيت في يوم من الأيام فوق Les Andes». وأما بقية المسافة، فقد جرت في الظلام.

وصل إلى سانتياغو بعد منتصف الليل بقليل. ويبدو أنه قد نام في الطريق لأنه، عندما نزل من القطار، كان كل الركاب الآخرين قد اختفوا. وباستثناء كناس عجوز، كانت المحطة خاوية على عروشها. وعندما خرج إلى الشارع، رأى أنهم يغلقون الأبواب الكبرى.

سمع السيد سبنغلر يتكلم عن مسرح حيث يجب أن يقدم الناس أنفسهم، وسأل سائق تكسي عما إذا كان المكان بعيداً.

سار. وكان الوقت ليلاً، ولكنه لاحظ على الرصيف المقابل أنوار الفندق الكبير O'Higgins. دخل وسأل موظف الاستقبال إذا كان السيد سبنغلر وفريقه ينزلون هنا. أجابه موظف الاستقبال بـ«نعم». طلب بيفيلاكا أن يوصل بغرفة الآنسة لوريدانا.

أؤكد لك أنه عندما يقول بيفيلاكا إنه ليس كاتباً، فقد كان ضمن الحق. وقد كان ينقصه هذا الاندفاع نحو الإبداع الذي يطلبه الخيال، وينقصه الاحترام إزاء ما هو كائن، وعدم الصبر لما يمكن أن يكون. لم يكن يتخيل: إنه يرى ويصف. وهذا ليس الشيء نفسه. كان (الروائي) بروست يذهب بحثاً عن التفاصيل استدلالياً، لأنه كان يريد أن يؤكد له الماضي ما يبدعه في الحاضر. وهذا الأمر لا يمثل حالة بيفيلاكا. فما يهمه، هو، كان الما قبل، والوقائع في حال من السرد الخام، وبلا أي تفسير أو تعليق.

أجهل ما يرومه. فهل ستطلق محبوبته صرخات الفرح، وستنزل الدرك ركضاً لكي ترمي نفسها بين ذراعي باسلها الهانيبالي؟ وهل ستدعوه لكي يمضي الليل في سريرها مكافأة له على إقدامه؟ إن ما أعرفه، هو أنه لم يكن ينتظر صمتاً مطلقاً. لقد سمع في الطرف الآخر من خط الهاتف صوت رفع السماعة، وسمع تنفساً متعباً، وصدى لصوته وهو يقول: «لوريدانا، هذا أنا، أليجاندرو»، ثم سمع إغلاق السماعة. وبينما كانت يده لا تزال فوق جهاز الهاتف، سأل موظف الاستقبال إذا كان يوجد غرفة شاغرة. وبينما كان الرجل يمد إليه المفتاح، اعترف له بيفيلاكا بأن هذه هي المرة الأولى التي ينزل فيها بفندق.

شارف الليل الذي لا يطاق على نهايته. وبيفيلاكا لا يتذكر

بأنه نام ولكن، إذ رأى النهار في الخارج، نهض ونزل. ووجد في قاعة الطعام السيد سبنغلر وهو يتناول فطوره. فقد أيقظته لوريدانا وقصّت عليه ما حدث. وقالت له أيضاً أن يعيد الصبي إلى بوينس آيرس في الصباح ذاته. رفض بيفيلاكا. فقد هجر كل شيء لكي يلحق بها. وإنه سيلحق بها في أي مكان. ولا يهمه أنها لا تريد أن تكلمه. إنه يحبها بصمت، في الظل. وإنه لا يستطيع العودة.

حاول السيد سبنغلر إقناعه. وتلا عليه عظته حول الواقع واضطرارنا إلى قبوله. ولكن بالنسبة إلى بيفيلاكا، فإن الخيال والكذب يكمنان في غياب لوريدانا. وتتكون الحقيقة من أن تقبل حضوره، وفعله العاشق، وشخصه.

ودخلت لوريدانا، في هذه اللحظة، إلى قاعة الطعام. استغرق بعض الوقت قبل أن يعرفها. لقد كانت لوريدانا التشيلي امرأة أخرى. فتلك التي في ذكرياته، وتلك التي يبتغيها، كانت أكبر، وأكثر سمرة، وملونة بالغياب والرغبة. ولقد كانت لوريدانا حاضرة مادياً في كل لحظة من لحظات يقظته، وفي كل دقيقة من دقائق أحلامه، وفي احتكاك شعرها على ذراعها المعطر بعطر التفاح الذي يضوع به جلدها من تحت ثوبها. إن المرأة التي دخلت إلى قاعة الطعام كانت مختلفة: منحنية بغموض، هزيلة، تعكس حركات قليلة رشاقتها. ولكي يؤكد بيفيلاكا حضوره، حاول أن يمسك ذراعها. ابتعدت لوريدانا، وكانت على وشك الجلوس، عندما مد لها بيفيلاكا يده لمرة إضافية. صفعته لوريدانا. وحينئذ نهض السيد سبنغلر وأمر الفتاة بأن تعود إلى غرفتها. كان أنف العاشق يسيل دماً. أعطاه السيد سبنغلر منشفة

لكي يمسحه. والتفت بيفيلاكا لكي ينظر إليها للمرة الأخيرة، غير أن لوريدانا كانت قد ذهبت.

عاد في المساء ذاته إلى بوينس آيرس، وبالطائرة هذه المرة، وهذا من سخاء السيد سبنغلر. وفحص رجل الجمارك طويلاً هويّته، ولكنه تركه يمر من غير أن يقول له كلمة. وأجهل أي تفسير أعطاه لجدته. وحتى بعد عدة سنوات، كان بيفيلاكا يرغب دائماً أن يسأل لوريدانا لماذا لم تكلمه؟ وهذا هو الشيء الذي لم يفهمه بيفيلاكا أبداً.

قال لي بيفيلاكا إن جدته لا تعرف شيئاً عن المكان الذي ذهب إليه. وإنه ليسأل نفسه إذا كانت قد قرأت الكلمة، أو إذا كانت قد فضلت أن تتجاهل ما يصعب عليها أن تفهمه. والأمر هو أن السيدة بيفيلاكا، انطلاقاً من هذا، لم تعد تهتم به. وربما، بمعنى من المعاني، بعد سنوات من التوبيخات والعقوبات، انتهت إلى الفهم بأن القوة والشدة لم تؤثر بتاتاً على حفيدها، وقررت، من ثم، أن تمنحه نوعاً من الحرية على شكل دعه يفعل، أي أن تدعه يعيش حياته. وبدأت السيدة بيفيلاكا ترى أن لا تتقاطع سكينتان فوق الطاولة، مما يعد وعداً للخصومة (سأقول إن هذا أقل تحققاً) ، هو أكثر أهمية من الاستفادة من كشف حساب حقيقي عما يعيشه حفيدها في العالم الواسع.

نكتشف من الصورة الوحيدة، وهي بالأسود والأبيض، والتي يمتلكها أليجاندرو لجدته (وقد آراني إياها بالطبع)، بأنها امرأة ضعيفة وصفراء، ولها حاجبان منتوفان ثم أعيد رسمهما بقلم بنفسجي، وأما شعرها فأجعد وكثيف وكأنه خوذة. ولقد تم

تصويرها بثوب مزهر أمام جدار مدهون بالكلس، وهي تبدو حزينة إلى ما لا نهاية. كانت طويلة، ومستقيمة، ومتقشفة. كما كانت حرونة إزاء الاتصال المادي، فهي لم تضم أحداً بين ذراعيها، ولم تسرف بأي ملاطفة. وقد كان لدى بيفيلاكا، طوال طفولته، انطباع بالفشل في امتحان سري. وهو لم يعرف أبداً ما هو. ومع ذلك، فقد كان هذا الإحساس المظلم بالفشل يغذي فيه إحساساً بعقدة الذنب. لقد عاش بيفيلاكا سنوات مراهقته بين هذه المرأة العجوز المتعجرفة ولوريدانا المتلاشية.

أعترف لك بأن صبري إزاء خوف بيفيلاكا محدود. فقد رأى أهلي أن كل فعل من أفعالي، على امتداد حياتي، هو ناتج لعمل عبقري، وأن كل خطأ من أخطائي هو هفوة من هفوات قديس. أما السيدة بيفيلاكا، فهي على العكس من ذلك، إذ كانت ترى أن حفيدها لا يستطيع أن يضطلع بأقل مهمة من غير أن تكون هذه مسوقة في كلّيتها إلى الفشل. وهي كانت بذلك تتقاسم، من غير أن تدري، خرافات أكثر قدماً من ثقافات الـ «po» أو القوقاز. ولكن في حين أن هذا لم يكن بالنسبة إلى أهلي سوى قواعد اللعبة، فإن جدة بيفيلاكا كانت تراها وكأنها فِخاخ نصبها إله قهري وثأري. وهي فِخاخ ما كان حفيدها الصغير الطائش ليعرف أن يتفاداها. وأعتقد بأن جدته لم تحبه قط، هذا المسكين بيفيلاكا.

وما حدث هو أن الصبي عندما عاد من التشيلي، كان العالم قد تغيّر: لوريدانا هجرته. ولقد قرر حينئذ أن يغير هو أيضاً عاداته، ومألوف حياته اليومية، وذلك كما لو أنه يثأر، من خلال سلوكه الخاص، مما لا يجرؤ أن يسمّيه القدر. وكانت حياة الجدة

موزعة بين بيتها، والكنيسة، والدكان. ولذا، فقد أراد بيفيلاكا أن ينجو من الثلاثة. وبدأ باختراع أعذار لكي يتسكع خارجاً بعد الدروس أو لكي يغادر البيت قبل الساعة المعتادة. وكان يغيّر كل يوم الطريق لكي يذهب إلى المدرسة، وكان يضيع في الأحياء المشجرة بالبيوت الواطئة، بين حدائق قديمة وبنايات لا يقدر أن يخمن سبب وجودها. وكانت بوينس آيرس في هذه الأثناء تمثل المدينة المثلى للضياع. وهكذا جرت الساعات، والأسابيع، والأشهر. فضولي مثل بعد ظهر يمكنه أن يمتد إلى ما لا نهاية، بينما تختزل سنوات عديدة في تسعة أشهر.

ولكني أجهل إذا كان كل هذا يهمك يا تيراديلوس، وإذا كان هذا الذي أرويه لك يعطيك حباً لطحنه. أنت تريد أن تعرف كيف مات أليجاندرو بيفيلاكا. وتريد أن تعرف كيف يمكن لشخص في الأربعين أن يكون مصقولاً ومتزناً، في الوقت الذي أخذت الشهرة تبتسم له، وتهبط على رصيف شارع برادو، تحت شرفتي، وذلك ذات يوم أحد من شهر كانون الثاني، في الصباح الباكر.

سآتي إلى هذا، يا تيراديلوس. فاصبر قليلاً.

لديّ نظرية بخصوص هذا الضرب من الأشياء. فنحن نظن عموماً أن ولادتنا تنتج من تقاطع أحداث تاريخية وخاصة، بفضل فيض مجتمعاتنا واندفاقها، وذلك مثل سيرة أهلنا وأجدادنا. وبقول آخر، إنما هذا يكون بفضل المجس العادي للعالم. ولكن موتنا ينتج أيضاً (أقول: موتنا خصوصاً) بالذهاب والإياب نفسيهما، وبالترهات المركبة مع ظروف هائلة. نحن نتيجة لآلاف الأفعال السرية والعامة، ونهايتنا هي كذلك. ولكي يصار إلى تفسير موت

أي كان، وخصوصاً إذا كان الموت عنيفاً، وغامضاً، فيكفي المرء أن يصعد الزمن بلا تعب، ويجمع كل تفصيل، وكل كلمة، وكل تناسخ الحياة، والسهر لكي يفك ذكاؤنا الكوكبة التي تتكون. ويجب على المخبرين أن يكونوا منجمين إلى حدٍ ما. فبوارو وباراسيلس هما أخوان في الدم. ولقد قلت دائماً إن التحقيق الجنائي (على الأقل في الأدب، هنا حيث تتضح كل الجرائم الكبرى) يشبه دراسة الأجسام السماوية.

لنبدأ بالإطار الخارجي. إنك تتذكر من غير شك (أو إنك تتخيل) ماذا كانت مدريد تشبه في ذلك الوقت، أي في وسط الستينيات، عندما بدأ النتن، والظلام، والإحساس بوهن سنوات الديكتاتورية بالتواري للحظة. وأقول «للحظة» لأننا لا نزال نملك الانطباع بعبور حفلة راقصة مشؤومة ومقنّعة، لا سيما بالنسبة إلى شاب مثلي، ليحتفظ في أذنيه بصدى أعياد البورتين الكبرى. لم يكن ثمة أحد يحمل وجهه وجهاً حقيقياً. إذ إنها جميعاً كانت تخفي شيئاً ما، وكل واحد كان يكذب بحكم العادة تقريباً. وكان كل قناع صغير يعكس قناع المدينة كلها، مدينة لم تكن ما كانت تدعي أنها كائنته، ولا تعترف بسقمها الدائم، وبهذا الشعور بالضغط الذي يهدد كل منعطف.

وما دام هناك شيء آخر، فلنتبينه ولنعرف أنه كلي الحضور في الجبال شتاء، عندما يندلق ضباب قذر في شوارع مركز المدينة، من جانب ساحة الشرق، وفي الزوايا النجسة للأزقة التي تشق طريقها عضاً كالديدان الوحيدة بين البيوت القرميدية والوسخة. أو يكون هذا في الصيف أحياناً، عندما تتكثف الروائح في الزوايا

أثناء عطلة الأسبوع، مالئة الليل بعفونة الأرضي شوكي وبالخمر المحمض. ولقد اعتقدت غالباً أني أختنق أثناء كل الوقت الذي أمضيته في مدريد، وأنا أصغي في حلقة لـ Bohamian Rhapsody الذي أرسله إليّ صديق من نيويورك.

في غرفتي الواقعة في شارع البرادو، بينما كنت أحاول أن أرمي بالكلمات على الورق، كنت أرى أناساً لابسين معاطف مأتمية يتقدمون بجهد، وكأنهم عربات يجرفها نهر من الطين. وأحسست أن ثمة شيئاً على وشك التغير، وذلك عندما رأيت للمرة الأولى زوجاً من الناس، هو يلبس الأزرق وهي تلبس الأحمر. وقد صعدا الشارع ركضاً ضاحكين.

ومع ذلك، فمن أين جاء منفيّو أمريكا اللاتينية، فلديهم إحساس بأنهم في حلم. بالتأكيد، فإنهم لا يزالون غير قادرين أن يثمنوا هذه الثقافة الجديدة والتي، كما يروى، كانت في طريق الظهور في فرنسا، وفي إيطاليا، وفي إنكلترا (وحتى في السويد، وهذا غريب)، ولكنهم ما عادوا يتعرضون لمخاطر مكابدة الاختطاف والمساءلة. وإذا كانت هذه الأرض الجديدة تبدو أرضاً غامضة حيث الحيوانات الضارة أيضاً لا تقدم الجهد لبناء أي شيء كان، فإن المدن التي فروا منها كانت صحارى حيث عدم العمل نفسه كان خطراً، وحيث كل شق، وكل حصو كان ريبة وتهديداً. فقد كانت بوينس آيرس، ومونتيفديو، وسانتياغو أماكن موحشة ومخيفة، في حين أن مدريد ربما كانت تبدو لهم موحشة، ولكنها أيضاً مطمئنة. أعرف مجموعة من الكتّاب، في برشلونة، وفي سان سيباستيان، وحتى في سفي، قد نجحوا في إنهاء كتابة كتب

كانوا قد حملوا معهم مخطوطاتها الثقيلة. أما في مدريد، فليس الأمر كذلك.

لقد كان إنريك فيلاماتاس يهتم بظاهرة رواية المنفى التي لم تكتب أبداً. وقد التقى بيفيلاكا في هذا الوقت (إذا كنت تعرف كاتب Mal de Montano، إنه متأنق أصيل، وفتوة يهوى الرقة والنساء) وإني لأشك أن يكون اللقاء المزعوم قد ألهم هذا الذي سيصبح، بعد عدة عقود، هذا التقليدي الفائق الوصف، Bartleby et Companie.

يقول بيفيلاكا من غير أن يسمي: يوجد ممر من بارتليبي إلى فيلاماتاس، أنا على يقين. وأنت بوصفك قارئاً كبيراً، يجب أن تعرفه عن ظهر قلب. «في أدب الرفض، ثمة آمال لم تكتب، ولكننا نجهل عنها كل شيء: العنوان، والموضوع، والطول والأسلوب. وإنه ليقال لنا إن هذا الشخص، وهذا الكاتب هو مؤلف معروف. ولكنه مؤلف ماذا؟ هو نفسه ينكر أبوّته، من غير أن ينسبه إلى نفسه، وذلك كما كان سلفه الشهير، دور الحمى. السيد * يقول إنه ليس كاتباً، وإنه لم يكتب: إن الصوت الشعبي يناهض هذا مؤكداً بأن عمله وشخصه غير المقروء رائعان.

عندما علم فيلاماتاس بموت بيفيلاكا، كتب إليّ قائلاً إن للجريمة دوافع ثقافية: «أي حل أفضل بالنسبة إلى مستعار الاسم بارتليبي، وبالنسبة إلى مؤلف كتاب اللاموجود، من أن نصنع منه مؤلفاً غير موجود. وسيتقاسم من الآن فصاعداً الرف الفارغ نفسه».

لا يمكن لـ «فارغ» أن تكون الكلمة الجيدة لوصف بيفيلاكا

ذلك الزمن. فهو منخور من الرعب، ومخوف، ونازف، أجل، ومتورم بالشكوك وبالحذر، هذا، أجل. كان الخوف محزناً في السنوات الأخيرة في الأرجنتين. وكان يجعله يقفز مع كل خطوة يخطوها ويحذر من سمات اللطف، ويحتفظ بأسراره لنفسه وبآرائه. بيد أنه لم يختف تماماً حين وصل إلى إسبانيا.

وأضرب لك مثلاً. بعد استقراره في مدريد بزمن قليل، جاءت أندريا ببيفيلاكا إلى مقهى من مقاهي كاستيلانا، والتي، هي اليوم كما في الزمن الماضي، تقدم قهوة سيئة بسعر باهظ، وحيث الميلي - ميلو الذي يشرب في أمريكا الجنوبية نزل وأحب أن يوجد. وكان تيتو غوروستيزا، سلام على روحه، منهمكاً في تفتيش الحقيبة التي يحملها دائماً، mad in mendoza، يبحث لا أدري عن أي نص لكي يقرأه على الآخرين. ومن بين الكتب التي وضعها فوق الطاولة، كنا نستطيع أن نرى مختارات لحكايات منشورة في هافانا. إن بيفيلاكا إذ رأى الكتاب، ألقى عليه نظرة من فوق كتفيه، ثم أخذ معطفه وأسرع في تغطيته. اصفر لونه. واستغرقتُ وقتاً لكي أفهم لماذا.

أنا مقتنع بأن بيفيلاكا لا يندم على منفاه في مدريد. على العكس من ذلك: كانت تعميه الفكرة التي صنعها لنفسه عن إسبانيا. وقد كان محظوظاً أن وقع تحت جناح كيتا وأندريا الحامي. فهو بدلاً من أن يضطر للخضوع لتقشف فندق في وسط المدينة، استطاع، منذ اليوم الأول، أن يسكن طابقاً في حي البروسب، ليس بعيداً من مكاتب «بيت مارتان فييرو». وهو طابق سبقه إلى السكن فيه خمسة منفيين من الأرجنتين، منهم كورنيلو

بيرانس، والهولندي التائه، كما كنا نسمّيه بسبب البلدان العديدة التي عبرها.

لقد كانت الغرفة التي خُصّصت له صغيرة، ولكنها مضيئة. أعطته كيتا قليلاً من المال. وأما أندريا، تماماً في مجرى عمليات نجاة الأمريكيين اللاتينيين، فقد اقترحت عليه أن يرافق، خلال وقت، واحداً من الرفاق الذين يبيعون أشياء من الصناعات الحرفية في شارع غويا. وإنك لا تتصور كم من الأسماء المشهورة اليوم بسطوا أواني عروضهم الصغيرة فوق الأرصفة. إني أمتلك سواراً من الفول الذي ضمه سيد يعد اسمه في رأس قائمة أفضل البائعين في بلاده، يا تيراديلوس. وعلى كل حال، فوق الرصيف الواسع لشارع غويا، افتتح الفصل الإسباني في حياة أليجاندرو بيفيلاكا.

اعذر الفوضى في قصتي يا تيراديلوس: لقد تبين لي أننا لم ننته من الفصل الأرجنتيني. فلنعد قليلاً إلى الخلف، من فضلك.

لقد قرر بيفيلاكا، بعد الانتهاء من المدرسة، أن لا يدخل إلى الجامعة. فقد كان يراها نظامية جداً ومتسلطة بالنسبة إلى ذوقه. حاول في البداية أن يكسب عيشه من الدمى المتحركة، وذلك على الرغم من اعتراض خفيف أبدته السيدة بيفيلاكا. واكتشف بعد ذلك أنه يستطيع أن يكسب بعض المال من الكتابة في هذه السيناريوهات لروايات مصورة كنت قد حدثتك عنها.

ابتدأ بالصدفة تقريباً، ذات يوم أطول من الأيام الأخرى، متصوراً مخطوطاً يروي (بطريقة تعزيمية من غير ريب) قصة حبه الرومانسي والتعيس مع لوريدانا. وإذا فكرنا في ذلك، فسنجد أن الحجة ذات طابع مسرحي: إن المراهق يقع أسير الفتنة، والجميلة

غير المبالية، والرجل العجوز الأبوي وغير الفعال، والمطاردة من جميع الجهات، والخيبة النهائية. وإن بابار، والذي تجرأ عليه فأطلعه على مكتوبه، بدل أن يسخر منه (كان يعمل حينئذ كاتب عمود في جريدة اقتصادية)، نصحه بإرساله إلى دار النشر جوتاجيه، المختصة بالبورنوغرافيا الناعمة، وبالمجلات العاطفية، وبالروايات المصورة، وهكذا بدأت مهنة الأدب لأليجاندرو بيفيلاكا. وإياك أن تقول لي بعد ذلك إن النسر لا يصطاد الذباب.

وأثناء هذا الوقت، فإن جدته، هذه المرأة العجوز الباردة، تاهت في اختلاط عقلي وفي الذكريات أكثر فأكثر. ولما كانت أقل صلابة، وأقل حسماً، فقد بدت السيدة بيفيلاكا شديدة القلق، وشاردة. وصارت تنسى مهمات صغيرة يومية مثل طلب الزيتون، والتحقق من الحسابات، أو ترك الغلاية على النار. وذات يوم، عثر عليها أليجاندرو جالسة في المطبخ، كما لو أنها نامت مفتوحة العينين، في وسط سحاب من الدخان الأسود، في حين أن قطع لحم العجل المدورة قد تفحمت في الفرن. وفي مرة أخرى، نهضت السيدة بيفيلاكا قبل الفجر، لبست ثياب يوم الأحد، وأيقظت حفيدها لكي تقول له إنها ستذهب إلى المقبرة «لأنهم ينتظرونها هناك». وقد وجب على أليجاندرو أن يمضي الوقت معها أكثر فأكثر، وهو يرى أن كل ما كان فيها صلباً في الماضي قد أخذ في التميع يوماً فيوماً، حتى صار جلدها شفافاً، وظهرها منحنياً، وصوتها ساكتاً، ونظرتها منطفئة، ويداها مرتجفتين.

ذات مساء، بعد أن ذهب ليسلم السيناريو الذي كتبه، ترك بيفيلاكا، من غير أن يعرف فعلاً لماذا، الحافلة تنقله إلى مكان

أكثر بعداً من المعتاد وإذ عاد القهقرى سيراً على الأقدام، ولحظة دخول الليل، رأى باب بيته موارباً. صعد إلى الطابق في الحلكة. شده عطر الأوكالبتوس، ورائحة زنخة عند مدخل غرفة جدته. وسمع ضوضاء خشنة. رأى في السرير، المحاط بجوقة من القرود ذوي الشعر المستعار، جسد السيدة العجوز مختزلاً إلى حجم لعبة متحركة. وحده حلقُ الأذنين المتدلي مثل مروحة، قد زاد في الحجم. كل شيء كان صغيراً ومشابهاً. وكان الحاجبان المرسومان، والشفتان البيضاوان يكثفان الانطباع بالواقع، وبشيء ما معلق، وعلى وشك أن يتلاشى. ناداها الحفيد: انفتحت عيناها، انغلقت ثانية، انفتحت لمرة جديدة. نظر إليها وأحس بأن عينيها تتهمانه. وقال لي: لقد كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تلقي فيها السيدة بيفيلاكا نظرة موبخة على حفيدها.

كان التنفس ضيقاً، ومتقطعاً بوقفات طويلة محسوبة. وتوقف بعد فترة. ويتذكر بيفيلاكا أن جدته كانت تتمنى أن تتلقى المسحة الأخيرة. ولكن أين الذهاب؟ ويستدعي مَن في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ وأين توجد إذن الكنيسة الأكثر قرباً؟ وفي النهاية، ذهب لينام. وفي اليوم الثاني، استدعى شركة دفن الموتى. وبعد مضي أسبوع على مراسم الجنازة، وخلال البرغاموتا الأكثر قدماً ، تذكر بيفيلاكا حياته برفقة جدته الرائعة. فماذا بقي له من كل ذلك؟ ومن يكون الآن هذا اليتيم المتحير؟ لقد قارب الثلاثين، وليس لديه عائلة ولا أي صديق تقريباً (الوفي بابار كان هنا، وكذلك بعض مصوري دار النشر جوتاجيه)، وأحس بأن الوقت قد حان، بالنسبة إليه، لكي يحدد نفسه، وأن يكتسب سمات، وأن يكون له حضور

خاص به، من غير أي شيء يمتّ بصلة إلى هذه المرأة الدقيقة والتي كانت تحلم من أجل حفيدها بحياة بائع اللحوم المجففة. ولقد قام بالمحاولة الأولى: عندما اقترب الخوري منه ماداً إليه خبز الذبيحة، أن يتقدم إلى المؤمن التالي. ودفنت السيدة بيفيلاكا في مقبرة شاكاريتا. ولم يذهب بيفيلاكا بعد المأتم إلى قبرها أبداً.

نحن في عام ١٩٦٧. لقد بلغ بيفيلاكا من العمر تسعاً وعشرين سنة. وورث بلا أوراق كثيرة من بيت جدته ومن دكان البرغاموتا، كما ورث أيضاً حساباً محترماً للتوفير. وأختصر لك: باع الملكيتين، وأودع المال الذي سحبه، ومن غير أن يسأل لماذا، سجل نفسه، احتفالاً بعيد ميلاده الثلاثين، في جامعة الفلسفة والآداب. وهنا التقى غراسييلا.

وكما لاحظت، من غير شك، ثمة نساء كثيرات تعد في حياة بيفيلاكا القصيرة. وكما قلت لك، فإن مراهقته جرت بين قطبي جاذبية لاثنتين منهن، القطب الجنوبي والبارد لجدته، من جهة، والشمالية والسمراء لوريدانا، من جهة أخرى. وثمة أخريات في الجزء الثاني من حياته، تتعارض أيضاً كل واحدة مع الأخرى. ولكننا سنعود إليهن فيما بعد.

اسمح لي باستطراد. إنه من الفضول ملاحظة أننا، خلال سنوات طويلة من حياتنا، نجد أنفسنا في المشهد مع عدد محدود من الأشخاص. وهم هم أنفسهم: البطل أو البطلة، الرجل المسن، الساذجة، الصورة الأمومية، الخبيث، الرفيق الوفي. ويوجد دائماً في حالة بيفيلاكا دوران نسائيان: المرأة القوية، المتحفظة، تلك التي يطيعها بيفيلاكا مع تمنيه أن يتخلص منها،

وأما الأخرى، فمرغوبة ولكن الوصول إليها غير ممكن، وهي قادرة على جرحه من غير أن تمنحه نظرة. من بين الرجال في حياته، فإني أعرف بعضهم: بداية، الصديق الدائم الذي هو بابار، قليل الثرثرة ولكنه حاضر دائماً، وهو جسره إلى العالم العملي. وبعد ذلك، نجد المربي، أمين الوعي، المعرف بالأخطاء الذي يمكن أن يكون السيد سبنغلر، وأنا المسكين الذي ورث دوره.

وبعد أن فكرت جيداً، ثمة شخص ثالث: العدد غير المرئي.

أما الساعة، فاسمح لي أن أعود إلى غراسييلا. لقد كانت غراسييلا أكثر شباباً من بيفيلاكا، ولكن ليس أكثر بكثير. إنها سمراء، ناحلة، عدوانية، ذكية. وكانت المرة الأولى التي تبادلا فيها الحديث، في مقهى قبالة الجامعة، حيث كان بيفيلاكا يراجع امتحاناً، وحيث هي وجدت مجموعة من المعارضين. وإني لأتصور بأنهما شعرا بتقدم عمرهما بين كل هؤلاء المراهقين. رفع بيفيلاكا العينين عن صفحته، وتقريباً من غير إرادة، حوّلهما إلى مقورة فستان غراسييلا.

مباشرة، سمعها تقول: «قل إذن، أنت!»

وفهم أنها تكلمه.

«أنا»، سألها مدهوشاً.

أما هي، فقد أجابت بصوت عالٍ وقوي لكي يسمع كل من في المقهى:

«أجل، أنت. ألنت تنظر إلى ثديي بحسد؟»

أغطس بيفيلاكا رأسه في كتابه. وعندما رفع عينيه أخيراً، كانت غراسييلا قد غادرت. ولقد وجدا نفسيهما بعد ذاك في

الصف نفسه. وحتماً كانت هي التي قد اقتربت منه. وكانت تريد أن تعرف ما الذي يفعله في الحياة، وما هي الدراسات التي يتابعها، وما هي آراؤه السياسية. اعترف بيفيلاكا بأفضلية أو اثنتين. فاستهزأت غراسييلا بهما، أما هو فاستسلم إلى أفضليات أخرى. وبقي هذا الطقس الأول لا يتغير خلال السنوات التي دامتها علاقتهما.

كانت غراسييلا الفتاة الثانية لزوجين من كتّاب العدل. وأعتقد أنهما كانا أرمنيين أو شيئاً من هذا القبيل، وكان اسم عائلتهما على كل هو آريغيران. وكانا يعيشان في حي ألماغرو: بهذا، فقد قلت كل شيء. لم تكن غراسييلا ترغب في أن تكون كاتبة، ولا تحب المجلات الأدبية، وغير مهتمة بالأدب الفرنسي الجديد. وقد رأت نفسها، فيما بعد، على رأس عمل غامض سياسياً، غير أن توجهها الطبيعي لمهنة المحاماة بدا لها قريباً جداً من مهنة أهلها. وقد قالت إن كلية الآداب ستسمح لها بأن تحضر نفسها للتاريخ وللبلاغة التي ترتبط به. وقد كانت لها سمعة بكونها خطيبة لامعة.

انظر يا تيراديلوس، في رأيي، إذا كانت غراسييلا قد ضمّت بيفيلاكا إلى جناحها، فلم يكن هذا لحمايته، هو، وإنما لكي يكون لها شخص تحميه. والذين كانوا يرونهما معاً، كانوا يقولون إنهما زوجان للحلم، ولكن الأكثر فطنة كانوا يرون أن هذا الاتحاد يشبه الطعم المزروع في اللحم. لقد كان بيفيلاكا وحيداً في العالم، وبيفيلاكا يجهل مخاطر الحياة، وبيفيلاكا لا يملك أي خبرة عن الاستراتيجيات الإنسانية. وقد كانت غراسييلا تفخر بأنها خبيرة في كل هذه الميادين. ووجدت غراسييلا أنه من الممتع أن

يندهش بيفيلاكا من كل شيء، وذلك بالطريقة التي نتمتع بها إذ ننظر إلى فراشة خلف لوح زجاجي لا تراه الخشاشة المسكينة. إنني أقول إنها تزوجته لكي تراه ينهرس ضد الزجاج.

تزوجا، واشتريا منزلاً في حارة بويدو، وأنهيا دراستهما، وبدآ بالعمل. عمل هو مدرساً في مدرسة في الحي، وعملت هي أستاذة مساعدة لا أدري في أي قسم من الجامعة. أي تفاهة! ستقول. تفاهة ولكن، ولكن إذا قرأنا التاريخ بعين استرجاعية، فإننا سنجد أن كل قرار، وكل حركة، وكل خطوة كما شرحتها لك، تسهم في النهاية الكبرى: طبول، جرس، صنوج.

ويبدو أن غراسييلا قد بدأت تنظم اجتماعات بعد الدروس، في قلب الجامعة نفسها. وكان يشكل نقابي من هنا، ورفيق درب من هناك، وبعض المثقفين من الأورغواي، وكاتب غامض من الريف، جزءاً من مجموعة تحمل اسم سبارتاكوس بالطبع. ولذا، فقد بدأت بالعودة متأخرة في الليل إلى البيت، وحينئذ بيفيلاكا قد ذهب إلى النوم، تاركاً لها على الطاولة شريحة لحم مطهية على الطريقة الميلانية، بالإضافة إلى بطاطا مقلية مشتراة من مطعم الزاوية. وأثناء العطلة الصيفية الطويلة، كان بيفيلاكا يقترح قضاء أسبوع أو أسبوعين في محطة حمامات أقل ازدحاماً من مار دل بلاتا، غير أن غراسييلا كانت تتحجج بأنها يجب أن تبقى في العاصمة متعللة بعلة نقابية ما. وكان بيفيلاكا، من غير أن يوجه إليها أي عتاب، يسافر إلى نيكوسيا، وإلى لوس بينيتوس، أو إلى ميرامار، مع احتياطي صغير من الروايات البوليسية.

ذات يوم من أيام الصيفيات، عاد إلى البيت أبكر مما هو

متوقع، وفاجأ غراسييلا وهي بقميص النوم، وتصنع القهوة بالحليب لرفيق من الأرجنتين. وأي من الثلاثة لم يفقد هدوءه. جلس بيفيلاكا إلى الطاولة لكي تقدم له الشيء نفسه. ولقد غدت، بعد ذلك، تأخيرات غراسييلا متكرّرة أكثر فأكثر. وفي بعض المرات، كان بيفيلاكا لا يراها خلال عدة أيام، ثم، وهو داخل إلى البيت، يجدها في السرير في السادسة مساء، وهي تغط في نوم عميق.

كان بيفيلاكا يمتلك ما أسمّيه رؤية متماسة مع الواقع. وأريد أن أقول إنه، انطلاقاً من العناصر المتناثرة، ومن المعلومات الجزئية، كان قادراً على بناء سيناريو متماسك ومتشابه، وبناء نوع من الحجة المنطقية مع شخصياته الرئيسة والفرعية، وبناء حبكاته وحلها. وكان بيفيلاكا، انطلاقاً من آثار متفرقة كانت غراسييلا تتركها فوق ممرها (الفطور مع الأورغواياني، يمثل، في رأيي، الأثر الأكثر جذربة)، يعيد بناء مغامرات زوجته المحتملة بالتفاصيل الأكثر دقة. ويكون عاشقها في بعض الأحيان مكرشاً ومشورباً، وفي أحيان أخرى، يكون يافعاً ابتدأ لتوه بحلاقة ذقنه. وذات يوم، كان قسيساً من العمال له ذراعان مفتولة عضلاتهما تحت ثوب الأسقفية، ثم كان أستاذاً في الحقوق له شعر مدهون. وأما أحد الاستيهامات الأكثر تواتراً، فيتمثل في كيتوب مجهول من ريو غاليغوس أو من راوسون، حين اكتشف له ذات يوم كتاباً من الشعر (أخشى أن لا يكون بعنون آذار الأحمر) فوق طاولة نوم غراسييلا. غير أنها كانت تقول له: «ولكنني لا أحب سواك». وكان بيفيلاكا يصدقها.

قرر، ذات صباح، أن يتبعها. غراسييلا قالت له ستذهب إلى مظاهرة في مركز المدينة، بالقرب من المسلة. وكان يجب عليها أن تخرج باكراً لكي تلتقي أولاً وفداً من الكاريبيين، «أخوة الأمريكيين الآخرين»، كما قالت، وهي متأثرة في ذلك بهذه اللهجة السياسية التي تلطخ أطيب النيات. كانت المظاهرة مقررة في الظهيرة. وعندما وصل بيفيلاكا، رأى مجموعة صغيرة من الأشخاص مجتمعين أمام الواجهات الزجاجية لكازا غولد. اعتقد بداية أنه لن يراها أبداً بين الجمهور الذي يتصوره ضخماً، كما نرى في نشرة الأخبار المتلفزة. ولكنه سرعان ما رآها في وسط عشرين أو ثلاثين شخصاً، وهي تعين يافعين على رفع شعار. وتقدم منه عجوز صغير، يحمل قبعة، ومد له يده.

قال له العجوز: «شكراً لانضمامك إلينا أيها الرفيق».

- أجاب بيفيلاكا معتذراً: أنا معها.

- قال العجوز ضاحكاً: مع غراسييلا؟ فليحفظكما الله!

انتظروا قليلاً لكي يروا إذا كانت المجموعة ستزيد، ولكن أحداً لم يأتِ. فأعطت غراسييلا حينئذ الأمر بالانطلاق.

أحس بيفيلاكا أنه بحال سيئة على نحو مريع وهو يمشي مع الآخرين في شارع دياغونال، في حين أن المشاة كانوا يقفون على الرصيف لكي يراقبوهم ويقذفوهم من وقت إلى آخر بشتيمة أو تشجيع. وقد جعل بيفيلاكا همه في أن لا تغادر عيناه غراسييلا التي كانت تقود الآن الموكب بعد أن صدح بنشيد أحمق. وعند الوصول إلى كابيلدو، انبثقت فرقة من الخيالة من شارع جانبي وقطعت عليهم المرور. توقفت المجموعة، ولكن غراسييلا تابعت

تقدمها. لحظة، ثم واجهت وحدها الخيالة. وحاكاها الآخرون فوراً.

لم يكن بيفيلاكا خائفاً. فقد كانت هذه هي مظاهرته الأولى، وهذه هي المرة الأولى التي يكون فيها جزءاً من شيء أكبر منه. وقد اختلط بالآخرين، وغنّى مع الآخرين، وتحرك مع الآخرين. وكان يفعل ما تفعله المجموعة، من غير أن يحسب حساباً لأي كان، ومن غير أن يتحمل مسؤولية أعماله. ولقد أحس حينئذ أنه سعيد، وحر، وغفل. هل فكرت في ذلك؟ إنه المفضل لدى امرأة تقودهم جميعاً، إنها غراسييلاه.

كانت تلك بداية ضجة مجهولة الأصل. وفيما بعد، صارت خليطاً من ضرب العصي ومن أصوات الحوافر، والصهيل، والصراخ، ومن صفارة الإنذار تطلقها سيارة شرطة. رأى العلم يسقط، والجنب الواسع للحصان، ويداً مغطاة بالدم. شاهد غراسييلا تتوارى بين خيالين، وتبعها.

فجأة أحس بأن أحداً يمسكه من ذراعه. ولم يقاوم. قادته غراسييلا نحو مقهى وأرغمته على الجلوس. ضغطت قبضة من المحارم الورقية على أذنه اليسرى. وعندما تقدم النادل منهما، كان قلقاً، طلبت غراسييلا، بهدوء أعصاب، فنجانين من القهوة وكوباً من الماء. حمل النادل الطلب، وغطست غراسييلا قبضة أخرى من المحارم في الكأس.

قال النادل: «لسنا هنا في مستوصف.

– أجابته غراسييلا: انقلع. وأحضر كوباً آخر من الماء للسيد».

شربت قهوتها جرعة واحدة، ووضعت فوق الطاولة بعض القطع النقدية.

قالت لبيفيلاكا: «تهانينا! ليس سيئاً بالنسبة للأولى».

عند هذه الكلمات، نهضت وغادرت. بيد أن بيفيلاكا لم يرها بعد ذلك أبداً.

وقلت لنفسي الآن إن حياة بيفيلاكا لم تكن سوى خطاطة حياة. وبقول أدبي إنها لم تكن سوى مجموعة من الأجزاء، ومن الفتات، ومن المشاهد غير المكتملة. فأي جزء منها يشكل بداية طيبة من أجل رواية عظيمة من ألف صفحة، رواية عميقة وطموحة. وأما السيرة التي أرويها لك، فهي على العكس من ذلك، إنها على مثال الشخصية تردداً، وعدم تحديد، وحماقة. ولقد حذرتك منذ البداية: أنا لست الشخص الذي يشار إليه بالبنان لكي يروي كل هذا.

ولكن ثمة شيء موعود، شيء مستحق. فبعد اختفاء غراسييلا، عاش وحيداً في بيت شارع بويدو، معطياً الدروس أثناء النهار وكاتباً السيناريو في المساء. رأى بابار في بعض المرات، ولكن لاحظ الاثنان أنهما لم يعودا يملكان شيئاً ليقولاه. وفي المرة الأخيرة التي التقيا فيها في الشارع مصادفة، عبرا طريقهما من غير أن يسلّم الواحد منهما على الآخر.

وذات مساء، التقى بيفيلاكا واحداً من الأرجنتينيين في المقهى الكائن في زاوية الشارع ولم يستطيعا أن يتجنبا الجلوس معاً على الطاولة نفسها. تكلما من غير حماسة عن الكرة، وعن ثمن القهوة بالقشطة، وتظاهرا بالحديث عن صحة سيدة عجوز، واستدعيا

الإشاعات الغامضة بخصوص ما حصل لغراسييلا بعد المظاهرة.

«لقد أنجز الأطباء مئة وقفة على كل شيء. إن المرء لم يعد بإمكانه أن يموت بسلام».

- إن ممن يجب الحذر منهم هم الممرضات. إنهن يقتربن منك لكي يعطينك حبة الأسبرين، فيغرسن مشرطاً في ظهرك.

سأل بيفيلاكا:

- هل تعرف الممرضة المعنية؟ وهل أنت متأكد من وجود واحدة؟

- يا أخي، أنا لست متأكداً من شيء، غير القبر الذي ينتظرني. وأيضاً أنا غير متأكد من أنه سيكون على اليابسة أو في الماء. ولكن يوجد واحد، وهذا أكيد».

افترقا من غير أن يتصافحا، ناظرين إلى الأرض. وفي هذا الزمن، كنا نمشي في بوينس آيرس منكسي الرؤوس، قاصدين أن لا نرى شيئاً، وأن لا نسمع شيئاً، وأن لا ننبس ببنت شفة. وكنا نقصد، خصوصاً، أن لا نفكر، لأننا كنا نعتقد في النهاية أن الآخرين يقرأون أفكارنا. (سيكتشف بيفيلاكا، فيما بعد في مدريد، أنه يستطيع أن يفكر، ولكن بصمت خانق جداً إلى درجة أنه كان لديه انطباع بأنه يتكلم من القمر، حيث غياب الهواء يبدو غير ناقل لأي صوت).

ولقد بدا له تعاقب الأيام مرهقاً من غير غراسييلا، وفاقداً للتقدم، وللتغير. فكل شيء يدور حول نقطة مظلمة وبعيدة. وأدرك بيفيلاكا أنها هي، مع كل سلوكها الشرس إلى حدٍ ما، وفجورها الوقح، وخياناتها المتعددة، التي أعطت معنى لكل

تحرك من تحركاته، ولكل كلمة من كلماته. ولست مبالغاً في هذا وإني لأروي لك ما جعلني به بصيراً لقد كانت غراسييلا مركز جاذبيته. ومن غيرها، فإن كل شيء سينهار. ولذا، فقد أسقط العالم من اهتمامه. وترك نفسه تجري على هواها.

وذات نهار، في الصباح الباكر، أمسك به رجلان صامتان في الشارع. وفي داخل السيارة التي تقوده إلى السجن، ثمة بطاقة ملصقة على الأبواب تنذر كل من يحاول أن يفتحها. أفرغت جيوبه، في حين كانت امرأة ضخمة مربوعة تسجل كل أغراضه - الساعة، القلم، المحرمة، محفظة النقود- في دفتر مدرسي. وبعد ذلك، ترك خلال ساعات في زنزانة غارقة في الظلمة. ولم تبدأ الجلسات إلا بعد عدة أيام. وسأوفر عليك التفاصيل.

لا أريد أن أصف لك هذا الرعب، وليس من الخطأ أن يكون الإنسان ملماً به. ولقد روى بيفيلاكا لي كل شيء، على الأقل ما يمكن أن يكون، وفي النتيجة لم يقل شيئاً كبيراً. بيد أنه تحت سطح ما نحن قادرون أن نصوغه بالكلمات، تتحرك الكتلة المظلمة والخفية بعمق لما يدق عن الوصف، إنه محيط معدوم الضوء حيث تسبح مخلوقات عمياء ولا يمكن تصورها. وحتى هذا، فقد لمحته لحظة اللقاءات المتكررة، من أول تعاقبها المؤسف إلى آخره. وقد كان ذلك لأن بيفيلاكا بسط لي حياته قافزاً فوق الفصول، وبادئاً بالنتيجة وعائداً فيما بعد إلى التمهيد. بدأ حكايته بالجنة، ثم تابعها في الجحيم لكي ينهيها في المطهر. وفي هذا المطهر، لم يكن موجوداً لا أندريا، ولا كيتا، ولا أي واحد من أولئك الذين أقسموا له بالوفاء فيما بعد، ولكن أنا الذي

كنت فرجيله. وبإمكانك أن تدينني إذا شئت.

كانت قد مضت سنة تقريباً منذ وصوله إلى مدريد، عندما رن بيفيلاكا جرس بيتي كما هي عادته أن يفعل ذلك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. كان الوقت متأخراً. وقد وعدت أن أسلم مقالاً في يوم غد (كنت أكتب حينئذ لصالح مجلة فرنسية تدفع أفضل من المجلات الإسبانية البائسة)، والذي انتهيت لتوي من تسطير فقرة أو فقرتين فيه، لم يكن لديّ الوقت لأقول أي شيء. دخل، ونظرته أكثر حزناً من ذي قبل. جلس في مقعدي المريح الوحيد وقص عليّ ما جرى.

يقول إنه عرفه، حتى عن بعد، في الضوء المائل في وسط ما بعد الظهر الشتوي لمدريد. اعتقدت أنه سيتكلم عن غراسييلا، ولكن المرأة التي وصفها كانت امرأة أخرى: جسد دقيق صاعد على ساقين طويلتين بشكل رائع، وقبعة تافهة مستهلكة إلى حدٍ مفرط. وكانوا في بوينس آيرس، كما قال بيفيلاكا، يلقّبونها بيكاس. وذلك كما في الردّية التي ربما تعرفها:

كانت توجد بيكاس صغيرة

جالسة على ليمونة خضراء.

بمنقارها تقطع الغصن،

بمنقارها تقطع الزهر.

لقد عرفها بيفيلاكا أثناء إقامته في السجن، وذلك عندما كانت تأتي دائماً -على رأسها قبعة غريبة الشكل- لزيارة رفيقها في الزنزانة، مارسيلينو أوليفارس، الملقب بـ «الوسخ». ولعلك تسألني من غير شك كيف يكون من الممكن، في هذه السجون

الرهيبة، وجود مميزين. الجواب بسيط: عادة محلية. ففي بلادي ثمة تعبير يقول: «primo inter pares»، ويترجم بـ: «يوجد مدلل دائماً». وكان الوسخ واحداً من هؤلاء. إنه كوبي، منفي في الأرجنتين في نهاية الخمسينيات، قبل الثورة. اختلاط عجيب من المثقفين ورجال الأعمال. ولقد تدبّر أمره فأقنع عدداً من العسكريين بأن يودعوا توفيراتهم عنده لكي يستثمرها في سويسرا. وما حدث، وهذا لا يشك فيه أحد، هو أنه لم يحدث شيء باستثناء ما يبدو أنه قد اختطف بعض الملبَّس من الصينية أثناء مروره.

ومن الجدير بالذكر أن العسكر لاحظوا ذلك، فأقسموا أن يثأروا، وذهبوا لاستدعائه في ليلة مظلمة، إلا أن الوسخ كان قد استدعي لتغيير مكان الإقامة. ولكي لا تذهب إلى القول أن الجيش لم يكن ليعترف بالخدمات الممنوحة، حتى في السجن، فإن الوسخ كان يتمتع ببعض الامتيازات: زيارة البيكاس، كتب، قطع الكاتو الصغيرة، السجائر...

كيف وُجد هذ الحيوان وبيفيلاكا في الزنزانة نفسها. هذا ما لن أعرفه أبداً. إن منهجية علم الأمراض المعمول بها في تلك الأزمنة، تفوتني كما تفوت فطنتك، يا عزيزي تيراديلوس. والسبب لأن بيفيلاكا لم يصل في تمدده حداً كهذا. وعلى كل حال، ما كان ليهتز حين يروي لي كل هذا. كانت تجري دموع من تحت هذا من دون شك، ولكن أؤكد لك بأن ناشره غير المبالي، يستدعي إلى مخيلتي صورة بحيرة هادئة، حيث نشتهي أن نرمي حجراً لكي نصنع عدم انتظام، وحركة من نوع ما.. لقد

سألته ما الغرابة في أن يلتقي في مدريد امرأة كان قد عرفها من قبل في بوينس آيرس من زمن طويل.

أجابني: «ليس غريباً، إنه مستحيل. فالبيكاس قد ماتت. إنها قتلت عدة أسابيع قبل أن يحررونى. وكنت حاضراً عندما أعلنوا الخبر للوسخ في الزنزانة. لقد عصبوا أعيننا. ولكنني أتذكر أن واحداً منهم اقترب منه وقال: «تعازيَّ الصادقة».

ولم يدهشني ما رواه لي بيفيلاكا هنا أكثر مما تبقى. كان لديّ مقال أكتبه وعليّ الانتهاء منه. قلت له بصوت حازم ظاهرياً إنه لا يستطيع أن يكون متأكداً مئة بالمئة من رؤيته، خصوصاً من هذا البعد وتحت مثل هذه الإضاءة.

أمسك بيفيلاكا بيدي وقال: «لقد تبعتني يا أخي».

استسلمت لسماعه.

خرج بيفيلاكا يتمشى بالقرب من ساحة الشرق، التي لم تظهر في ذلك الوقت في الهيئة المشذبة التي ترتديها اليوم. كان الطقس بارداً. وثمة ريح مخدرة تعصف بين الشجيرات وتضع عند جذوعها أوراقاً دهنية. احتك مارٌّ وحيد يرتدي معطفاً أسود (أؤكد لك أننا في ذلك الوقت ما زلنا نراه في مدريد) بجدران البنايات. وقد رآها بيفيلاكا تنبثق من جانب مجمع العرب. نظر إليها طويلاً، مذعوراً، ثم ابتدأ لعبة القط والفأرة.

حاول بيفيلاكا أن يحصرها بحشر نفسه في الأزقة حول كنيسة سان نيكولا. عبر الكال مايور، مر بالساحات الصغيرة المنتظمة التي تفضي إلى سوق سان ميغويل. تقاطع بسرعة مع بائعي طيور. ولأن الوقت، أو الساعة، أو لأن اليوم كان يوم عطلة، فإن

الدكاكين، والمقاهي، والمكاتب كانت مغلقة. لقد ساعد كل شيء لكي يجد نفسه وحيداً. وما كنا نسمع سوى الريح وأكعاب البيكاس وهي تقرع البلاط. أسرع بيفيلاكا في الانسحاب إلى شوارع لا يعرفها. وقد كان لديه انطباع بأنه وقع لمرات عديدة في الساحات نفسها، وأنه عاد القهقرى، وأنه يصعد شاطئاً هو متأكد بأنه نزله قبل دقائق. لقد عاش المشاهد نفسها بصوت منطفئ: أسود الحجارة، رمادي الضباب، عاجي ركيزة المصباح. وكان يبدو له أن هربه إنما يجري في الماضي بدل أن يجري في المكان، ويتراجع في الزمان. وفي كل مرة كان يلتفت فيها، كان يجد مجدداً هيئة السيدة الآنسة مقطوعة في عمق ضوء مائل، ومصرة. وصل أخيراً إلى ساحة لاس كورتيس، وعرف درج المدخل وصفّ الأعمدة، وتحقق من أنه قريب من بيتي.

أقول «بيتي»، لأني هكذا كنت أسمي هذا المكان عندما كنت أسكن فيه. ولكن اليوم كل شيء في البناية: البلاكين، والنوافذ، والمدخل الذي كان يقوم عليه حارس في ذلك الوقت، والرصيف الموسوم للأبد بدم بيفيلاكا، تعود ملكيته إلى هذا الأخير. ولو أني كنت متطيراً، لقلت إن القضية هي قضية استحواذ شيطاني، كأولئك الذين كانوا، في القرون الوسطى، يجعلون ذواتهم محور كلام كثير. والسبب في ذلك لأن المكان الذي كان منزلي أثناء زمن جد طويل، تسكنه من الآن فصاعداً ذكريات هذه الشخصية المشتاقة، والسوداوية، والمواظبة. وأعتقد أنني أثناء كل هذه الاعترافات الطويلة، استشعرت بهذه النهاية الحتمية، بمعنى أن بيفيلاكا سينتهي إلى سلبي كل ما يعود إليّ.

لقد نجحت مع ذلك في تهدئته. واقترحت عليه أن يعود مجدداً إلى أندريا وأن لا ينكد عليها بحكاياته الغريبة. وقلت له إن هذه الأشياء، وكنت أكثر تعباً من كوني مقتنعاً، هذه الأشياء تنصلح بنفسها مع استراحة طيبة. ولقد نصحته نصح كريم أن يذهب لكي يجد ثانية الذراعين المواسيتين للصغيرة.

قلت ذلك لأن بيفيلاكا كان قد استملك أندريا أيضاً. كان عمر أندريا، التي تمثل اليد اليمنى لكيتا، حوالى الخامسة والعشرين. وكانت أمها، أكبر قارئة للأدب الإسباني، قد اختارت اسم أندريا ذكرى لبطلة الرواية نادا. ويجب الاعتراف بأننا نجد عند أندريا بعض وجوه هذه الشخصية الشبقة والمتمردة. غير أن المذاقات الأدبية لأندريا (لأنها تمتلك منها) قد حملتها بالأحرى نحو العالم الجديد، إلى درجة أننا حين التقينا، أجهل ما الذي اجتذبها أهو جسدي أم جواز سفري.

كانت أندريا صغيرة الحجم. وكانت جعدة الشعر قصيرة، ولها عينان شرقيتان خلف نظارة زرقاء اللون. وكان الجنس عندي في تلك الفترة أكثر انتقائية مما هو عليه اليوم: يجب على الشاب أن يجرب كل شيء. وإني لأعترف لك بأني وقعت في غرامها مباشرة. وكان الأمر كما لو أني قد اخترت أن أترك نفسي تفتتن بسائح مجهول فوق درج متحرك، فهو وجه مأخوذ بالصدفة من بين وجوه كثيرة لأناس يتدفقون، هم يصعدون في حين أننا ننزل.

يا صديقي تيراديلوس: لقد قلت لك إني عرفت بيفيلاكا بعد زمن غير يسير من إقامتي في مدريد. وقد مضت على هذا بضعة أشهر كنت خلالها وأندريا نقيم علاقة. وكنت أكبر منها سنّاً

بقليل، في حين أن بيفيلاكا كان يكبرني بعشر سنوات. وكان أنيقاً، ومندفعاً. أما أنا فقد كنت دائماً ليناً وأتألم من إهمال زماني. ولقد انتصر التميز والعمر. لعل أندريا قد وجدت أن بيفيلاكا يمتلك هيبة أكبر ورفعة أعظم. وإنه لحقيق أنه بالإضافة إلى عيني الخروف المذبوح، والملائمتين تماماً، فإن بعض خصلات الشعر البيضاء تعطيه هيئة أرستوقراطية، وتحوّله إلى شخصية تجعل الفتيات اللواتي من عمر أندريا، والمهتمات بالأدب اللاتيني الأمريكي يشبّهنه بـ «بيوي كازر» أو بـ «كارلوس فوينتس» بالاستعمال المحلي. وفوق مكتبه، لم يكن يوجد سوى نباتات استوائية وحيوانات تزينها قطيفة بذوق سيّئ واضح. وقد اكتشفت صوة ذات إطار لبيفيلاكا وهو في العشرين من العمر. كان يعتمر قبعة فرنسية، متقاطع الذراعين، مبرزاً هيئة رسول ينتظر ما لا نعلم ماذا. وإزاء منافس مثل هذا، انسحبت بكرامة. وأعتقد بأن بيفيلاكا لم يعرف أبداً الكرم الذي به تخليت له عن مكاني.

أدخلت أندريا، في البداية، بيفيلاكا في الأطر الصغيرة للفنانين الذين بدأوا ينفتحون في مدريد في أقبية مظلمة ومدخنة مقلدين بذلك على نحو من الأنحاء حياة البوهيمي سان جرمان دي بري قبل عشرين سنة. ثم راحت بعد ذلك تقترح على بيفيلاكا طريقة ما للباس تميّزه، كما تقول، من الكتلة الشعبية الكئيبة. وبما أن بيفيلاكا كان يمقت محلات الثياب، فقد انتهت إلى أنها اشترت له معاطف من نسيج صوفي خشن وربطات عنق من الحرير ألوانها استوائية. وقررت أخيراً أنه يجب على بيفيلاكا أن يقيم معها. حملت بما يشبه القوة أغراضه المعدودة إلى بيتها في شويكا

واقترحت عليه أيضاً أن تدفع للهولندي التائه، الأشهر التي تجري إلى نهاية إيجاره. وقد قامت أندريا بشطر الخزانة إلى شطرين، وتخلت لبيفيلاكا عن الشطر الأكبر (وإن كانت تملك ثياباً أكثر منه بعشر مرات)، ووضعت له في إحدى الزوايا طاولة صغيرة لكي يستطيع أن يضم براحة حبات فوله المرسومة. ووضعت، بشكل خفي، بالقرب من علبة المعدات، ضوءاً للقراءة، وحزمة من الورق، وحاسوباً محمولاً.

وقد فعلت أندريا ذلك لأنها منذ اليوم الأول الذي قدم لها فيه بيفيلاكا، تعهدت أن تمتطي المؤلف (وإن كان لا يكتب إلا الروايات المصورة). وها هنا تكمن مهمتها: أن تنقذ من التهاون حبيبها العبقري. فأندريا تعتقد بشدة بهذا العمل الرائع والمكتسح الذي يخبئه بيفيلاكا من غير أي شك في أعماق روحه، وهو مذعور من جعله ينبثق في وضح النهار. وستكون أندريا هي قابلته، وحارسته، ووصيته.

تؤكد لي فيلارماتاس أنه، في حالة الكتّاب الذين لا يكتبون، ينبثق غالباً فرد يرفض أن يقبل هذا الصمت الخلاق، ويجتهد كي يثير تفتيح هذا الذي لم يعبّر عنه بعد. وبدلاً من النظر إلى أن هذا الكاتب يوجد بفضل ما لا ينتجه، فإنه يعتقد أن يميز في غياب المكتوب وعداً بعمل سيأتي. والعلاقة بين أندريا وبيفيلاكا تؤكد أطروحة الأستاذ.

ومع ذلك، فقد انقضت الشهور وبيفيلاكا لم يكتب شيئاً. كان يمضي أمسياته في ضم فولاته، ويتجه في الصباح باتجاه شارع غويا، حيث يبسط بسطته الصغيرة. وكان في بعض الأماسي

يصطحب أندريا إلى قراءة شعرية أو إلى تدشين معرض لوحات فنية، حيث كان يمل باستسلام. ومع خسارة أندريا العظمى، ظلت حزمة الورق كما هي، كما ظل الحاسوب مغلقاً.

ذات يوم، بينما ذهب بيفيلاكا لبيع تفاهاته، قررت أندريا أن تقوم بتنظيف المنزل وترتيبه. وحال إخراجها الحقائب والكرتون المكدس في الخزانة، لاحظت وجود الحقيبة التي وصل بها بيفيلاكا من بوينس آيرس والتي يظهر منها كمُّ أحد القمصان. وهي إذ فكرت أن بيفيلاكا قد نسي فيها بعض الثياب المحتاجة للغسيل، فإنها أفرغتها واكتشفت في عمقها صرة مستطيلة الشكل مغطاة بالبلاستيك. فتحتها. كانت مجموعة من الأوراق المكتوبة بخط اليد، وكانت الورقة الأولى منها تحمل العنوان «مديح الكذب». لا هذه الصفحة ولا الأخيرة، لم تكونا موقّعتين.

ويمكن أن تتصور أن أندريا قد جلست وابتلعت المخطوطة من غير توقف. وعندما انتهت من القراءة، قرعت أجراس كنيسة القديسة بابارا الساعة السادسة مساءً. أسرعت أندريا بإعادة وضع كل شيء في الخزانة، واتجهت إلى مارتان فييرو متأبطة الرواية. وعندما وصلت إلى المكان، وضعت المخطوطة في درج من أدراج مكتبها، ثم أغلقت عليه بالمفتاح. (وإني لأتذكر جيداً هذا المكتب، وهذا الدرج، وهذا المفتاح).

نفّذت أندريا رويداً رويداً تفاصيل خطتها، ولكن الفكرة الرئيسة جاءتها فجأة عندما قرأت الفقرات الأولى. لقد كان بيفيلاكا كاتباً، كما ظنت ذلك على الدوام. ليس مؤلف روايات مصورة، ولا هذا النوع من الحماقات، لا. إنه كاتب حقيقي،

وهو خلف هذه الرائعة. لأن «مديح الكذب» كانت رواية بالغة العظمة (أنت الذي قرأتها، وأنت الذي يجب أن يعرف هذا).

أعرف أنك تفكر في هذه الانتقادات السلبية، الأوراق المتشككة والمتذمرة التي كتبها قبضة من الصحافيين المتقززين، وخاصة بيير جيمفيرير في برشلونة ونيوجيريك في منفاه المكسيكي. لقد قرأتها، ويمكنني أن أؤكد لك، إنها لا تؤثر أي تأثير على رأيي الأول، كما أنها لا تؤثر على رأي أندريا. وهذا ليس قولاً قليلاً. وإذا كان حقيقياً أن أندريا تستطيع أن تفاخر بشيء، فإنها تفاخر بكونها عارفة بالأدب، وبالأدب الجيد. إنها تحب، بالطبع، الأعمال الصغيرة، والروايات المكتوبة جيداً، والرائعة، والتي تختصر المشوار أو تسلي قارئها ليلة من الليالي. ولكن عملاً من أعمال العبقرية هو شيء آخر، وهذا ما تعرفه أندريا. وما دام هذا هكذا، فإن هذا العمل الذي جاءت على قراءته، ينتمي إلى هذه الشعلة الضيقة والمطلقة، وإلى هذه الغريبة التي تحتفظ بها أندريا للكتب والتي من غيرها، كما قال أحدهم في يوم من الأيام، «سيكون العالم أكثر فقراً». لا يمكن لـ «مديح الكذب» أن تبقى خبئاً زمناً طويلاً. وليس لنا الحق أن نحرم العالم من جمال مثيل. ستكون أندريا (هذه المرأة النتفة هي قوة من قوى الطبيعة، كما تقول يا تيراديلوس) هي الناطقة باسمه، وقائده النشيط. وهي ستنشره بالطبل والزمر. وستوزعه بنفسها إذا استدعى الأمر، وذلك لكي يقرأه بعض المتنوّرين الذين بدأوا ينبثقون في سماء إسبانيا المظلمة في تلك الأزمنة. وليس في إسبانيا فقط. إن بيفيلاكا، سيصبح مقروءاً في الأمصار الأكثر بعداً

في الأرض. ولقد أحست أندريا بأن ثمة حمى إنجيلية تستحوذ عليها. ولو أنها شاورتني في تلك اللحظة، لنصحتها بالحذر، والتفكير. ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك. بل إنها، على العكس من ذلك، توجهت إلى كاميلو أوركييتا.

لقد نسيت أنك لم تعرف هؤلاء الناس. ففي شبابك الفتي (اعذرني يا تيراديلوس، ولكن في شبابي أنا، فإن كل أولئك الذين كانوا يحملون فوق أكتافهم أقل من نصف قرن كانوا أطفالاً)، أنت ما كنت تعرف من كان هؤلاء الناس المشهورين جداً في عصرهم. فقد كان أوركييتا (وأنا استعمل الماضي هنا لأنه مات منذ بضع سنوات، هذا العجوز المسكين) النموذج الأعلى للناشر المتعايش. فبعض الناس يجسدون مهنهم: إنهم نجارون، وعازفو غيتار، ومصرفيون، وشعراء مئة بالمئة، في جوهرهم بالذات. وإنهم لا يكفّون أبداً عن أن يكونوا كذلك: لقد كانوا هكذا وهم في بطون أمهاتهم، وإنهم سيكونون كذلك بعد نفسهم الأخير، أي عندما يكونون غباراً مستعاداً، وعناصر بناء في مناخنا، على نحو ما. وكنا يا صديقي العزيز، يوماً بعد يوم، نستنشق الرماد العسكري المطبب للأرجل، وللمشائين، ولم لا، فقد كنا نستنشق رماد النشر لكاميلو أوركييتا.

لقد رويت لك. لقد ولد أوركييتا في قرطاجنة، وهذا لا يكشف عن شيء إلا عندما يوجد في مواجهة كاتب موريسي. ولقد ذهب سريعاً لكي يقيم في مدريد. في البداية، تحت حكم فرانكو، ثم بعد ذلك في عقود التغيير البطيء. وأخيراً، عندما شرعت ريش «التحرك»، عرف أوركييتا أن يجعل لنفسه مكاناً

صغيراً في عالم الآداب. وهو بوصفه ناشراً سباقاً لهيغو واست وتيلهارد دي شاردان، ثم لموجز القديس توما، وللوجيز في معرفة العيش مثل «الطفل المهذب» و«التربية الجيدة»، بالإضافة إلى مدخل حذر إلى «التيوصفية» التي قام بترجمتها زنوبيا كاميروبي، فإنه تحوّل فجأة إلى نشر عدد من المؤلفين اللاتينو - أمريكان. واكتسب، أخيراً، وجاهة بفضل سلسلة أدبية ذات طابع جنسي خفيف يثبت أن لاشيء، في إسبانيا هذه، هو كما كان سابقاً. ولقد عرف أوركييتا بحدسه ماذا ينشر، ومتى، وكيف، وعرف خصوصاً في أي لحظة يبيع الكل لكي يبدأ شيئاً آخر. ويوجد على الأقل نصف دزينة من دور النشر لا تزال قوية، كان أوركييتا هو وراء إنتاجها. وفي العصر الذي أتحدث لك عنه، كان أوركييتا يدير داراً للنشر تحمل اسماً كبويتياً هو «أزوفر». وقد تجرأ فوضع في كتاب فهارسه هؤلاء الشعراء الذين كانوا ينشرون حتى اللحظة الراهنة في الأرجنتين والمكسيك، والذين كانت دواوينهم لا تباع إلا في خلفية المكتبات الإسبانية. فاسأل آنا ماريا مواكس، فهي تعرف أكثر مني عن هذا الموضوع.

لقد كانت أندريا تعرف أوركييتا لأنه كان، في الإطار الضيق لذلك العصر، ومن المستحيل تجنبه. وهو ، بكل تأكيد، كان يحس بزهو أن تسأله النصيحة فتاة جميلة وذكية مثل أندريا، وأنه كان يسخو بإعطائها في مقهى معتم يجاور خمارة أنجل سييرا التي كان أوركييتا يرتادها، كما يقول بعضهم، لأن واحداً من شعرائها (أعتقد أنه كورنيليو بيرينسي) وصفه في قصيدة غنائية نوردية بأنه يشبه «صدفة تعلقت بمقدمة بارجة حربية». وكان آخرون يزعمون

بأن مكاتب أوركييتا للنشر تخشى زيارة مزعجة يقوم بها حاجب من الحجاب.

ثمة طاولة صغيرة في عمق هذا المقهى محجوزة مدى الحياة لأوركييتا. ولكي يصل المرء إليه (لقد حصل لي أيضاً أن شرعت الرحلة!)، يجب عليه أن ينزل سلسلة من الدرجات غير المرئية وأن يتقدم متلمساً طريقه على طول ممر تتكدس فيه الطاولات والكراسي. وكان ثمة شمعة تعيسة (يقول المالك ذو الأصل السلامتكي «إنها تخلق الجو») تضيء برداءة وجه ناشرنا، الناعم والدهني الذي يشبه ورقة نشر فاخرة. ولا أدري إذا كنت قد قلت لك هذا، فأوركييتا كان أمرد ويضع بيروكة لا تقنع في واقعيتها. ولكن لا أحد يستطيع أن يخفي غياب حاجبيه وأهدابه. ولدينا في الظل انطباع مزعج بأننا إزاء مخلوق لم يخلق خلقاً إنسانياً تماماً.

أنا لا أعرف، كما هو بدهي، ماذا كان يقول بعضهم لبعض، ولكني أتخيل (وتخيل معي) مسائل أندريا المستعجلة والعاشقة، «كل شيء مشتعل، كل شيء ملتهب»، كما تقولون في فرنسا، والإجابات الرسمية «للسيد أعرف كل شيء»، آلياتس أوكييتا، الذي يمثل دور الأب غريو وكازانوفا معاً. لقد كلمته أندريا حتماً عما وجدته، وعن الإسراع بنشر ما يعد، برأيها، معجزة، وعن ضرورة إخفاء قدر كتابها عن المؤلف. كان أوركييتا غبياً ولكنه حذر. ولذا، فقد طلب أن تمهله وقتاً لكي يفحصه، ومن ثم يعطي رأيه.

إنك تعرف بقية القصة. لقد قرر أوركييتا أن ينشر «مديح الكذب». وتعرف الشائعات السرية التي أخذت تدور بخصوص

أروج الكتب مستقبلاً، وتعرف عدم صبر بعض الناس في أن يكونوا من أول القارئين له، واختفاء الاختبارات، وما يثار حول اسم الكاتب المخبوء من ظنون، والمقاولات المعجونة بالذم، والتوقعات المغلوطة دائماً. وعلى الرغم من أننا كنا في شهر كانون الأول، وأن الناس كانوا أسارى مشتريات نويل، فإن موضوعاً واحداً كان يشغل كل مدريد كما يبدو.

وأخيراً، جاء المساء الذي طال انتظاره. فنحو الساعة السابعة، وفي الحيز الضيق والعالي بحرارته في مكتبة أنطونيو ماشادو، بدأ يتدفق بعض المدعويين المميزين، وبكل تأكيد هم يتدفقون بعدد أكبر مما هو معتاد مجيئه عموماً في مثل هذا النوع من الإطلاق، شبه غير الموجود في ذلك الوقت. تلقيت الدعوة شخصياً في المساء الذي قبل. وقد فكرت في البداية أن أتغيب فلا أذهب، لأنه كان يجب عليّ أن آخذ قطار الليل كي أعود، لبعض الأيام، إلى بواتييه بغية حضور حلقة نقاشية لا تثير حماستي. ولكن ماذا ستكون الحياة من غير هذا الدفق الذي لا يتوقف من الإكراهات المرهقة، والالتزامات الغبية، والمواهب المخفقة، كما كنت أقول لنفسي.

سأصف لك المشهد يا تيراديلوس. لقد كان ضيف الشرف غير معثور عليه. وكانت أندريا واقفة أمام الباب ترقبه قلقة. وثمة اثنان أو ثلاثة صحافيين غير صبورين. وكان بيرانس يمزح بخصوص تواضع النجوم. أما كيتا، فقد كانت مظروفة بمعطفها الفرو، ومتوفزة كما لو أنها أسد في قفص، وسائلة تيتو غوروستيزا إذا كان لا يعرف فعلاً ما حصل لأليجاندور. وكان

غوروستيزا غاضباً. وأخيراً، أعلن أوركييتا أنهم لا يستطيعون الانتظار أكثر.

ثمة ممثلة كوميدية بدأت تشق طريقها في سينما شبه الجزر، افتتحت الأمسية بقراءة بعض الصفحات من الرواية. وراح الجمهور المبتدئ يصغي بتلذذ أكثر فأكثر، وانتهى بتصفيق قطع كل شيء. وبعد ذلك، أخذ أوركييتا الكلمة. وكما يجب أن نتوقع منه، أشار إلى الأصوات الجديدة في العالم الجديد، وإلى الدين اللساني الذي سددته الريو دو لابلاتا تجاه مهد سيرفانتيس، وإلى الاستلهام الناهل من السهول المعشوشبة الأسطورية لأمريكا الجنوبية، بين الدروارو وأرض النار. ثم اختتم مستشهداً بعدد من أسماء قائمة الآزيفر التي، كما قال، تعد جزءاً من تاريخ الأدب. ومن جديد، تصاعد هتاف حماسي. وفي هذه اللحظات، ظهر بيفيلاكا.

صعد إلى خشبة المسرح، مشدوداً إلى ذراع أندريا أكثر مما هو مقوداً. صافحه أوركييتا، ثم انعطف ثلاثة أرباع انعطافة لكي يستطيع المصور أن يلتقط لهما صورة معاً، وبعد نوع من الانحناء احتراماً، ابتعد لكي يترك له الكلام. نظر بيفيلاكا إلى مكبر الصوت كما لو أنه حيوان غريب، وطرف بجفنيه، رفع عينيه نحو عمق الصالة، بحث عن أندريا بنظرة، وجدها في ظهره، نظر أيضاً أمامه، أشعل لفافة بمشقة.

لا يوجد شيء أكثر طولاً من الصمت أمام الجمهور. لقد صمت بيفيلاكا، احتمالاً، على الأقل خمس دقائق غير متناهية. بقينا هنا، ننتظر، مفاجئين، ومنزعجين من أجله أكثر من انزعاجنا

لأنفسنا. وفجأة، كما لو أن شيئاً صفعه على وجهه، أخفض عينيه وهرب راكضاً من باب المدخل. وقلت إنه هرب لأنه هذا هو الشعور الذي ألمّ بنا جميعاً. لقد هرب وكأنه حيوان مطارد.

اختتم أوركيتا الأمسية ببعض الكلمات على نحو من الأنحاء. وحتى هو، بكل ما في الأمر من بداهة، والذي يعد أستاذاً رصيناً من أساتذة الاحتفالات الرسمية، كان كمن وقع عن ظهر سرجه. فسلوك بيفيلاكا كان بالغ الشذوذ، وخارجاً عن المألوف إلى درجة أن كل الناس (بمن فيهم أنا) فوجئوا، وخابوا، كما أنه لم يكن هو في الحقيقة من هرب. واقتربت من أندريا لأسألها عما إذا كانت تعلم ما جرى. كانت المسكينة على وشك أن تذرف الدموع، وحاولت من غير أن تجيبني أن تخبئ وجهها. تيتو غوروستيزا، لبق دائماً، قال لها بعض الكلمات المريحة بينما كان يحشو في محفظته زجاجتين من خمر الجيريز اللتين كان أوركيتا قد فتحهما من أجل رفع النخب الأخير (لأن رجل الأعمال الكفء يعلم اللحظات التي يفرض الكرم فيها نفسه). وأما بيرينس، الذي يحشر نفسه في كل شيء، فقد التحق بنا، وصدح بخطبة مع هيئته التي تشبه العظاية:

«أفترض أن ما رأيناه الآن هو طرائق الطليعة، أليس كذلك؟ إنها الفظاظة بوصفها أسلوباً أدبياً. ولقد كنت أعتقد أن إسبانيا في حمى من ولدنات البحر الأبيض المتوسط! وإني لأعلم ما الذي سيجري: سأتلو هذه الإهانة بوصفها بياناً ثورياً، هل ترون... فنحن قد جئنا من بلد حيث لا يندهش أحد إذا رأى الفنانين يختلطون بالسياسة، وهي النشاط الإنساني الأكثر حقارة، كما

يقول هذا أحد مواطنيّ. ولكن ما هي المنفعة من التغوط في العش الجديد؟ هل يمكنكم أن تقولوا لي؟

سأله أودونييز الذي دخل لتوه إلى الوكالة EFE :

- أنت نفسك، ألم تشتغل بالسياسة. أليس بسبب هذا تمّ توقيفك؟

- «يمكن أن توجد في العشب دائماً نفلية كثيفة ومتوحشة، والتي تبدو متطابقة مع الأعشاب الأخرى، ولكنها تختلف بشجاعتها». و«إني لأمنحك هذا الاستشهاد مجاناً. إنه مني». وهكذا أجابه بيروينس.

أنا لست غير حساس بألم الآخر. فلقد لاحظت أن أندريا كانت قلقة دائماً. وكان من البدهي أنها تريد أن تذهب. ومن غير وداع أي شخص، أخذتها من يدها وقدتها إلى الشارع. إنها لم تُبدِ فعلاً أي مقاومة. ولقد وجدنا مقهى على بعد بضعة شوارع. وعندما هدأت، سألتها عما جرى. فأجابتني، المسكينة، بأنها لا تعرف شيئاً، وأن الخوف تملّك بيفيلاكا فجأة، وأنها تظن أن هذا كان بسبب خطئها لأنها لم تخطره بالأمر وأنها فكرت أن النشر سيجعل منه سعيداً، وأنها لم تفعل ذلك إلا من أجله، ولكي تصبح عبقريته معروفة.

قلت لها إن الأمر سيكون كذلك. وكنت معتقداً بشكل مطلق أن «مديح الكذب» كتاب مهم.

«إذا كنت تقول هذا»، أجابتني بصوت حوّلها في عينيّ فجأة، وبالحنان الذي كنته، إلى فتاة صغيرة. أليس مثيراً للشفقة إيمان

العاشقين الذي لا يهتز؟ لا يزال صوت أندريا، بعد مضي عدة سنوات، يجعل شعر جلدي يقف.

أجبتها بأني أوقن فعلاً بهذا، وهذا هو رأيي الشخصي. وطمأنتها قائلاً: «هذا مما لا ريب فيه. والنقد سيدعمك. وإنك لتعلمين كم هم قساة، عموماً، ولكن في هذه الحال الخاصة، فإنهم سيهدأون، إني أكيد من ذلك».

دفعت، ثم خرجنا. ومجدداً، اعترض ضباب بارد حركة السير واصطحبتها متعثراً إلى بيتها. ثم عدت إلى بيتي، حالماً.

كان بيفيلاكا ينتظرني أمام المدخل. وكان رأس لفافته يشبه منارة في الضباب. وكانت عين الحارس ترقبه، كان متوفزاً. وتقمصت في هذا المساء دور مسكّن الأمزجة. وأنت تعرفني يا تيراديلوس، كما تعرف كيف أكون. وهكذا كنت من قبل في شبابي. ولقد حاولت أن أهدئ كل واحد منهما.

ما إن دخلنا إلى بيتي، حتى بدأ بيفيلاكا يروي لي كل شيء. فقد أغضبه اكتشاف أندريا في العمق. ولقد أغرقه رؤية الكتاب مطبوعاً فجأة، في كابوس لم يعد له فيه سيطرة على أفعاله المشينة. وذكّرته بتحذير فرويد الذي يرى بأن لا شيء يقع عرضاً: إن ما يصيبنا هو مسجل فينا مسبقاً. ولكن بيفيلاكا لم يكن زعلاً ولا منزعجاً. كان يحس فقط بأنه ضائع، ومن غير صوت، وغير قادر على التعبير (كان يتكلم من غير انقطاع، بالطبع). فعلى خشبة المسرح، وأمام هذا الجمهور غير الصبور، كان يحاصره أوركييتا يميناً، وهو يثير فيه الذعر، وكانت أندريا تحاصره يساراً، وهي تحبه ولكنها تثير الذعر أيضاً. ولم يعرف المسكين ماذا

يفعل، ولا ماذا يقول. ولقد لاحظهما حينئذ. هي وهو معاً. هنا، في القاعة. في وسط الآخرين. كانا يبتسمان. هو واقف، ونظارته المشؤومة على أنفه. أما هي، فقد كانت تغطي رأسها بقبعتها الصغيرة.

سألت بلا فائدة: «من هذا؟»

أجابني:

- الغوريه والبيكاس. الغوريه أولفارس والبيكاس.

قلت له لكي أهدئه:

- وهذه أيضاً استيهاماتك الحيوانية يا بيفيلاكا؟ أعتقد أن البيكاس قد ماتت، وأن الغوريه، كما تسمّيه، كان في السجن لأنه نصب على العسكريين. فهل تعتقد مع ذلك بأنهم سيدعونه يخرج.

- لا أعرف كيف أفسر هذا، ولكنهما كانا هنا.

قلت، وقد كنت مستعجلاً لأن عليَّ أن آخذ القطار بعد عدة ساعات:

- حسناً، انظر معي: لنفترض أنهما هما. ولنفترض أن القبر لم يستطع أن يحتفظ بها، وأن قضبان السجن لم تكن كافية لكي تحتفظ به سجيناً. أنت ماذا يهمك هذا، وما تأثيره عليك؟ هذا لا يعني أنهما يتهمان أليجاندرو بيفيلاكا بما أصابهما من بؤس».

نظر إليَّ بيفيلاكا بهيئة مرعبة وهو يلوي أصابعه الطويلة الصفراء كما لو أنه يغسلهما.

رجاني قائلاً: «أخي. أنت ستسافر إلى فرنسا، وستمكث بضعة أيام. هل تسمح لي أن أقيم في بيتك أثناء عطلة نهاية الأسبوع؟ وأعدك أن لا ألمس شيئاً. انظر، إنني لا أجرؤ أن أواجه الصحفيين، أندريا، وأوركييتا، و. .

ولم ينهِ جملته.

أنا ليِّن، وقد لاحظت أنت ذلك، ولا أستطيع شيئاً حيال هذا. فعندما يسألني أحد من محيطي شيئاً، فإني لا أقدر أن أرفض. ثم، بصدق، فإني لا أحب فكرة ترك بيتي وحيداً أكثر من عدة ساعات. فأنا أعرف عدداً من الأشخاص قد سرقوا في الحي. وذلك دائماً عندما كانوا يقومون بالسياحية. لقد نقل الحارس الخبر، ولكن في النهاية، من المحال إثبات ذلك. لقد كان بيفيلاكا، ويجب الاعتراف بهذا، رجلاً فائق العناية. وقبلت. أؤكد لك أن الدمع كان يملأ عينيه عندما ضمّني بين ذراعيه، وكاد يطبع قبلة على فمي. أخذت حقيبتي، أعطيته نسخة من المفاتيح، ثم رافقني حتى الباب.

انتهت حلقتي الدراسية الربانية (قليل من الناس: من شهر كانون الأول إلى شهر آذار، لا يهتم أحد في فرنسا بشيء)، أخذت القطار باتجاه مدريد. كانت آخيلا تتراءى من خلف الزجاج، العينان منتفختان، وكانت قهوتي بالحليب تفيض بمرح في الصحن الصغير، فتحت الجريدة التي حملها إليّ النادل وقرأت النبأ الرهيب: لقد مات بيفيلاكا. كان ذلك يوم الثلاثاء. وتقول الجريدة لقد وجده أحد المارة يوم الأحد ليلاً في بركة من الدم المتجمد. ونرى فوق الصورة وهو يشير بإصبع الاتهام إلى

شرفتي. المقال لا يدخل في التفاصيل. ولكنه يقف مطولاً على سخرية القدر التي أعطت الشهرة لهذا الكاتب اللامع بوقت قليل قبل نهايته. ولقد استشهدت بأوركيتا الذي قال لقد أضاع الأدب الجديد واحداً من أصواته الأكثر سمواً. وعلى الصفحة نفسها، ثمة إعلان يذكّر الجمهور بمزايا «مديح الكذب». وقرأت المقال مرات عديدة. إنه لأمر صعب أن يصدق المرء موت قريب له.

وعند العودة إلى بيتي، أخبرني الحارس بلذة لا يخفيها أن الشرطة تطلب شهادتي. وقليل من الناس يحبون الشرطة. السويسريون، والإنكليز. وأنا، لا. صعدت إلى منزلي. فأعمال العنف تنزع منا ما هو لنا، وفي الحال الراهنة، ثمة آثار لبيفيلاكا في كل غرفة، وفوق كل قطعة أثاث. ونجد على طاولة غرفة الطعام، بقايا عشاء بسيط. كما نجد على المقعد (وأنا المنظم جداً) صدرية صوف، وعدة قمصان ومناشف حمام. وأما السرير، فكان مقلوباً. وإني لأحلف لك بأن لديَّ انطباعاً بأني لن أستطيع أبداً أن أنام في هذا الفراش ثانية، ولا أن أضع رأسي على هذه المخدة، كما لو أن المسكين بيفيلاكا كان قد مات في المكان، وداخل شراشفي. وبعد لحظة، خرجت إلى الشرفة التي بدا لي الدرابزين فيها الآن منخفضاً على نحو جد خطر ولقد أصابتني الدوخة للمرة الأولى في حياتي.

لقد عشت الذعر: الضيق، وعدم اليقين، والسأم. فتحت حقيبتي، ووضعت أشياء بيفيلاكا في محفظته (وهو الذي يشبه كلباً وفياً، ينتظر في زاوية من الزوايا عودة سيده)، وأمضيت اليوم في تنظيف الشقة مستخدماً الأجاكس. ونمت قليلاً، هذه الليلة.

كانت الساعة الثامنة صباحاً عندما قرع الجرس. ولأنني لم أعثر على نظارتي فوق الطاولة الصغيرة، فقد اتجهت صوب الباب تحسساً. رأيت شكلين غامضين بصعوبة. عرفت في أحدهما رأس الحارس الصغير الأصلع. وقدّم الثاني نفسه بوصفه المفتش مانديتا، من قسم لشرطة التحقيق. رجوته الدخول، واعتذرت منه لكوني ما أزال في ثياب النوم، ثم أغلقت الباب في أنف الحارس.

أنت يا تيراديلوس، أنت يا من له نظر جيد، إنك لا تعرف كم هو مزعج أن يتكلم المرء إلى شخص غير محدد السمات. ويضاف إلى هذه المضايقة، الشخصية المتناقضة للمفتش مانديتا. وحتى من غير نظارات، فقد رأيت أني أتعامل مع رجل مهذب ومهدد في الوقت نفسه. متزيّ بكرش وبشارب، وهو يشبه نوعاً من بابا نويل مكسيكي. ولقد يظن المرء أننا كنا في بيته وليس في بيتي، ولذا فقد دعاني للجلوس.

ويجب أن أقول إني كنت خائباً تقريباً من نقص في شدته إزائي. لقد طرح عليَّ بعض الأسئلة البسيطة (ماذا يفعل بيفيلاكا في بيتي، وفي أي حالة روحية كان عندما غادرته، وهل حدث شيء غير اعتيادي في حياته لبعض أيام خلت قبل موته) وسألني إذا كنت سأبقى في مدريد في الأسابيع القادمة. وقام بجولة في الشقة، ولبث بضع دقائق في الشرفة من غير أن يقول كلمة، ثم عاد وجلس.

قال ملاحظاً بغتة: «إن الدرابزين عندك، منخفض قليلاً، أليس كذلك؟

شرحت له قائلاً:

- ليس عندي فقط، وإنما كل تلك الموجودة في البناية. هذا هو أسلوب الفن الجديد».

كان يزعجني جداً أن أرى بشكل ضبابي، وإني إذ كنت أعي انزعاجي، فإن هذا كان يشوشني أكثر أيضاً. وبدأت أنتقد الفن المدريدي الجديد، مقارناً إياه بفن برشلونة. وكما لو أنه ما كان يسمعني، نهض المفتش مانديبتا لكي يعود إلى الشرفة. سكت. وعندما غادر، أحسست بأني متهم من غير أن أعرف إزاء ماذا.

لقد قلت لك يا عزيزي تيراديلوس، إن موت شخص قريب يبدو دائماً لا يصدق. بكل تأكيد، ولكنه أيضاً واقعي، وملموس. والأموات الذين يموتون هناك بغتة، في العالم الواسع، ومئات آلاف الموتى الذين يفرقوننا في كل يوم هم موتى غير حقيقيين في مجهولهم الكبير. وإن موت صديق ليقتلع شيئاً منا، شيئاً ننتمي إليه. وأعتقد أني صغته بوضوح: لم أحب بيفيلاكا قط. ومع ذلك، فأن يموت هنا، في بيتي، وتحت أنفي بينما كنت غائباً مؤقتاً، فإن هذا يجعلني أتألم كقلع الضرس، وقطع الإصبع. وينقص اعتيادي الصغير هذا العنصر الغبي قليلاً، والممل قليلاً، والمزعج، بالتأكيد، ولكن المتكرر: الظل المتطاول الأعضاء والرمادي لأليجاندرو بيفيلاكا المتأوّه.

كانت الأسابيع التي تبعت ذلك صعبة. كتبت بعض الأوراق للصحافة. تابعت قراءة مؤلفات جافة لكي أغذي كتابي، كما دأبت على معاشرة قاعة القراءة المهدئة في المكتبة الوطنية، ولكن على طريقة رجل أكتع، وأعور، ينتظر بلا وعي أن يُفتح الباب وأن

يسرد الصوت المألوف لبيفيلاكا قصة بعض المشاهد الكريهة من حياته.

دفن بيفيلاكا في مقبرة ألمودينا، مكان غير ملائم إذا كانت الأمكنة توصف كذلك، والتي لا تتناسب نصبها التذكارية البالية مع الشخصية. فهل تعرف هذا المكان؟ ثمة ملائكة حجرية، وجرار مهشمة، وانحطاط مزور، وخراب لكي يكون رمزاً للخراب والضعف الحقيقي جداً للجسد: كان بيفيلاكا يجد هذا عادياً.

«ذات يوم، مشيت فوق الحجر البركان، والذي منه كان يجب أن تكون شاهدة قبره. ولكن لم يكن محفوراً عليها سوى اسمه وتواريخه.

وبالطبع، فإن أوركييتا هو الذي قرر أن يكون مثواه الأخير في مقبرة ألمودينا. وتحت أشجار السرو، لا نستطيع أن نتفق على أكثر من هذا، أعاد الناشر خطبته التي خطبها يوم حفل توقيع الكتاب، مع تعديلات بسيطة. الجسد يبقى والكتابة تصعد إلى الأوج. وإذا كنتم تبحثون عن مثل لعبور فوق الأرض كهذا، فإن دفن بيفيلاكا يعدّ الرمز الذي لا يقارن.

وعندما أفكر في الأمر جيداً، فإني أستطيع أن أقول إن مراسم الدفن في ألمودينا كانت محاكاة بذيئة لتلك التي جرت قبل بضعة أيام في مكتبة أنطونيو ماشادو، وبداية محزنة ومقلقة تشبه ظلاً. الشخصيات نفسها، والكلمات نفسها. وأما الذي كان مفاجأة سارة حينئذ أمام نجاح كاتب غير معروف إلى الآن، أصبح (كما يبدو لي) فظاظة محزنة في مواجهة خروجه السابق لأوانه. ولديَّ انطباع بأني أراهم في الصورة، بيرينس والآخرين المدهنين لشقة

الازدهار، وأصحابه الأوفياء، وقوفاً بالقرب من شاهدة محطمة، كيتا والصحافي أورودنييز كانا فوق عتبة ضريح مغم، وأما أندريا فقد كانت كثيبة، مثل واحدة من هذه الملائكة الحجرية التي تتعلق بمسلات النصب التذكارية. وكان ثمة فضوليون، وهؤلاء لا ينقصون أبداً. إنهم غفل تدفعهم نزعة الشر، والعطالة عن العمل وشهوة ألم الآخرين. وكان من بين المجهولين زوج من الناس مألوفين عندي على نحو غامض: أما هو، فصغير، سيّئ حلاقة الذقن، يحمل نظارة سوداء تتجاوز طرف قبعته اللبادية. وأما هي، فقد كانت كبيرة، ولها أنف طويل، تكللها قلنسوة خضراء تنبثق منها ريشة طير التدرج المخطط. سألته كيتا، التي كانت تتحدث مع أوردونييز، إذا كانت تعرفهما.

وحينئذ فقط، لاحظت أن كيتا قد تغيّر لونها. ولم أتصور قط أن موت بيفيلاكا يمكن أن يؤثر عليها بهذا القدر. نظرت إليَّ كما لو أنها لا تراني، كانت في مكان آخر، وكأنها تبحث عن غائب بين القبور.

انتهت بأن قالت لي متأوهة: «إنهما كوبيان. لقد وصلا للتو. هو يكتب، وهي تعيد القراءة».

سقط مطر ناعم. وفكرت أن هذا هو «التفصيل الأدبي الصغير الذي كان ينقص».

رأيت أندريا تبتعد في وسط قافلة من المظلات. فاستعجلت لكي ألحق بها.

بدأت قائلاً: «إذا كنت بحاجة إلى أي شيء...

أجابتني بلهجة ناشفة عزوتها إلى الانفعال:

- أجل، سأخطرك».

وضعتُ يدي على كتفها، ثم تركتها تغادر.

حاولتُ، في الأسابيع التي أعقبت ذلك، أن أتجنب قدر الإمكان مجموعة مارتان فييرو. إذ يحدث في بعض المرات أن العلاقات من هذا النوع المقامة بسبب الحنين في جزء منها، وفي جزء آخر لأسباب سياسية، تنتهي من غير أن ندري لماذا. وثمة خيط ينقطع في قلب هذه الجماعات من المنفيين. فالمركز ينفجر، وكل واحد يذهب من جهته، كما لو أن شيئاً لم يكن. ولقد أدركت أن إقامتي في مدريد قد شارفت على نهايتها.

حزمت حقائبي، وصررت كتبي، ودفعت فواتيري بانتظار ذلك. ولقد أمضيت يومي الأخير في هذه المدينة ماشياً، وكان هذا على نحو حنيني إرادي. وبينما كنت أعبر شارع البينار، سمعت من يناديني. كان هذا أوردونييز. حكيت له بأني عائد إلى فرنسا. أدلى أوردونييز بتعليق سخيف عن المطبخ الفرنسي. وكنا قد ودعنا بعضنا بمودة، حين تذكّر شيئاً أراد أن يقوله لي.

«اسمع يا مانغويل، إن هؤلاء الناس الذين سألت عنهم كيتا في المقبرة، الكوبيين، يبدو أن الأمن يبحث عنهم. أقول هذا لأنك مهتم بهما كما هو ظاهر».

حينئذ فهمت لماذا بدا لي هذان الشخصان مألوفين، وتذكرت الوصف المرعب الذي أعطانيه بيفيلاكا عنهما. وبدأت أفهم أن هذا الشيء المرعب، والذي قد يكون تافهاً، والذي يربط بين الاستشباح الأرجنتيني والعجيب الكوبي قد انتهى منذ اللحظة التي لم يعد فيها يستطيع أحدهما أن يروي روايته للوقائع. وهذه أيضاً

واحدة مما يعدّ جزءاً من أرشيف الصمت، وهذا ما نسمّيه في بلادي حوادث العار.

إن لقاء أوردونييز أصابني بالكآبة أكثر. دخلت عميقاً في شوارع بروسب، بواجهات بناياتها الرمادية الصفراء وأرصفتها الخربة. ولقد وجدت نفسي، من غير أن أعي تقريباً، أمام باب مارتان فييرو. صعدت. كانت كيتا وحيدة، تفحص مصنفات فوق مكتب الاستقبال. وهي الآن قد تخلصت من أغراض أندريا: الكواكب الصغيرة، قطائف مخملية، صورة مؤطرة لبيفيلاكا. وقد أدهشتني هيئتها الضامرة، وجلدها البرونزي اللون وكأنه منخور ببهق أبيض، وخلق أبيض يرتج جبهتها. فكيتا تذهب إلى مصفف الشعر كما يذهب البولونيون إلى القداس... تبادلنا ثلاث كلمات على الأكثر، ودعوتها بتهذيب كي تزورني عندما تذهب إلى فرنسا. ولم أجرؤ أن أسمّي المأسوف عليه.

إنها هي التي تلفظت باسمه. وعندما رافقتني إلى الباب، وضعتْ يدها على ذراعي.

قالت لي بهوس من تناقص أصدقاؤه: «لا تهجرني، يا صغيري ألبرتو».

تستدعي الموضوعات المعلقة كلمات مريحة، ولكني لم أكن أعلم بسفر غرزوستيزا، إلى درجة أني لم أعرف ماذا أقول. وإني لأعترف بأن الخبر لم يفاجئني. ولقد وجدت دائماً أن العلاقة بين كيتا والأرجنتيني الصارم غير لائقة إلى حد ما. فهذا الحب بين المحميين وأنصار الآداب لا تدوم طويلاً. تذكّر المسكين تسايكوفسكي ونادجدافون ميك، وأرملته المليونيرة.

وضعتُ يدي فوق يدها لكي أواسيها، ولكن كيتا سحبتها عند الملامسة الأولى، كما لو أنها احترقت.

سألتني فجأة: «ثمة مفتش يدعى مانديبتا، هل جاء كي يراك؟»

أجبت نعم.

«وماذا قلت له؟»

وأوجزت السخافات التي تبادلناها.

«وهل طرح عليك أسئلة بشأني؟

قلت متعجباً:

- عنك؟ لا، أبداً. لقد تكلمنا عن الشرفات.

- لا عني، ولا عن المسكين تيتو، ولا عن أي شخص آخر؟ هل تقسم لي؟»

أقسمت لها.

وها هي تروي لي حينئذ، ولكن أطلب منك أن يبقى هذا بيننا. فأنا لا أريد أن أسيء بلا فائدة إلى امرأة عزيزة الكرامة عظيمة الكرم. لقد جاءت كيتا إلى بيتي في مساء موت بيفيلاكا. وكما نحن جميعاً، فقد أقلقها سلوك بيفيلاكا. كانت تحس بأنه في خطر، وأن ثمة تهديداً (لم تشأ أن تذكر مسكوكة الحدس السادس) يثقل كاهله. وإنك لتعرف كيف يجري هذا مع النساء اللواتي تقدّم العمر بهن قليلاً: فمع أقل حدث، يطفو الشعور الأمومي، وتلح عليهن الحاجة كي يحضن صيصانهن تحت أجنحتهن الكبيرة. ولما كانت تعرف أنه يقيم في بيتي (لأن كل شيء يُعرف في مملكة

الأدب)، فإن كيتا ذهبت تراه لكي تسأله ما تستطيع أن تفعل من أجله. لقد كان ثمة بيفيلاكا بصبغة صفراء وليمونية هو الذي فتح لها الباب. كانت عيناه، المعتمتان طبعياً، تبدوان الآن (كما تزعم كيتا) مثل كهفين في رأس ميت. ضمّته كيتا إلى صدرها، ومسحت على جبهته. وفي نهاية بعض الدقائق، كان لديها الانطباع أن بيفيلاكا لم يعد يسعد لرؤيتها. كان يبدو راغباً بأن تذهب لأنه لم يفتح الباب الذي يقود من ممر الدخول إلى الصالون. سألته كيتا إذا كان أصدقاؤه قد جاؤوا يستطلعون أخباره. لم يجب بيفيلاكا. وحينئذ ماذا تريد؟ كانت كيتا تملك صبر غريزيلدا، ولكن كان لديها أيضاً كماً جيداً من حب الذات. ولذا، فهي لم تلحّ. وقبل أن تخرج، فقد بدا له مع ذلك أنه سمع شخصاً خلف الباب. وبكل تأكيد، فإنها ظنت بوجود امرأة أخرى. وبالكرم الذي كانت تتميز به، فقد قررت أن تخلي لها المكان. والشيء الأخير الذي قالته لبيفيلاكا أنه إذا كان بحاجة أن يتكلم، فهي رهن تصرّفه.

كررت قائلة: «كانت هذه آخر كلماتي، أقسم لك».

طمأنتها بأنه لم يكن في مستطاع أحد أن يتوقع ما حدث، وأن نعرف بأن امرأة مثلها تقلق على مصيره كان ذلك يعدّ راحة كبرى في لحظة اتخاذ القرار المصيري.

أخذت أفكر، وأنا في قطار العودة إلى بواتييه، بالقصة الحزينة التي كنت شاهدها غير الإرادي خلال شهور طويلة. فمن كان هذا الرجل الذي عرفته باسم أليجاندرو بيفيلاكا؟ من كان هذا الشخص المتناقض، المحدد والمتلاشي في الوقت ذاته، المضيء

والكتيم؟ أنت الكاتب يا تيراديلوس (كاتب صحفي، ولكن كاتب على كل حال)، أنت تعرف كم هو صعب أن نقيم بوساطة الخيال لقاء بين الفنان وعمله. يوجد من جهة الإبداع الأدبي الذي يتحول بلا كلل على مدى قراءتنا وإعادة قراءتنا؛ كما يوجد، من جهة أخرى، المؤلف، الكائن الإنساني مع خصوصياته المادية الخاصة، وعاداته المستهجنة، ونقاط ضعفه الموروثة، وعيوبه الصغيرة. سرفانتس كان أكتعَ، وجويس ضعيف نظر، وستراندبيرغ مصاباً بالسفلس... أنت تفهمني.

من غير بيفيلاكا (أريد أن أقول، إننا إذا كنا لا نعلم شيئاً عنه، وإذا كان قد مات في الخفاء، أو في سجن عسكري أرجنتيني)، فإن «مديح الكذب» سيبقى دائماً كتاباً رائعاً، ولكن على نحو آخر، وبشكل أكثر كمالاً، وأكثر... اعذرني على التكرار، ومطلقاً أكثر. أريد أن أقول: من غير كاتب معروف الهوية، ربما سنقرأ هذه الرواية كما لو أنها الكتاب الضائع لتوماس مان من أمريكا الجنوبية، أو لإينامينو المنور والمصبوغ بالحب. ولعلنا نضيف إلى دفق كلماته أقوالنا الخاصة عن هذا العالم، وحدسنا الخاص الأكثر دقة، وتجاربنا الأكثر سرية. لأنه حتى ولو عرفنا أن هذا الكائن البريء إلى هذا الحد، والرمادي، والرابط الجأش كان هو ذلك الذي نجح في رسم عصرنا وأهوائه بوضوح، فإن «مديح الكذب» كتاب يقبل مسارات أخرى لا نهاية لها. فهناك قارئ سيرى كوميديا في هذا الكتاب، وقارئ آخر سيرى فيه تراجيديا غنائية، وثالث سيرى فيه سخرية سياسية متوحشة، ورابع سيرى فيه مرثية للماضي الهارب. وسيكون هناك بعض الناس ممن

سيبقون عمياً عن عبقرية العمل، كما سيكون هناك قراء، بلا حساسية وبدافع الحسد، سيكونون غير قادرين أن يتعرفوا عظمته الفريدة. أما بالنسبة إليّ، فإن «مديح الكذب» يعيد تسجيل (وهذا أمر هائل) العالم الذي عرفناه من خلال عيني شاهد نافذ البصيرة وخفي عرف أن يضعه في الكلمات من غير أن ينسبه إلى نفسه. ويبقى أن نرى إذا كان قراء المستقبل سيتكلمون عن باسك أو نامينو بوصفه فيلسوفاً بمعيار بيفيلاكا أو عن توماس مان كما هو بيفيلاكا الذي وضعه لوبيك.

لقد توارت شخصيات هذه المأساة. أما كيتا، فقد صرعها السرطان في الأيام الأخيرة من الألفية الماضية. وأما أندريا، فلم يصلني عنها خبر أبداً. ولم يعد ثمة شخص يرتل قصائد بيرينس، حتى هو، فالشاعر الخالد تبعاً لأقواله بالذات، قد غدا ضيفاً غير إرادي لمشفى نفسي في سانتاندر. وغوروستيزا، فهو كما علمت أخيراً، قد اختار قدره. أما الآخرون، فلا أعلم شيئاً.

واحد منهم فقط، لم يختف تماماً. ومن هنا، من بيتي الصغير في فرنسا، ما زلت أرى خياله الكبير يتقدم بخطى واسعة فوق رصيف شارع البرادو، أراه يتوقف أمام بابي ويصعد إلى طابقي. وإني لأسمع صوتي الأجش يحييني ويبدأ يقص عليَّ حكايته لعدد غير متناه من المرات، في حين أن عينيه تشدّان عيني إليه، وأن أصابعه تتشبث بذراعي لكي لا أهرب ولكي لا أسيل تعباً ومللاً. وإني لأراه ثانية. وإذا كان صحيحاً أنني أسوأ شاهد يتكلم عن هذه الشخصية، كما كررت عليك ذلك عدة مرات يا عزيزي تيراديلوس، فإنني في بعض الأيام أعاود التفكير فيه من

غير إخطار، ودوره في المصير الأدبي، وفي الافتراءات التي قيلت عنه، وهي ثمرة من ثمار الحسد والوضاعة.

وقلت لنفسي حينئذ: «الحمد لله! لقد عرفت أليجاندرو بيفيلاكا».

I I

فجة كثيرة من أجل لا شيء

دون بيدرو – ضابط شرطة، ما هو
الخطأ الذي ارتكبه هذان الرجلان؟

دوغبيري – حقيقة، لقد ارتكبا
علاقة خاطئة. وأكثر من هذا، فقد
قالوا أكاذيب. ثم إنهما، في المقام
الثاني، نمّامان. ومن أجل مهلة سادسة
وأخيرة، فقد سوّدا سمعة سيدة.
وثالثاً، فقد صرحا بأشياء مجحفة.
وفي الختام، إنهما من غلاة الكذابين.

وليام شكسبير
Much Ado About Nthing.V.I.

إن ألبرتو مانغويل رجل أحمق. أنا لا أدري ماذا قال لك بخصوص أليجاندرو، ولكني أضع يدي في النار إذا لم يكن منحازاً، يا تيراديلوس. إن مانغويل هو من نوع الرجال الذين يجعلونك ترى البرتقالة، ثم يدافعون بعناء أنها بيضة. وأنت

تسأل: ألبيضة برتقالة؟ وهو يجيبك: نعم. ومدورة؟ نعم. ولها رائحة زهر البرتقال؟ نعم. مثل برتقالة. نعم، ولكنها بيضة. وأكد لك أنه لا شيء صحيح بالنسبة إلى مانغويل، إلا إذا كان مكتوباً في كتاب. وإن أقل إشارة، والتفصيل الأكثر تفاهة ليجعلانه ينطلق مطرزاً فوقهما أي حكاية.

صدقني إذا أردت، يا تيراديلوس، ولكنه اعتقد في لحظة ما أني أصنع له العراقيل. تخيل قليلاً؟ أنا أصنع العراقيل لمانغويل؟ إنه مسترخ تماماً فوق هذه الأرض، وفي هذا الوقت وخلال كل الأسابيع التي جرى فيها خلفي، كان يفكر بفي ني أهتم به، وكل ذلك لأنني طلبت منه شيئاً حول مؤلف أرجنتيني. ولقد كان يبعث على الأسى أن نراه (في النهاية، ليس من وجهة نظري، فأنا كان يرهقني) محشوراً كل الوقت في مارتان فييرو، وفي مطاردتي إلى المقهى، وفي مصاحبتي حتى نصل إلى بيتي. وكان يجب سماع كيتا وهي تفصل له الثياب! هل تعلم بأنها كان تسمّيه في غيابه مانغويل؟ وكانت تقول لي «ها هو مانغويل. إنه يحتل كرسيين في قاعة الانتظار. حاول أن تصرفه». ولكن لا شيء يجدي. بيد أن الأمر تغيّر فقط عندما بدأنا أنا وأليجاندرو العيش معاً، إذ ذاك توقف عن الالتصاق بحذائي.

لا أعرف لماذا كان أليجاندرو يحب أن يذهب كي يكون حذوها. أنت الصحفي يجب أن تعرف هذه الأشياء وليس أنا، وخصوصاً لأن أليجاندرو يروي حياته، وكان ذلك في جزء منها لكي يعيشها مرة ثانية، وفي جزء آخر لكي يغشها. وربما كان يحب أن يمازحها، كما نفعل ذلك مع كلب أبله. وإلا يكن ذلك، فقد

كان حينئذ يزورها لأن مانغويل كان، بدقة، لا يصغي إليه، إذ كان مشغولاً بحبْك كل الزوايا انطلاقاً مما رواه له أليجاندرو. وبين وقت وآخر كان مانغويل يخبرني بهذا الذي روي كما يزعم، وحينئذ كنت أنظر إليه وأقول: «ولكن هذا المخبول لم يفهم شيئاً!».

أعتقد أنه إذا كان مانغويل مقلاً في لطفه، فإن هذا كان منه مبالغة أدبية. فلكثرة التخيل وابتداع أشياء لا وجود لها، فإن هذا يجعل دماغنا ليّناً. وفي ذلك الوقت لم أتجاوز الخامسة والعشرين، في حين أن مانغويل لم يتجاوز الثلاثين، ولكن كان لديّ الانطباع بأني أكثر منه تجربة وشطارة بألف مرة. وفي كل مرة كنت أسمعه، كنت أقول لنفسي: أما زال يلعب لعبة الجندي الصغير وهو في هذا العمر!

لقد وجب على مانغويل أن يحدثك عن أليجاندرو المنهك، والسوداوي، أليس كذلك؟ وعن ضحية، وعن كائن دمّرته سنوات من الألم، ومن الاضطهاد، ومن كل ما نريد. طيب، إن حدث إقاماته في السجون، كان دقيقاً، وعلى كل حال فإن هذا ما كان يجب أن يكون بيزنطة في الداخل، ولكن، فيما يخص البقية، فإن أليجاندرو كان على العكس تماماً من أن يكون إنساناً متهالكاً. فلقد زادته الضربات شجاعة، بل لقد أثارت حميّته. وقد حدث هذا مذ كان صغيراً.

يجب عليك يا تيراديلوس أن تثق بي. أنا مواطن أجدادك. أن تثق بي أنا لأن أليجاندرو روى لي كل حياته، حياته الحقيقية، والحميمية، والصعبة. وإنك لتعلم أكيداً أن جدته هي التي ربّته، وهي امرأة صارت قاسية لمواجهتها الحياة وحيدة. وإني لأرثي

لها، المسكينة، لأن هذا، على العكس، أعرفه. وحيدة مع قذر مثل أليجاندرو. فهي ما إن تغلق العينين، حتى يفتش جيوبها، ويأتي بالبنات إلى خلف المخزن أو يغيب عن المدرسة لكي يغور في واحدة من سينما الأفلام الفضائحية في المرفأ. وذات يوم حدث لها حادث كبير. فالمرأة المسكينة، جعل حفيدها ابنة الصيدلي تحمل منه. لم يكن أليجاندرو قد بلغ خمس عشرة سنة من العمر في ذلك الوقت، وأما الفتاة فقد كانت في العشرينات. وتصور قليلاً السيدة بيفيلاكا وهي تواجه ذم جيرانها، بقوة وكأنها سنديانة.

أنا، أحب هذه المرأة حباً جماً، ماذا تريد، حتى وإن فصلت بيننا محيطات وعقود من السنوات. ولديّ انطباع بأننا نحن الاثنتين، كان يجب علينا أن نواجه أوضاعاً لم نخترها، وأنه، لكي نحظى بشيء في الحياة، كان يجب علينا أن نقاتل مثل كلاب من أجل عظمة. كان عليها أن تكابد هذا خلال سنوات، ولكن لا يهم، فإن هذا لا يرعبني، فإن هذا يا عزيزي هو خبزي اليومي.

لقد فتنها أليجاندرو في البداية كما فتنني، أنا. هي التي رآها تكبر، وأنا التي رآها وقد كبرت من قبل. وإني لمتأكدة أننا نحن الاثنتين قد أخذنا بهيئته، وحضوره، وبهذا الإشعاع الذي يستله لا أدري من أين. وفيما يخصني، فإني لا أدري إذا كان هذا بسبب عينيه اللتين تغرقانك في لجتيهما أو بسبب يديه اللتين تجعلان شعر بدنك يقف عندما تتصورهما تتنزهان تحت تنورتك، أو بسبب عنقه الطري حيث نشتهي أن نغرس فيه أسناننا. ولكن عن ماذا نبحث بلا فائدة؟

لقد أحببت دائماً الرجال وهم أكبر سنّاً. وأنت شاهد على ذلك يا تيراديلوس، ولكن على أن يكونوا شبابيين قليلاً. عد كي تراني عندما تكون قد وضعت قليلاً من الملح في بهارك. كان أليجاندرو يكبرني بنحو خمس عشرة سنة، يا مسكين، وهذا يعني أنه كان عجوزاً بالنسبة إليّ، وذلك في العمر الذي كنت فيه عندما التقيته. والرجل الأكثر جمالاً والذي لم أعرف قط مثله، كان أبي، فليتقبل اللّه روحه. انظر إليه، هنا، في هذا الإطار الفضي، كيف هو مرمي. لقد كان أبي مصارع ثيران. ولا أدري إذا كنت قد حكيت لك ذلك. إني أعبده.

كنا نذهب، في أمسيات المصارعة، هو، وأمي، وأنا عند جدتي لأبي، لأن عندها يوجد ماء ساخن. ويستطيع أبي هناك أن يحضر نفسه براحة. تعيش جدتي مع أختيها. ولذا، فإن أمي والعجائز الثلاث قد شغلن بتحضير ثيابه، وبوضع مناشفه مكوية جيداً على طرف المغطس، والصابون المعطر الذي كان مدخراً له فقط. يدخل أبي إلى الحمام، وبعد مضي وقت، لم يكن بشراً ذلك الذي يخرج، ولكنه مخلوق سحري، كائن فاتن، مزين بحرير وردي مزركش بالذهب وبالبرق، جميل كأنه القديس إيتين المبارك. نسلّم عليه (وعلّمتني أمي مذ بدأت الكلام أن لا أتمنى له حظاً سعيداً أبداً)، ثم ذهبت لكي أجلس على أرض الشرفة، الساقان معلقتان من كل جانب من جوانب العمود بين أصص زرعة الجيرانيوم، وذلك لكي أراه يخرج ويبتعد عن الضوء في الشارع المبلط. وكانت جدتي وأختاها يضعن مباشرة خمرهن ويخرجن العذراء من عشها، فهي المنجد الدائم، وتشعل أمي الشموع ثم

يجلسن أربعتهن يرتّلن تسبيحة التساعية، وذلك إلى أن يعود.

لم يذهبن قط كي يرينه يصارع الثيران. ولم يجرؤن قط على تشغيل المذياع خلال غيبته. كانت الساعات تمر، وكنت أراهنّ يصلّين، فأنظر، مضيعة للوقت، إلى الدمغات، وأستمر في ذلك حتى أعود فآخذ مكاني على الشرفة لكي أراه في طرف الشارع حيث تُنزله سيارة، جميلاً مثل سيد عظيم، وحقيقي أكثر، وأرضي أكثر من قبل، مع أثر للدم أحياناً على خده، ممزق الثياب، ولكن بفضل اللّه لم يكن قط في وضع أفقي، ولم يحمله الممرضون، ولم يجرح جرحاً خطيراً، كما كنا نخشى ذلك صامتين. لقد مات عندما بلغت سن السادسة، من انسداد رئوي، لنقل إذن، إنه مات من حصوة صغيرة توقفت في مكان ما من عروقه وليس من إفراغ دمه أمام جمهوره، وذلك كما تصورته دائماً. إن الأمر هكذا. فانظر إليه وقل لي: أراهن بأنك لم تر قط رجلاً في مثل جماله.

ولكن عد إلى رشدك، فإن أليجاندرو لا يشبهه كلّية، لا بالوجه ولا بالسمات الشخصية. وأليجاندرو ما كان ليحتمل فكرة نقطة من الدم. وإنه غير قادر على سحق نملة، ولا على طرد ذبابة. وإنني لم أستطع قط أن أتكلم معه عن مصارعة الثيران. فقد كان يتحول بعينيه من الكلمات الأولى. وإن كل حركة يفترض بأنها تحدث ضرراً، كانت ترده مريضاً. فهو لم يفهم أبداً كلمة «تقاتل». أما أبي، فنعم. لقد كان لأبي أسلوبه، وهو أسلوب طري كأنه القصب. وأليجاندرو، على ما كان عليه من ضعف، فقد كانت له انتفاخات دهنية. وعندما رأيته للمرة الأولى في مارتان فيرو، قلت لنفسي: «عجباً! إني سأقرشه نيئاً». ولاحظت

بأن كيتا لم تكن أيضاً غير مبالية. وقد كان هذا لأنه يجب عدم الاعتقاد بأن السيدة أرفع بكثير من أن تختار لنفسها لاجئاً من هنا ومن هناك بغية استهلاكها الشخصي. انظر، هذا هو تيتو غوروستيزا بشعره الطويل ومحفظته الجلدية على كتفه. كان بيرينس يسمّيه «هبي الآنديس». والبروقي، ماذا كان حينئذ. لم أعد أعرف كيف يسمّى، ولكنه سكن أخيراً في البيت التابع للمؤسسة التي اشترتها كيتا قريباً من كاسيريس. انتبه، إني لا أرميها بحجر. فأنا أجد أنه أمرٌ جيد أن تثبت قدم امرأة ما دامت الإمكانية لديها.

ولكن أليجاندرو كان محفوظاً لي. وقد قلت لها ذلك في وجهها صراحة. قالت لي كيتا مازحة: بالطبع، استفيدي منه. ولقد جعلناه يقيم في البداية عند غوروستيزا، لأن كيتا كانت قد سجلت البيت باسم صديقها. وهي طريقة أنيقة تمده بها ببعض المال عبر الإيجار الذي يؤديه الآخرون، وذلك نظراً لأن تيتو لم يكن ميالاً كثيراً لبيع الدمى في شارع غويا.

أما أليجاندرو، فهو على العكس من هذا، إنه لم يشكُ حظه قط. وفي الاتجاه الآخر، فإني أقول: لقد كان ينهض في كل الأيام تقريباً، فيجمع سناراته وخواتمه، ثم يمشي إلى مكانه المعتاد ويبسط بضاعته على الرصيف. وكان هذا الأمر يوفر له نوعاً من الأمن. وأنا لا أعرف نقطة محددة في حياته أصبحت فجأة بدوية في تنقلها. ومهما يكن، فقد كان أليجاندرو محافظاً. يحب الأكل الفاخر، واللحم الجيد، وكل ما يستطيع أن يتذوقه وأن يلامسه، وهذا شيء لا تستطيع أن تفعله عندما تكون في

جميع الجهات. وكان يود أن يحظى بشيء من التنميط صباحاً ومن المغامرة مساء. ولعله كان يصلح أن يكون رجل سياسة بارعاً.

أما أنا، فماذا تريدني أن أقول، كانت لديّ طموحات. فقد أردت أن يضيف إلى مميزاته هذه، ميزة أن يكون فناناً. إذ بالنسبة إليّ، حتى ولو لم يشأ أن يقبل ذلك، فإن أليجاندرو بيفيلاكا كان رجل الآداب. وإني لأمتلك معرفة طيبة بأدب أميركا، ولا أدري إن كان قد قيل لك هذا. فأنا مذ كنت صغيرة، وأثناء ما كانت أمي تتحمس من أجل جيرونيلا وكازرونا (حتى وإن كانت رائعته هي Nada، لـ Carmen Laforet)، كنت أبحث عن المؤلفين الذين جاؤوا من وراء الأطلنطيك الذين كان بعض أصحاب المكتبات يبيعونهم خلف المخزن، سراً تحت المعطف. ولقد أردت أن يكون أليجاندرو واحداً من هؤلاء. وتخيلته، بكل تأكيد، محتفى به، فوق طية واحد من تلك الأغلفة التي رفعت حروفها السوداء بجسارة، وذلك كما كان يُصنع هذا في ذلك الوقت في بوينس آيرس، المكرسة أبجدياً بين ماريو بنيديتي وجيليو كورتيزار.

هل تعرف ماذا؟ لقد أردت أن أسهم في هذا التحول الذي بدأ ينبثق في كل إسبانيا، وكأنه تغير فصلي، أو كأنه شفاء بعد مرض طويل. وإن كل واحد منا، أريد أن أقول إن كل واحد من جيلي، قد عاش هذا على طريقته، وذلك في أوقات مختلفة. بالنسبة إليّ، كان ذلك في المدرسة، بعد الدروس. كنت على وشك أن أغادر قاعة الدرس، عندما دخلت المديرة، وهي امرأة قاسية، وباردة جداً، وطلبت مني أن أساعدها. فقد أخذت واحدة من السلال البلاستيكية الموجودة في الصالة وألصقتها بذراعيّ. ثم

وضعت كرسياً على المرتفع الخشبي، وقرّبته من اللوحة، وقلعت المصلوب الذي كان مثبتاً إلى الجدار ورمته في السلة. وقد قمنا بجولة على كل القاعات لكي نسحب المصلوبين. وملأنا سلّتين منهم. ثم وضعناهما هنا في زاوية من زوايا مصلى المدرسة، تحت النظر التائه لأحد القساوسة الذي كان يقوم على أداء الصلاة. وفي اليوم الثاني، عندما جلست إلى طاولتي، أحسست للمرة الأولى بحرية أكبر، وباضطهاد أقل.

أردت أن يكون أليجاندرو ممثلاً لرياح التغيير، وريشة مبهرة، وصوتاً مذهلاً ظل خبئاً إلى الآن. ولكن نعم، إني أعلم يا صغيري: إن الروايات المصورة لأليجاندرو تمثل كل شيء باستثناء الأدب. ولقد ضحكنا معاً كثيراً ذات يوم حيث عثرنا في سوق السلع القديمة على ثلاث أو أربع منها كشفها لي في كومة من المجلات القديمة. وثمة أيضاً ما هو أتفه من المسلسلات، فلا تعتقد أني لم أدرك ذلك. إلا أن أليجاندرو كان يمتلك فن بسط الحكايات. كان يمتلك خصوصية في اللغة (أرى أنك تبتسم، أيها الساقط الصغير)، وموهبة طيبة لاستخدام الكلمات بقياس دقيق، مع اللهجة والتلوينات المناسبة، ومع تمكّن أكبر ورهافة لا يكشف عنها لكي يسلك حبات فول ملونة.

ويقال إنه يوجد، في الأندلس، ساحرات. تجعل الورود والعصافير تظهر من العدم وذلك بفعل تسميتها، أما هو، فقد كان من هؤلاء، صدقني. وعندما كان أليجاندرو يروي لك شيئاً، فإنك تمرر فيلماً، وتشاهده. ولهذا، فإني لم أكن مندهشة من اكتشاف أن كتبه رائعة.

بصراحة، يا تيراديلوس. قارنه بأي شخص آخر. قارنه ببيرانس مثلاً. هل سبق أن قرأت كتباً لبيرانس، وهل سمعته يتلو نصوصه، وذلك قبل أن يصبح أهبل، كما أريد أن أقول؟ جائزة كذا عن كتابة الأول، وجائزة كذا عن كتابة الثاني. هنا، في إسبانيا، يحبه الناس لأنه يترك فيهم أثراً يمكن أن يتركه بيكير لو كان حديثاً. وحتى قبل درجة توزيع الجوائز عن طريق الصداقات، فقد كان لا يمكن أن يمر علينا خريف من غير أن يسرق بيرانس جائزة. إن أليجاندرو، بالقياس إليه. . .

تركته يقيم عند غوروستيزا بضعة أشهر، وهي قضية تأقلمه مع مدريد. فالمدينة في ذلك الوقت كانت لا تزال ميتة عموماً من الاضطرابات، فاشية، خرساء، مطوية على نفسها، لا تريد أن ترى أحداً. وعندما كنت صبية، كنت أتخيل بصعوبة أننا ذات يوم سنستطيع أن ننتهي من هذه الحفر المملوءة بالقاذورات الفائحة بالشمع والخضروات المتعفنة التي خلّفها حكم الجنرالات. ولقد قلت لنفسي إذا كان أليجاندرو يتحمل كل هذا في شقته المشتركة، فإن شقتي سيكون لها عليه وقع الجنة. وهكذا، فقد أتيت به في عطلة عيد ليعيش معي.

لقد قيل لك بكل تأكيد كيف اكتشفت المخطوطة. فأنا طلبت من أليجاندرو عدة مرات أن يطلعني على النصوص التي لا يسعه أن يؤلفها إلا بروحه شاعراً. وكان يكذّب على الدوام، ويعلن أنه لم يكن كاتباً، ويطلب مني أن أدعه بسلام. اشتريت له آلة كاتبة محاولة أن أجعله يقع في الإغواء. وتركته هادئاً، وحراً يتصرف على هواه، وذلك لكي أرى إذا كانت الوحدة ستلهب وحيه. لا

شيء. لم يفتح الآلة مرة واحدة، والوحدة لم تكن لتلهمه، وعلى كل حال ليس من أجل الكتابة. وإلى جانب هذا، عدت ذات يوم باكراً أكثر مما هو متوقع، ووجدته في السرير مع الصينية التي تسكن في الشقة المقابلة، والتي شككت في أنها قذرة مذ رأيتها تفتح بابها لابسة كيمونو مفتوحاً، وثدياها في الهواء. وبالطبع، فقد تجاوزت عن هذا.

هذا وإنّ (أضع بين قوسين) أليجاندرو كان يمتلك موهبة اقتسام كل شيء: الغذاء، والقراءة، والأفكار، والجنس. أنت تضع صحناً أمامه، فيلح لكي تذوقه. وإذا كان أنفه غاطساً في رواية سوداء، فإنه يناديك ويقرأ لك بصوت مرتفع الفقرة التي أحبها. وإذا لاحظ، في وسط الليل، ملاحظة، أي عبث يصوغه، فإنه يوقظك لكي يطلعك عليه. وتبعاً له، فإن السرير لم يُصنع لكي ينام المرء وحيداً. وكان يقول إن الأنانيين وحدهم هم الذين يمارسون العادة السرية.

ذات صباح، بينما غادر أليجاندرو إلى مكانه في شارع غويا، اكتشفت حقيبة قديمة مليئة بما بدا لي أنه غسيل وسخ. فتحتها. وكانت هنا. «مديح الكذب» بحروف منسوخة ومخطوطة جيداً. لم تكن موقّعة، ولكني عرفت المقصود فوراً. قرأتها سحبة واحدة. أنهيت الصفحة الأخيرة بعد عدة ساعات، والدموع تملأ عيني، أقسم لك برأس أبي، ليحفظه الله في قدسه المجيد. توجد هنا توليفة من المجهورات والصوامت لا يمكننا تحديدها إلا جزئياً بقولنا: «ها هو الأدبُ الحق». اجعل أل التعريف كبيرة إذا شئت، فهذا من المثيل إلى الشيء ذاته.

أعدت كل شيء إلى مكانه، وحملت المخطوطة إلى المكتب. دعوت أوركييتا، وقد تصور شيئاً آخر. فقلت له يجب أن أراه. أعطاني موعداً في مقهاه المعتاد.

عندما وصلت إليه، عصبية ولاهثة، كان سابقاً إلى هنا، ببيروكته الممشطة جيداً وبسمته المنعكسة. أمسك بقبضتي، وطلب من أن أروي له كل شيء. ولا أدري إذا كانت قد سنحت لك فرصة كي تتحدث إليه، ولكن لأوركييتا صوتاً أبوياً، ورزيناً، ويشبه صوت أبطال السينما. لقد طمأنني.

قلت له واضعة الرواية تحت أنفه:

«أريد أن تعطيني رأيك فيها.

- هل هي لك؟

- لصديق

قال مبتسماً أيضاً:

- صديق...

أجبت بوقار:

- اقرأها، أرجوك اقرأها.

- لا تريدين مني مع ذلك أن أتكلف كل ذلك سحبة واحدة.

قلت له آمرة بلهجة حاسمة:

- هيا. ستقول لي ما تفكر فيه».

ربما أراد أن يلعب لعبة الغاوين، وربما كان يعجبه دور المستشار العجوز، أو إنه كان حينئذ يعرف بحدس القارئ المجرب بأن الأمر يستحق. ومن المهم في كل هذا، هو أن أوركييتا يطيعني. وضع نظارته فوق أنفه الكبير، وتفحص صفحة

العنوان، وأبدى ملاحظة على الكتابة ولون الحبر، وبحث عبثاً عن اسم الكاتب، ثم أعاد تركيز بيروكته بخفاء، وقلب الصفحة، وبدأ القراءة. إنه خبير، قلت لك.

لم أفتح فمي. وكان النادل يحمل لنا قهوة فوق قهوة. وبعد ساعة، رفع عينيه.

استعلم قائلاً:

- من كتب هذا؟

- أولاً، ما رأيك فيه؟

- رائع، جيد جداً، مميز، هذا الذي استطعت أن أقرأ على كل حال.

- إنها رائعة، أليس كذلك؟

- هذا وقت مبكر لقول ذلك. لم أنته. يجب عليَّ أن أعيد قراءته مرة على الأقل.

- يا سيد أوركييتا، أعلم أنها كذلك. وأريد فقط أن تؤكد لي ذلك.

- محتاج إلى معلومات أكثر، يا عزيزتي. من هو المؤلف؟ كيف وصلت المخطوطة إلى يديك؟

- سيد أوركييتا، لا أستطيع أن أقول أكثر. وإنني لأعلم أنك لا تشك في أن «مديح الكذب» كتاب فريد، ومهم، ومعجز. ويجب علينا نشره. أريد أن أقول، يجب علينا نشره. أريد أن أقول يجب عليك أن تنشره. ولديك القدرة لكي تجعله يُعرف بقيمته الحقيقية. وإنك لتستطيع أن تعطيه السمعة التي يستحق.

افعل هذا لأجل عشق الفن، يا سيد أوركيتا، هل توسلت، منافقة. ستعترف لك أجيال المستقبل بالفضل».

لا أعرف لماذا، ولكن عيني أوركيتا كانتا منداتين قليلاً ودائماً، كما لو أن شيئاً يمازحه أو يحزنه باستمرار. ولا توجد أي شعرة تحيط به، لا أهداب ولا حاجبان، تماماً كما هي حال بعض كلاب الحراسة، وتماماً كما هي حال عيني زبون حذر، جابت عيناه ببطء حول وجهي، وحفرة رقبتي، وأقواس قميصي الداخلي، وأخذ خياله ما تبقى على عاتقه. كان معروفاً جيداً، وقد أحب أوركيتا أن يحوّل المحادثات الأكثر عادية أو الممارسات الباردة إلى استراتيجيا للإغواء، من غير اهتمام بالنهاية. وكان يحب الصيد حباً جماً. وإذا كان محدثه يوفر له أقل لذة جمالية، فإن أوركيتا يداعبه بالنظرة والصوت بحذر يشبه حذر السارق. وإن عدم الراحة التي يمكن للآخر أن يحسها، كان لا يأبه بها بوله.

تركت نفسي تنظر إليه بعين حاسدة، وراقبته لكي أرى من يثبت زمناً طويلاً أكثر. ترك العجوز لسانه يجول فوق شفته العليا جزءاً من الثانية زيادة وهو يتلفظ بحرف «ل» وحرف «ت». وكان يطيل الوقف قبل أن يجيب، ويثبت النظر على هذا المكان أو ذاك من جسدي، كما لو أنه يطالب بأرض. وقد ظل عدة ثوانٍ على هذا المنوال.

«من أجل حب الفن. حسن. سنرى. دعي لي المخطوطة. لنلتق هنا ثانية خلال ثلاثة أيام. سأعطيك جوابي».

تلقيت بعد يومين رسالة في مارتان فييرو. ضرب لي أوركيتا موعداً في المقهى.

كانت كلماته الأولى: «سيصدر الكتاب خلال ثلاثة أشهر، وسأرسل نموذجاً لثمانية أشخاص يعتدّ بهم. وقد فكرت في تنظيم حفل إطلاق في مقهى مثل ليون أو البالينا آليغر، ثم جاءتني فكرة أفضل: مكتبة. سنفعل شيئاً في مكتبة أنطونيو ماشادو. عرض مثل تلك العروض التي تقام في باريس. حدث حقيقي. زلزال، سترين».

وضع يداً فوق ذراعي. وأعترف لك بكل صدق، أنا أقر له فعلاً بالفعل.

قلت له: «إنك لا تستطيع أن تتصور إلى أي درجة جعلتني سعيدة». ثم أضفت: «ولكني يجب أن أحذرك، إن المؤلف لا يعرف.

- لا يعرف أنك اقترحت عليّ كتابه؟

- لا.

- ولكن كيف لنا أن نبرم العقد حينئذ؟ من سيوقع؟

- أنا. سأخذ على عاتقي المسؤولية كاملة.

- لا أحب هذا. لماذا لا نخطره؟ ما هذا الفانتوماس؟ وماذا لو انقلب ضدنا، بعد ذلك؟».

ولكن أنا أيضاً لدي مصادري. ومفاتني ستتغلب على مخاوفه البيروقراطية. قلت مبتسمة:

- «أعلم أنك لا تخاف أحداً.

- إذن، أنا محتاج إلى عونك.

أجبته مرتاحة:

- اعتمد عليّ.

قال العجوز مدققاً:

- أعتمد في الليل كما في النهار.

- في الليل كما في النهار.

- والآن قولي لي: مَن هو المؤلف؟

- بيفيلاكا، أليجاندرو بيفيلاكا.

- الأرجنتيني؟ المشارك في الإيجار مع بيرينس؟

- هو نفسه. والآن هو يعيش عندي.

- فهمت. ولماذا لا يريد أن نعرف هويته؟ إنه من الأفضل أن يظهر اسمه على الغلاف.

- نعم، بالطبع، وعندما سينشر الكتاب سيعلم. أما الآن، فهو لا يعلم أني قد قرأته. المسكين، لقد صدمته المحنة التي كابدها في الأرجنتين بشدة. إنه يقول إنه ليس كاتباً، ولديك البرهان المحسوس هنا على العكس من ذلك. إن رواية «مديح الكذب» ستعطيه هوية جديدة، أنا متأكدة. وحياة جديدة.

اختتم أوركييتا بقوله:

- جيد. لنتهيأ للولادة.

ربما كان أوركييتا نسراً، ولكنه كان أيضاً مثقفاً. «الولادة»، كانت هي الكلمة الدقيقة. ولادة الكتاب، وولادة أليجاندرو الحقيقي الذي عاش حتى الآن مختبئاً. وأقسم لك إني كنت سعيدة إلى درجة أني أوشكت أن آخذه من عنقه حتى وإن لم يكن أوركييتا بحاجة أبداً إلى تشجيع. وعلى كل حال، لقد بدأ بفرك

قبضتي، ثم انتهى بزحلقة أصابعه تحت الكم، وبين الفستان والإبط. ولكن هذه لم تكن المشكلة. فأنا كما أكدت دائماً، إن أليجاندرو كاتب.

أنت تفهم ما أرويه لك يا عزيزي تيراديلوس؟ كاتب، كاتب حتى النخاع، ليس كأولئك الذين يمرون عبر مارتان فييرو مستفيدين من الذوق الذي تملكه كيتا إزاء الأمسيات الأدبية. قارن وسترى أنه لا توجد صورة. ولقد حضرت مجموعة من الأمسيات الشعرية، هل تعرف، عندما يجب النظر إلى الباب والسهر لكي لا يقذف شاعرك بجملة صغيرة منزاحة تعلن عن اسم ممنوع، لا شيء يشم منه عن قرب أو عن بعد رائحة الشيوعي أو رائحة الأم روسيا. ومع ذلك، فإن كل الناس ينتظرون الكؤوس الجسورة والوامضة التي تضيء أمسياتنا المظلمة. وعندما أفكر في عدد المرات التي استطعت أن أستمع فيها إلى بيرانس، الأكثر مثابرة طبعاً، وهو يلقي أشعاره فوق منبري الصغير، بطقمه المستورد، وربطة عنقه القصيرة والدقيقة كأنه لسان العظاية المدبب فوق السرة، وبسمة صغيرة فوق الشفتين، كما لو أنه يعرف إلى ماذا يرجع، بينما نحن، الأحمق المسكين. . . كان أوركييتا يعرف تماماً أن يقيم الفارق. لقد عرف تماماً أنه إزاء مؤلف أصيل، وثور منذور للموت.

سأوفر عنك التفاصيل التقنية، والظروف المغلقة، والهواتف المهموس بها. ولقد كانت كيتا تلح كي تعرف ما نحيك (لأنه لا شيء يفوتها)، كما كانت تثرثر مع غوروستيزا، وهو بواب آخر. وكانت كيتا تحلف بالقديس كريستوف بأنها لن تقول شيئاً لأحد،

كان بيرانس يعلم (أجهل كيف)، وهي تقسم الأيمان، وتدبر الحيل، والمؤامرات. وبعد ذلك، فهناك الحوارات حول إخراج الكتاب، والطباعة، والغلاف، وهو الأول الذي صممه ماكس. والاختبار يأتي أخيراً، من واقع النص المطبوع، والغلاف المغري، و«مديح الكذب»، وفوقه الاسم أليجاندرو بيفيلاكا.

كان مساء ممطراً. وأتذكر عندما استدعاني أوركييتا لكي يسلّمني النموذج الأول مطبوعاً، ومغلفاً بورق للصر. لقد أصبت بالرعدة. وفي اليوم الثاني، وبعد تقديم القهوة لأليجاندرو، وضعت الصرة الصغيرة المستطيلة أمامه. فتحها أليجاندرو، أخذ الكتاب، نظر إليّ، تفحص الغلاف، فتح الكتاب، أغلقه، أعاد فتحه، أعاد إغلاقه، وضعه في صرّته، طرحه فوق الطاولة، حمل متاعه، انسحب من غير أن يقول كلمة.

لقد حدث العرض يوم الجمعة الذي أعقب ذلك، وأما البقية، فأنت تعرفها. وأما مانغويل، هذا الدبق، فقد صمم أن يقف إلى جانبي تصميماً أكيداً. وكان عليّ قبول أن يأخذني إلى مقهى، وأن يصاحبني إلى بيتي قبل أن يتركني أخيراً بسلام. أليجاندرو، لم يكن قد عاد بعد. انتظرته طوال الليل، وطوال نهار السبت، وصباح اليوم التالي.

كنا في يوم الأحد. وقد جاء كل الناس في هذا اليوم إلى بيتي. أما كيتا، فقد جعلت إضاعة مفتاح الصندوق حجة لها، وجاء غوروستيزا برأس مفتش حقيقي (هل جاء أحد كي يرى أليجاندرو، وهل أستطيع أن أفتش في أوراقه كي أعثر على أثر)، وأما أوركييتا فقد كان أبوياً ومليئاً. ولقد رويت أيضاً وأيضاً أني لا

أعرف لماذا ولا كيف ولا أين. وأخيراً، تخلصت منهم جميعاً عند الظهر، وقفلت الباب. بعد ذلك بقليل، جاء المفتش مانديتا لكي يراني. وهو الذي أخبرني الخبر.

إننا لا نفهم أخباراً كهذه مباشرة. وإننا لا نفهمها لأننا لا نعرف كيف نتعامل معها. لعل المرء ينقصه في رأسه حيزاً يستقبلها فيه. وقد يكون المرء غير قادر أن يعتقد بإمكان حدوث ما يقال له، لأن الفكرة، قبل أن يقال له، لم تخطر بباله قط. والأمر كما لو أن ثمة ثقباً في خارطتنا للعالم. والمرء لا يستطيع أن يكتشف أمريكا، ما دام أنه لم يقل لكم إنها يمكن أن توجد هنا، من الطرف الآخر من البحر.

قضيت الأيام التي تلت بكاء ونوماً، ومتصورة في كل لحظة بأني سأراه يدخل من الباب، وبأني أسمعه يكلمني من الغرفة المجاورة. وفي بعض الأحيان، كان لديّ انطباع بأني ابتدعت كل شيء: لقاءنا، وحياتنا المشتركة، ومحادثاتنا تحت شرشف السرير والكتاب السري.

هذا جنون. أنا لا أعلم إذا كانت هذه الحكايات التي يرويها هي حكاياتي، حكاياته، أو هي حكايات شخص آخر. فأنت تقضي حياتك في وسط الكلمات، سامعاً، ومصنعاً لحكايات انطلاقاً مما تقول ومما تتخيل بأنه قد قيل لك، ومعتقداً بأن مثل هذه الأشياء قد جرت هكذا أو هكذا. ولكن الأمر ليس بسيطاً أبداً، هبه؟ وأفرض، أننا لو قرأنا أنفسنا في كتاب، فإننا لن نعرف أنفسنا، ولن نعرف أن هذه الشخصية هي نحن قائمين بفعل هذا الشيء، وأننا نتصرف على هذا النحو. ولقد اعتقدت دائماً بأني

عرفت أليجاندرو، معرفة حميمية، أريد أن أقول، إنني أعرفه كما لو أنه دمية قمنا بتفكيكها إلا أن الواقع ليس كذلك.

روى لي أليجاندرو ذات يوم قصته مع فتاة الألعاب المتحركة، في بوينس آيرس. كان شاباً صغيراً في ذلك الوقت. فقد تعرف على هذا الألماني العجوز الذي يكسب عيشه من تمثيلياته في مسرح العرائس. وكانت الفتاة التي نعنيها تقوم بدور المساعدة. أما أليجاندرو الذي دخل في طور المراهقة ويعرف هذا الذي يحبه، قد جعل العجوز يعتقد بأنه لا ينزعج إذا لامس أحد دبره أو إذا طبطبه أحد. وما كان ذلك منه إلا لكي يقترب من لوريدانا. أما أنا فأقول إننا في السرير كما في البازار، نجد من كل الأشياء، ولكن أليجاندرو في ذلك الوقت كان طفلاً صغيراً، وما كان ليثير اهتمامي، وحتى إنني ما كنت لأبذل جهداً كي أخلع معطفي أمامه. وظاهرياً، فإن لوريدانا قد دخلت في لعبته. فبينما كان العجوز يمضي الساعات في إصلاح خيوط ألعابه المتحركة، فإن لوريدانا كانت تجلس أمام الصغير منفرجة الساقين متظاهرة أنها قد نسيت أن ترتدي سروالاً داخلياً، أو تظهر بقميص نصف مفكوك الأزرار، تاركة أعلى القميص فاغراً يخرج من طرف الدانتيل الأبيض فوق جلدها الذي بلون القهوة.

لم يتحمل أليجاندرو أن تذهب هذه الفتاة من غير إخطاره. وعندما علم بمغادرتها، جرى خلفها حتى إلى التشيلي. وكما تبين لي أكثر من مرة، فإن أليجاندرو لا يتحمل أن يشعر أنه مهان.

شرح لي أنه عندما وجدها في قاعة الطعام في الفندق، فقد تعامل معها كعاهرة أمام كل الناس، وروى كل ما كان بينهما معاً.

وهدد بأنه سيذهب إلى الشرطة، متهماً العجوز بأنه أراد إفساده، وطلب مالاً. وقبل أن يعود إلى بوينس آيرس، تسلل إلى مؤخرة المسرح، وأظهر أنه واحد من عمال الآلات لكي يمزق ثياب الألعاب المتحركة ويلونها بغائط هائل.

لا أدري إذا كنت تتابعني. لم يكن هذا لكي أعترف بأن أليجاندرو كان يقول لي كل هذه الأشياء. فقد كان يرويها لي في السرير بينما كان ينزه يده فوق جسدي. وأعتقد أنه كان يرويها لكي يستثير جسده، وربما كان يقول لنفسه بأن هذا ليثيرني أيضاً.

ولكي أكون صريحة، فقد كنت أصغي له بأذن شاردة، كنت أنظر إليه، أو بالأحرى كنت أتذكر المرات الأولى التي رأيته فيها في مارتان فييرو، عندما كنت أظن أني عاشقة له وكنت ألتهمه بعينيّ مثلما عندما نتابع في الليل مساراً نتحسسه ونحن نعرفه جيداً. وكنت أحب أن أخدع، وأن أصل إلى مكان غير منتظر من جسده، وأن أؤكد حدسي بمنطقة مظلمة، وملتهبة. وكنت لا أهتم أن يقص عليّ تاريخ حياته أو لا، وأن يكون حقيقياً أو متخيلاً. كان صوته يجعلني أتعلق بالستائر، بغضّ النظر عما يقول. وبالنسبة إليّ، فإن كل شيء تحت الشرشف هو حلم، ولكن ليس خارجه. وسواء أكانت هذه الأشياء قد حصلت أو أنه أراد أن تحصل، فإن الأمر سيان بالنسبة إليّ.

كان يجب على أليجاندرو أن يتصرف هكذا مع كل النساء. أنا، لم أكن غيورة على الإطلاق. ولذا، فإني أستطيع أن أحدثك عن هذا من غير أن يطرف لي جفن. ومع لوريدانا، فأنا لا أظن، لأنه لم يكتسب بعد تجربة الكلام، وما كان لديه فقط، هو تجربة

الجسد الذي يتحرك وحده. ولكن مع زوجته، فنعم، مع هذه الغراسييلا التي لم يرها مرة ثانية أبداً. ولم يقل لي هذا أبداً، ولكنه كان يشتاق إليها كما نشتاق إلى الهواء. وقد كان هذا خصوصاً لأن أحدهم اقتلعها منه، وأسلمها بقصد إلى الجلادين، هل تعرف ذلك؟ وهذا أمر لم يهضمه أليجاندرو قط. وإني لأتصورهما متشابهين جداً، وكأنهما ممثلين تخصصا في أسلوب السيناريو نفسه، فلا توجد حركة منحرفة، ولا جملة في غير مكانها، وهما في السرير معاً أو بصحبة ممثل صامت كان يجب عليهما أن يخرجاه من الردهات الخلفية لكي يوضع في كماشة جهنمية.

وأما مع الأخريات اللواتي عرفهن، بمن فيهن أنا، فقد كان الأمر مختلفاً. فأنا أعرف أن العديد من النساء اللواتي كان يصفهن لي ليلة بعد أخرى، كان هو أليجاندرو الذي يكدهن إلى أن يصمتن، مثل هؤلاء القصاصين الذي يجلسون في السوق فيسحرون الجمهور. وحينئذ كن يدركن أن الليل قد مضى، وأن النور قد تدفق من النافذة.

كانت كيتا أمزوحتي. وعندما كنت أراها تدخل إلى المكتب صباحاً، كنت أراهن بقطع يدي أنها قد أمضت الليل بصحبة أليجاندرو. ليس لأن الدنيء لم يدخل إلى البيت ، ولكن لأن هذه الحرية كان قد اشترطها منذ الأيام الأولى، وقد وافقته عليها راضية مرضية. حزرت هذا حينئذ لأن جلد كيتا كان مقشعراً، معروقاً، كما لو أن الكلمات التي صبّها أليجاندرو فوقها ما زالت لاصقة في عروقها، زرقاء، وحمراء، ومذهبة. وكان غوروستيزا، الذي لم

يعترف قط بأنه يشكل زوجاً مع كيتا، ينظر إليها صامتاً بعين حزينة. وأعتقد بأنه ما كان يعيب عليها شيئاً، فقط لكي تدعه هنا، لاصقاً بتنوراتها، وحاشراً أنفه في كل مكان. ولقد كانت كيتا، على العكس من هذا غيورة، أو ربما يكون من العدل أن نقول إنها أمومية أكثر، ومن أولئك اللواتي كنَّ يردن رجلاً صغيراً بين ذراعهن، قريباً من صدروهن، إنهن نوع من الأم المتألمة.

إن أليجاندرو، كما أذكر، لم يفقد طلاقته مرة واحدة. وذات مساء، حيث دخل متأخراً، روى لي أنه التقى شخصاً، ولكنه لم يشأ أن يقول لي من يكون. إنه يثرثر إلى درجة لا ينتهي معها، ربما باستثناء إغواء نفسه. إنه يواسي نفسه ويقوي إرادته. فقد بدأ بسنوات سجنه التي روى لي منها حلقات، بل كثيراً من الحلقات، ولكنه رواها هذه المرة من الداخل، كما لو أنه يعيش هذا الجحيم من الداخل ثانية، وذلك من خلال الروائح، واللمس، وأشياء الحياة اليومية. ولا أدري كيف أعبر: بعبوره الزمن.

لقد ألقي القبض عليه بطريقة صارت معتادة في بوينس آيرس لذلك العصر: اقتربت سيارة فورد فلاكون من الرصيف، أمسكه من كتفيه رجلان يرتديان نظارتين سوداوين، عصبا عينيه، وأمراه أن لا يلامس مقابض الأبواب التي كانت مكهربة. ومن تحت العصابة التي تعصب عينيه، اعتقد أنه عرف شارعاً قرب مقبرة ريكوليتا. قال لنفسه في هذه اللحظة: «إن الحافلة التي تأخذني إلى المدرسة تمر من هنا. ولو أن هذا حصل في ذلك الوقت، لاستطعت أن أرى من مقعدي كيف اقتادوني، لأنني كنت أنظر دائماً من هذه الجهة بالذات».

عند الوصول أمام بوابة غير مرئية، رفع أحد الرجلين سماعة جهاز الاتصال في السيارة وقال ما يجب أن يكون الشفرة لكي يُفتح له: «إيرانيوم». ولقد كانت هذه هي الكلمة الأولى لألفاظ جديدة كان على أليجاندرو أن يتعلمها أثناء أسره. وكان الأمر كما لو أنه يُرغم على محو حياته والابتداء بمدرسة وحشية حيث ثمة يدان شبحيتان تكتبان فوق السبورة مصطلحات قبورية بأحرف منسوخة بعناية: الكتلة الجراحية، الآلة، السفود، سلة البيض، حفرة الأسود، الحافلة الكبيرة، قبعة المطر، الحواجز، العش، الأنبوب، القمرة، السرقات، غذاء السمك، حوض الأسماك. سجل هذا يا تيراديلوس، لأن كل هذا تاريخي وحقيقي. وإني لأرويه لك كما رواه لي، غير أني أوفر عليك المنعطفات فقط. هذه هي الحقيقة من غير تدليس.

قضى الأيام الأولى جالساً على الأرض من غير أن يستطيع إسناد ظهره، مرغماً على عدم الحركة، متصلباً مثل مصارع الثيران قبل أن يقوم بالمسحة الفيرونيكية، معصوب العينين. تعلم النظر من تحت، وصار يعرف صوت الحراس، ويحزر حضور أناس آخرين. ولقد اعتقد بأن الزنزانة كبيرة وبأنه لم يكن المقيم الوحيد فيها. وكان يسمع الباب يفتح ويغلق على فترات منتظمة، ويحس أن أحداً يضع بين يديه طبقاً من الحساء وكوباً من الماء.

دخل رجلان إلى الزنزانة في نهاية أيام ثلاثة أو أربعة ونزعا العصابة عن عينيه. قاداه والنور يخطف بصره إلى غرفة حسنة الترتيب ذات مظهر مكتبي. تركاه جالساً بالقرب من طاولة، ومن غير أن يقولا كلمة، ذهبا فجلسا في الطرف الآخر، وتحت صورة

للجنرال سامارتا. وانقضت ساعتان أو ثلاث ساعات في الصمت المطبق. ثم نهضا، توجها إلى الباب وأدخلا رجلين أو ثلاثة رجال، متطابقين تقريباً، وذلك لكي يحلّوا محل الأولين. وتكرر اللعب، من غير كلام ولا تغيرات، واستطال أسبوعاً تقريباً. كان أليجاندرو ينام أحياناً، ومسترخياً فوق الطاولة أو مقلوب الرأس إلى الخلف فوق مسند الكرسي. وحينئذ نهض أحد الرجال من مقعده ولطمه. وكانت ثمة امرأة مرتدية سترة، تحمل إليه كل عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة ما يأكله ويشربه. وكان أليجاندرو يأكل ويشرب، ثم يحاول أن ينام وعيناه مفتوحتان. ولا أحد ينبس ببنت شفة.

إننا نعرف هذا اللعب الذي يقضي بدعم تسمية التهديد، وبترك العناية للخيال كي يبني جحيمه الخاص، ولجعل الخوف مما يمكن أن يحصل يعطي وجهاً وبراثن لتجسيد سري دائماً. إنه وعد من غير قول بماذا. إنه إسدال الستار وعدم إدخال أحد إلى المشهد. وهو جعل المرء يسمع صرير الباب، وفرقعة الحزام، وقشط آلة حديدية في الظلام. أنت تتخيل هذا، أليس كذلك.

إننا نعرف هذا جيداً يا تيراديلوس. وأن نكتب، فهذه طريقة للاحتفاظ بالصمت، ولعدم الكلام، ولمنع الكلمات من الإقلاع، وذلك كما يقول فايجو، وبتجذيرها في الصفحة. وأن نكتب، فهذه طريقة للتلفظ بتهديد من غير صوغه بصوت مرتفع، وذلك بكيفية يعذبنا فيها ظل الحروف بين السطور. أنا عظيمة العشق لأدب أمريكا اللاتينية، هل سمح لي بإنتاج قارئة؟ إن مدوّني أمريكا الجنوبية، منذ البداية، وتحت غطاء وصف الفضاءات

الكبرى ورواية الملاحم العظمى، فإنهم لم يقترحوا غير بعض المفاتيح، وتركوا بعض الآثار. لقد بنوا دراما هائلة، وهذا حقيقي، ورواية ضخمة بعد أخرى، ولكن في نهاية المطاف فإن الحجة الرئيسة تختصر ببعض الكلمات المختبئة تحت ركام من الفقرات الطائشة التي نقرأها بجهد، شاردين بصفحات كثيرة. وتكون هذه مختبئة في بعض الأحيان في حوار، وفي علامة، كما تكون مختبئة في أحيان أخرى في العنوان. وأمام ما تبقى فهو زيادة إذا لم يخف الدائم. وكما كان يفكر الباحثون الأنجلو-ساكسون، فإن هذا بلا شك هو أدب العنف، ولكنه أقل سياسة مما هو ميتافيزيقا، وأقل شهوانية مما هو ثقافي. وليس المقصود هو العنف البدهي بمقدار ما هو الآخر، المتعمد، والمخاتل. إنه الشراسة خلف اللكمة، والهجوم تحت الشتيمة، والقناع تحت قناع آخر، إنه ذلك الذي يعرفه الجميع. صدقني، إنه الكذب: هذا هو الموضوع العظيم للآداب، هناك.

قال لي أليجاندرو، عندما بدأوا بضربه، إن الألم الذي أحس به كان راحة له تقريباً. فساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، كان لديه وقت الفراغ كله لكي يتصور التعذيب الأكثر فظاعة، والكرب الذي لا يحتمل. الفولاذ، والنار، والماء، ونقص الهواء، راجع كل شيء قبل أن يحس ثانية أنه داخل جلده. هو الذي لا يتحمل أن يُدهس يسروع، أو أن تؤذى قطة، كان عليه أن يتخيل كل شيء. ثم إن هذا الذي تخيله بدأ يحدث، ولكن بصورة مختلفة.

إن جلد أحد الرجال ممن كان يعود ليراه غالباً، تبعاً لأليجاندرو، كان ناعماً كما لو أنه جلد امرأة. وفي كل مرة كان

يأتي فيها (لم يدخل إلى الزنزانة قط من غير أن يكون أليجاندرو معصوب العينين)، كان يأخذ يده مثل جيتانية تسحب ورق لعبة التاروت. وبعد ذلك عندما يقاد، السلاسل في القدمين، والوثاق في اليدين، إلى الغرفة الصغيرة حيث يوجد أحد الجراحين (هكذا كانوا يسمون) يبدأ عمله. وكان الانطباع لدى أليجاندرو أن الرجل صاحب الجلد الناعم كان دائماً إلى جانبه ينظر إليه، ثابتاً لا يتحرك، وحزيناً أيضاً. كان أليجاندرو يتخيله كما لو أنه لعبة من لعب لوريدانا المتحركة التي لا تستطيع، وهي معلقة على قضيبها، إلا أن تدرو يمنة ويسرة ويمنة مطلقة ذراعيها في الهواء، متصلبة، العينان من زجاج ثابت، ووجنتاها اللامعتان تعكسان ضوء الشموع. ولقد أعطى في جدول كائناته الممسوخة لهذه الشخصية الاستيهامية اسم بانتان. ولقد روى لي أنه كان يراقبه كثيراً إلى درجة أنه بعد عدة أيام من وصوله إلى مدريد، كان يبدو له أنه يسمع صوته في مقهى، وفي مخزن، وحتى عند مارتان فييرو. ويبدو أن كثيراً من الناس كان لديهم هلوسات من هذا النوع أشهراً بعد خروجهم من الجحيم.

أليجاندرو لم يعرف ما الذي سألوه، ولا ماذا أجابهم أثناء كل الوقت الذي أمضاه في زنزانته الأولى. كان يتذكر اللكمات على نحو غامض، والوجوه الصلدة، والبزاق، ويتذكر رجالاً ونساء من الجهة الأخرى للجدار الحاجز، وألم الجراح التي لا يراها، والنوم الخفيف من غير كوابيس، أو تقريباً، والضوء الصغير المضيء دائماً، والحنين إلى الظلام، والعطش. ولقد فهم في وقت من الأوقات أن غراسييلا قد ماتت، ثم قيل له فيما بعد إن الأمر ليس

كذلك، وإنها وقعت في غرام واحد من هؤلاء الجراحين، كما قيل له إنها تُعذَّب في سجن بعيد. ولا أعلم إذا كان قد عرف الحقيقة في يوم من الأيام.

كان لديه انطباع بأنه ينفك بنفسه من نفسه، وبأنه يزدوج، كما لو أن أحداً آخر كان هنا، متمدداً أو قاعداً، منتظراً شيئاً ما أو لا شيء. وكان يقول إنه خلال هذه الأشهر التي لا تنتهي صار لديه انطباع بأنه يحيا على هامش الزمن الواقعي، وهو انطباع لم يغادره فيما بعد أبداً. وعندما عرفته، كان يستيقظ قائلاً في بعض الأحيان إنه رأى نفسه ميتاً إلى جانبي.

ذات يوم، ومن غير أي تفسير، نُقل إلى زنزانة لا يوجد فيها سوى مرقدين. وكان في الزاوية مركن للمرحاض من غير إطار أو مغسلة. وقد أرعبه رفاه هذه المنشأة. وتذكّر أليجاندرو أنه منذ زمن طويل لم يحس الماء يجري فوق جلده. وتُرك وحده، ولكنه انتظر طويلاً قبل أن يتجرأ فيتقدم إلى المغسلة ويفتح الصنبور. لقد جعله الماء البارد يبكي من السعادة.

يقال إن البرد الكثيف يبطئ إيقاع جسمنا، وإن القلب يخفق ببطء أكبر، وإن الدم يجري بهدوء أكثر. ولقد أصبحت عبارات أليجاندرو خلال هذه الأسابيع أقل دقة، وتباطأ إدراكه للأشياء. وقد احتاج إلى ساعات لكي يتبين أن ثمة شخصاً يوجد فوق المرقد الثاني. إنه فقط عندما سمع صوتاً غليظاً يسأله كيف يسمى، قد لاحظ حضور شخص من لحم وعظم. وهو من لحم أكثر مما هو من عظم، على كل حال: الغوريه، كما كان أليجاندرو يسمّيه (لم يقل لي أبداً ما هو اسمه الحقيقي)، رجل

قصير القامة، أو هو رجل بذراعين وساقين بالغتَي القصر. وهو على الرغم من جذعه الهائل وبطنه الكبير، فقد كان يعطي انطباعاً بأنه قزم. إن له أنفاً على شكل مثلث، وذقناً محلوقة دائماً على نحو سيئ. وإن جاذبيته الوحيدة (إذا كنا نستطيع أن نتكلم عن الجاذبية عند شخص شنيع) هي صوته. لقد كان الغوريه ثرثاراً. أما أليجاندرو، فهو على العكس من ذلك. لقد كان يظن أنه نسي كيف يتكلم.

اكتشف أليجاندرو، بعد وقت قليل، أن الغوريه يقيم علاقات غريبة مع السلطات. لقد كان سجيناً، بكل تأكيد، ولكنه يتمتع بمميزات، كما يقال في المثل. فبعد إزالة الصدأ الأولى والرائعة التي نالها عند وصوله (والتي رواها لأليجاندرو من غير أن يوفر عليه التفاصيل)، لم يلمس أحد شعرة فيه، واهبين إياه مميزات صغيرة لا حصر لها. فقد كانوا يحملون له في بعض الأحيان مجلات وكتباً صغيرة يتقاسمها بنعومة مع أليجاندرو، كما كانوا يحملون له في مرات أخرى وجبات خاصة يلتهمها وحده. وكان يسمح له بامتلاك ورق وقلم. وكان الغوريه يمضي ساعات في تسويد أوراق بكتابة منضبطة النسخ، قريبة جداً من كتابة أليجاندرو. وكانت له زوجة طويلة جداً بمقدار ما هي صغيرة، وضعيفة جداً بمقدار ما هي سمينة. كانت تسمّى البيكاس، وكان الغوريه يعبدها بحماسة إنسان مغرم. وكانوا يخرجون الغوريه من زنزانته باضطراد لكي يقودوه إلى غرفة أخرى حيث يستقبل البيكاس ويمضي معها الليل.

لم تكن البيكاس في هذا العالم الغريب سوى مخلوق عجيب

إضافي. إنها مخروطة في تنورة ضيقة وقصيرة، تبرز موخرة صغيرة ولطيفة تطفر فوق ساقيها الطويلتين. وكان شعرها ملفوفاً كأنه زوبعة، وتعتمر دائماً قبعة غريبة. وأما شفتاها، فمصبوغتان بأحمر شيوعي. وصلت البيكاس مساء مع صرة صغيرة من السكاكر، وكأنها تزور مريضاً يتعافى. أما أليجاندرو، فإن الزيارات الوحيدة التي كان له الحق فيها، فقد كانت زيارة امرأة ذات عمر ناضج وفي لباس ممرضة تأتي لكي تقيس نبضه، وكذلك زيارة قسيس شاب، سوداوي، يحدثه عن الراعي الصالح. وتظهر له هذه الشخصيات بشكل مشوش بعد الجلسات الأكثر ثقلاً. ولقد كانت تجول به عبر ممرات مزينة بملصقات مثل: «شارع السعادة» أو «الصمت هو الصحة»، ثم تتركه مقيد اليدين والقدمين فوق سريره. وبالمقارنة معهم، فإن القزم البدين والمرأة الضخمة كانا يبدوان غير واقعيين، أو أكثر واقعية من المخلوقات الأخرى لهذا العالم الذي يرفض أن يعتقد به.

بعد انتقاله إلى زنزانة غوريه، انخفض عدد الجلسات مع الجراحين تدريجياً إلى أن اختفى تماماً. ولم يدر أليجاندرو أبداً لماذا. يسوس هذه الأمكنة منطق شيطاني له صيغه وله هندسته الخاصة. وقد صارت الأيام والليالي، من الآن فصاعداً، ذات فترات طويلة من الانتظار العبثي حيث لا يعرف إذا كان عليه أن يخاف الغد أو أن يتعجل مجيئه. وكان الغوريه أثناء هذا الوقت يظهر له العطف والتواطؤ.. وكان يحدثه عن عطر هافانا السكري وعن لون شاطئ الكراييب الأصفر، وعن أمسيات القراءة الطويلة لروائي ما من المشهورين، وعن الليالي التي لا تنتهي من العيد

فوق الشاطئ الذي لا يزال حارّاً. كان يلخص له كتباً (لأن الغوريه كان، كما يبدو، قارئاً كبيراً)، ويحدثه عن كتّاب كان قد عرفهم في شبابه، وينسج له حكايات يحولها ويغنيها بالتفاصيل يوماً بعد يوم. وقلما كان يتكلم عن وضعه الحالي. وكان الغوريه يقول له: «فلنخترع العالم يا أخي، لأن العالم غير موجود». ويضيف بعد لحظة ضاحكاً: «أو على الأقل ما كان يجب أن يوجد».

ذات مساء، عاد الغوريه إلى الزنزانة بعد جلسة «معلوماتية» قصيرة، وقال لأليجاندرو إن البيكاس لن تعود بعد الآن. وروى له أن الجراحين بعد أن أعادوا النظر في عدد كبير من الأرقام ومن التواريخ التي كان الغوريه يقول إنه لا يتذكرها، قد عصبوا عينيه ووضعوا كيساً على رأسه. سمع الباب يفتح وصوت بانتان يقول هل إن صبرهم وصل إلى حدوده ومميزاته أيضاً. ويجب أن لا يظن أنه سيرى عودة زوجته مرة ثانية، لا هذه الليلة ولا غيرها إلى الأبد. ثم روى له أيضاً ماذا حدث للبيكاس. والغوريه يرفض أن يصدق ما حدث. وكان يستعد للانتظار. وقد مرت هذه الليلة، ثم ليلة أخرى. ولم يعد أليجاندرو يجرؤ أن يكلمه. أما الغوريه، فلم يعد يأكل، كما لم يعد ينام. ثبت عينيه على باب الزنزانة كما لو أن أقل لحظة من الشرود تحمل خطراً يجعله يفوت ظهوراً عابراً.

وبعد وقت، نجح واحد من السجناء فهمس في أذن الغوريه أنه أثناء تبادل للنيران بالقرب من البويزارد، ثمة سيارة تحمل عدداً من النساء قد احترقت. وإذ ذاك، عبر الغوريه من الخور إلى الغضب، ومن الغضب إلى الهيجان الحيواني، ضارباً الجدران بقبضته، وصارخاً مثل ذئب. وحتى بعد أن «الّينه» ثلاثة من

الحراس، فقد استمر في صراعه. وأخيراً، ذات يوم، اقتادوه.

وعاود الجراحون، في الوقت نفسه جلساتهم مع أليجاندرو. وذات يوم، بعد جلسة ضارية على نحو خاص تركت له رنيناً لا ينتهي في أذنيه المتعبتين منذ المظاهرة في بوينس آيرس (قال لي في يوم من الأيام: يشبه هذا كما لو أني كنت في مدينة يقرع فيها ألف جرس)، كان أليجاندرو جالساً على سريره، مقيد القدمين، معصوب العينين، عندما سمع صوت بانتان. قال له: «لقد جئت كي ألقي عليك تحية الوداع. ربما سنلتقي. هذا إذا لم نمت، أنت وأنا».

لقد عاش أليجاندرو في البويزارد سبعة أو ثمانية أشهر كما يتذكر. وفجأة توقف كل هذا كما بدأ على نحو مدوخ. فبعد أسبوع من مغادرة الغوريه، دخل الزنزانة مجهولون وأمروا أليجاندرو بالخروج. عصبوا عينيه أيضاً، وقيدوا قدميه ويديه، واقتادوه عبر الممرات الخالدة، وجعلوه يتجاوز الأبواب الجهنمية، ودفعوا به إلى داخل سيارة. وشرح لي قائلاً: «كان الأمر كما لو أنهم عرضوا الفيلم بالعكس. فقد كان لدي انطباع بأن كل شيء عاد ليبدأ من جديد».

توقفت السيارة بعد مضي ساعة. رفعوا عنه السلاسل، والحبال، والعصابة. وضعوا حقيبة بين يديه، وطلبوا منه أن ينزل. كان عدد من الطائرات يشق السماء فوق رأسه. هبط أليجاندرو في اليوم الثاني في مطار باراجاس. من اعتقد هذا! إننا نعرف الآن أنه عندما لامس الأرض الإسبانية للمرة الأولى، اتجه بعناد نحو شرفة القدر.

إنك تطرح عليّ أسئلة يا صغيري تيراديلوس. لا تنس أنه قد مر على هذا ثلاثون سنة. فالبعد بين الخامسة والعشرين التي كنتها في ذلك الوقت ونصف القرن الذي أجرجره اليوم لا حدود له. فأنا أخلط في التسلسل، أنت تعلم، وهذا يشبه لعبة ورق لم يخلط جيداً. وأنا لم يعد بمقدوري أن أقول لك متى عرفت موت أليجاندرو. هل هي كيتا التي قالت لي ذلك في هذا اليوم أو، عندما رأتني أدخل إلى مارتان فييرو، طردتني بداية صارخة ومكررة مثل مجنونة: «لقد مات، لقد مات»؟ أو ربما ثمة شخص أعلن لي من قبل، قد يكون بيرانس، أنه يوجد ميتان، فتيتو غوروستيزا قد قبضت حياته أيضاً. أو لعل المفتش ماندرييتا يكون قد جاء يراني لكي يصرعني بأسئلة إلى درجة أنني في النهاية لم أعد أعرف ما نرويه، لا هو ولا أنا. ولم أعرف أن أفصل بين ما تخيلته وما قيل لي، بين الحكايا التي رويت لي وتلك التي صنعتها أنا نفسي لكي أهدئ قليلاً من روعي.

بعد ذلك، اتخذت لنفسي مسافة. فالعالم قد تغير. وكيتا دعتني طوال مرضها، المسكينة، ولكننا لم نتكلم عن الأحداث. وربما كان بيرانس هو أفضل من خرج منها. فقد انعزل إلى الأبد في الزهيمار الذي ألمّ به. إننا نعتاد، من غير شك، على كل شيء، بما في ذلك على النسيان.

ثمة صورة من ذلك الزمن تعودني أحياناً، وإنه ليبدو لي أني أراني في مرآة في الزمن الذي كان أليجاندرو يحبني فيه. انظر ماذا أصبحت، ولكن هذا الجسد كان في ذلك الزمن مشدوداً، وان هذا الرأس أكثر حذقاً وأكثر رشاقة مما هو عليه من الآن فصاعداً.

فالعمر يرغي حواسنا، ويغشها، على الرغم مما يقوله العلماء. فما أن نتجاوز الخمسين حتى نصبح بحاجة إلى كانون من النار. هذا ما كان أبي يقوله، وهذا ما أؤكده.

بالنسبة إليك يا تيراديلوس، كما بالنسبة إلى قرائك، فإن حكاية أليجاندرو لم تعد مفاجئة. فالوقائع رتبت على ذوق الكاتب بالعدل، والقديس رئيس الملائكة وضع ختمه على الملف ورصفه. «مديح الكذب» مفقود منذ سنوات.، اللهم إلا إذا دفع به الذهب في مكتبات الكتب القديمة. وثمة ناشر صغير من هنا، قد أراد إعادة طبعه، ولكن لم يكن ممكناً الوصول إلى اتفاق مع الورثة الغامضين الذين رفضوا أن يعرفوا أي شيء عن المشروع. لحسن الحظ. وكل هذا النزاع كان مثل كذبة لا نرغب أن نعيشها لمرة جديدة.

ما زلت أقرأ أدب بلاد أليجاندرو. وما زلت أبحث عن أثره في الكتب التي تصلنا من هناك. وما زلت أعتقد أنه في يوم من الأيام، سأحظى بالبرهان بأن حدسي كان عادلاً، وأن تحت الشخصية التي عرفها الآخرون، يختبئ روائي، وشاعر.

أعلم تماماً أن الحب هو اليقين الأبله الذي يخلق خيالنا معه شبحاً محتمل الوجود. أو، إنه يخلق شبحاً يمتلك الشخص الذي يقف أمامنا لحماً وعظماً، ويسكنه من الداخل، ويحرضنا كي ننظر إليه من خلال عينيه، محركين يديه بالطريقة التي تعجبنا. ويضاف إلى هذا اليقين بأن هذا الكائن الذي هو في النهاية الكائن المحبوب، هو شخص آخر، أرجو أن لا ننساه أبداً، وأن نكون أوفياء له دائماً، وأن يكون على الدوام محور حلقتنا وقلبها،

وحياتنا، وكل ما يخصنا، مهما كان مصاباً بعدم الواقعية والحلم.

سأروي لك شيئاً، ولكن احتفظ به لنفسك، لأنه يمثل حماقة أخجل قليلاً أن أعترف بها. فمنذ بعض الوقت، رأيت في الواجهة الزجاجية لمكتبة مجموعة شعرية لمؤلفها «أ. بيفيلاكا». دخلت واشتريتها، ثم هرعت إلى مقهى لكي أقرأها. كان عنوانها شيئاً مثل «ضد التيار» أو «ضد-فليكس». كانت المجموعة أبياتاً خفيفة، في الحب، ومحشوة بعلامات التعجب وبالحروف الكبيرة. طفت المجموعة بقلق، بحثاً عن لا أدري ماذا، متمنية أن أسمع صوت أليجاندرو الخشن، ومشتمّة يديه فوق رقبتي، ورائحة تبغه في منخري. اعتقدت أني عرفت إيقاع جمله، وطريقته المتزنة في تصور الأشياء. ولقد فاجئتني منقوشة كتابية لكاتب كنت أجهل إعجابه به. وما إن وصلت إلى القصيدة الأخيرة حتى عدت إلى البداية. وبحثت عن التاريخ في العمود الصوتي: لقد طبع الكتاب في مونتيفيديو في نهاية التسعينيات، ولكن تاريخ الظهور الأصلي هو عام ١٩٦١: كان عمر أليجاندرو حينئذ أكبر بقليل من العشرين. وقرأت الكتاب للمرة الثالثة، ومجدداً وصلت إلى نهاية المطبوعة. ولاحظت حينئذ ما لم أشأ أن أراه من قبل: إن كنية الكاتب هي بيفيلاكا بكل تأكيد، ولكن اسمه كان أندريس وليس أليجاندرو، إنه أندريس بيفيلاكا غير المعروف، إنه منتسب مجهول لكنية كاتبي، ورسول مزيف، شبح مزيف، مع صوته المزيف وحضوره المزيف. وأحسست بخطئي كما لو أنه قلة استقامة لا تغتفر، وشتيمة لذكراه. أنا، التي أحببته كثيراً، قد خنته. تركت الكتاب فوق الطاولة وعدت إلى بيتي، مضطربة.

قرأت في مكان ما أن الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله لكي نناهض عدم واقعية العالم، هو أن نروي تاريخنا الخاص. أنا، لا أريد، ولم أرد فعل ذلك. لقد فضلت أن أحتفظ به كاملاً، هو، ما عرفت أو ما اعتقدت أني أعرف عنه. فأن تكون الحقيقة مختلفة، فهذا لا يهمني. أنت يا تيراديلوس، اكتب ما تشاء، وإن الزمن هو الذي سيفصل.

لقد كان أليجاندرو هو كما أحسسته أو تصورته خلال كل الوقت الذي كنا فيه معاً. وإذا كنت أستمر في البحث عن براهين لاعتقادي، فأنا أفعل هذا بحكم العادة وليس بسبب الحاجة، هل تفهم؟ كان أبي يقول: عندما تمضي سنوات في الحلبة، وعندما لا يبقى شيء من حولك، لا حيوان، ولا مشاهدون، ولا ساحة، فإنك تتابع مصارعة الثيران في الحلم.

هكذا هي الحال. يجب عدم الشك، هكذا هو الأمر، يا عزيزي تيراديلوس.

III
الجنـية الزرقاء

قالت له الجنية: كن شريفاً وطيباً
تكن سعيداً.

كارلو كولودي
مغامرة بينوشيو

م. جان - لوك تيراديلوس
L'Actualite Pottou-Charentes
بواتييه - فرنسا

الأول من كانون الثاني

المفتش العزيز واللجوج،

إني أحذر من الرسائل بما هي جنس أدبي. وأحذر أكثر من أي شيء آخر من ذلك الذي يزعم أنه يروي الحقيقة بإخفاء مؤلف محير (هذه صفة كانت تستعملها جدتي الكاماغية لكي تصف أثوابها المزورة الأناقة، والرديئة التفصيل والسيئة الخياطة، والتي أقسمت لنفسي أن أضعها في هذه الفقرة الأولى)، في حين أنه يسمح في مكان آخر لراوٍ وحيد للأحداث أن يملي ما تشتمل عليه

الحكاية. ولكن في الظروف الحالية، فإن فن التراسل هو الوحيد الذي بقي لي. لقد استنفدت مصادري: لا يقبل أدبي الجنس الملحمي، والجنس الغنائي، ولأنه دعي، فقد كنت أدافع عنه بوحي مني. ولذا، فإني أكتفي إذن بهذه الرسالة. وبهذا، فإني متأكد على الأقل أن أي نجس من الناشرين لن يأتي كي يحشر أنفه.

لقد عرفت بيفيلاكا في السجن، بالطبع، ولكن هذا كما تعرف. وكنت أحب أن أتكلم معه، وأن أروي له مكتبتي، وأن أجعل طبلة أذنه المتعبة ترن بإبداعاتي الأدبية. ومهما كان البعد الذي أتذكر منه، فإن شفتي تتحركان وحدهما. فإذا كنت أمام ملامس الحاسوب، فإني أنقر، وأما إذا كنت أمام صفحة بيضاء، فإني أملأها. وعندما تنقصني الأدوات، فإني أستعمل اللسان. وفي الليل، وفي مواجهة العقبات التي تمنعني بلوغ النوم، فإني أخترع حكايات تنمحي من نفسها كلما تقدمت في الظلام. ولقد كان بيفيلاكا رائعاً من أجل هذا: كان يقاوم الاضمحلال.

لقد ألهمني الثقة به مباشرة. وعلمت بأني أستطيع أن أركن إليه كما نركن في الجيش غريزياً إلى الرقيب الأقل سفهاً، وإلى السلاح الأكثر ألفة. فالنجاح هو عدو الإبداع. وبالنسبة إلى شخص مثلي، مفاتنه غير مرئية، يجب عدم الانتظار من أحد أن يبدو متباهياً جمالياً. الصدق، نعم، هذا شيء آخر، وإننا لنتلقاه. وكذلك الشرف، إنه مصبوغ بالوداعة دائماً.

لم يكن حسوداً، لا. فهؤلاء الناس المعجونون بالحسد الأدبي، والذين يتمنون أن تكون كل الكتب فاشلة باستثناء كتبهم،

وأن تجمع فتات التعويضات، ليسوا من الجنس الذي ينتمي إليه بيفيلاكا. إنه شخص انفعاله متوقع. ويفترض الحسد انتشار التواضع والحياء، وهذا يعرف من لون الشفتين ومن ثنيتهما. أما بيفيلاكا، فقد كان عذب البسمة، وكان جلده رمادياً لا يتغير. ويجب القول إنه كان مزوداً بجبلة قوية لم يغيرها لون السجن. وكما يقول الكتاب الجيد، عندما كنت عند أبي، إنني في حال أفضل.

عجيب، كم تستعد الأمكنة الأكثر عادية للقاءات ثقيلة بنتائجها. ثقيلة بالنسبة إليه، في النتيجة، وليس بالنسبة إليّ. فالكائنات الإنسانية تنقسم إلى فئتين: فئة تأخذها الآلهة مازحة خلال غابة غريبة لكي تدعها بعد ذلك على شفا جرف في ليلة غير مقمرة، وفئة تتقدم وحدها فوق مسارات جيدة الوضوح. أنا لم أضل الطريق أبداً. وسواء كنت أسود صحيفتي أو كنت أملأ محفظتي بالوصول، فقد تصرفت دائماً بنظام، وعرفت دائماً ما أفعل. لم أفكر بوجوب اجتماع كوكبي معين، أو رياح مناسبة لكي يتحقق قدرنا. يجب فقط وجود قارب متين وشخص لكي يجدف. وهذا هو ما يعتد به: صعلوك مسكين مطيع. ولقد أدى بيفيلاكا هذا الدور بالنسبة إليّ، ومن غير أن أكون على وعي به حينئذ.

وأعتقد، بمعنى من المعاني، أن جسدي هو الذي حدد قدري. أما لقبي فلم يكن كذلك. لقد استسلمت له، ولكن لقبي هو اسمي الحقيقي. وإن اسمي من الولادة هو الخطأ. ولا يوجد شخص، بالهيئة التي أنا فيها، يستطيع أن يسمى مارسيلينو أو

ليفاريس. لا يوجد شخص. فعندما كنت صغيراً، وقارئاً وفياً لـ «مغامرات بينوشيو»، فقد علمت بأني رسم كاريكاتوري لنفسي. وأما بطلي المعاكس، فهو طفل تحوّل إلى قطعة خشبية قديمة. ولم يكن في هذا سوى المضايقات: لم يكن بالإمكان السخرية مني، لأنني كنت مزحة حية. ولا يمكن أن نحاكي بسخرية محاكاة ساخرة. ذراعان وساقان قصيرتان، مبنى مثل برميل، وأكثر ملاءمة لكي ألهم القرف وليس الرغبة. ها هو أنا. وخصوصاً وجهي، فهو يشبه الوجوه التي كان يضعها نحاتو الكنائس على دعامات جدرانهم لكي يبدعوا الشيطان. لا أقول إني أردت أن أمتلك وجهاً ناعماً، ورهيفاً، وملائكياً مثل هذه المنحوتات الغبية التي تزين بغبطة الأعمدة الداخلية. أو أردت -والحال كذلك- تركيباً من الاثنين: هيئة جادة ولكنها أفضل من القبح بقليل. ولا أهمية لهذا لأن الأقوال «لو أن» لا تقود إلى شيء. مهما يكن، فإني جعلت كما كنت، وقد عرضت عليّ مهنتان فقط: السلاح أو الأدب. لقد تزوجت المهنتين.

وتحت العين القاسية للجنرال باتيستا التي كانت تزين كل مكتب، انخرطت في الجيش وأنا في عمر العشرين. والرقيب الذي أخذ معلوماتي أراد أن يعرف إذا كنت أفضل أن أسمى الغوريه (القذر، الوسخ، المقشة «متر») أو الضفدع. ولا أدري لماذا اخترت الاسم الأول، ربما كان ذلك لأن العرق الخنزيري مشترك في عالم الروائح والضفدعيات مع عالم اللمس.

وبالإضافة إلى اللوحة التي جئت على رسمها، يجب أن أضيف فعلاً سمة إضافية لا تعجب: إنها رائحتي. فذات يوم، في

سن المراهقة، استيقظت في نتانة فظيعة. وعبثاً بحثت عن المصدر، وانتهيت إلى سؤال أمي ما الذي يفوح برائحة سيئة جداً. وهكذا علمت أن هذه الرائحة لا توجد بالنسبة إلى الآخرين، ولكنها موجودة فقط بالنسبة إليّ، أنا الملموس بالفضل الإلهي. تنتج بعض الأجزاء من هيكلي الكيميائي في ذهني بأن ثمة شيئاً منتناً باستمرار، كما تنتج هلوسة شمية، وشبحاً كريه الرائحة لا وجود له بالنسبة إلى الآخرين. وسأسير مع هذا. يقال إن الإمبراطور جيرما نيكوس كان يعاني من السقم نفسه. أما ما يخصني، فأنا لما كنت معتاداً على حضوره (أكثر من سبعين سنة من الأطباء والشافين لم يستطيعوا أن يصلوا معه إلى نهاية)، فقد سميته: ريبان، مثل أبي. ويقيم ريبان في منخري ليلاً ونهاراً. ولذا، لم أكن قط وحيداً.

هل تعتقد بالتناسخ؟ أنا، نعم. أعتقد أن هذا اللحم، وهذا الدماغ، وهذه الأصابع المقطوعة ستسقط غباراً، ولكن خيال هذا اللحم، وهذا الدماغ، وهذه الأصابع سيعاد توليفها تحت شكل آخر لا يزال غير معروف لدي. شكل نملة مثلاً، وهذا ما يبرر وجود أنفي الطاغي. أو شكل عنكبوت سمين بسيقان طويلة، وحجم صغير، صنع أشكالاً بريقه، كما أفعل أنا ذلك بكتاباتي. أو، لم لا، شجرة قزمة كبيرة تمد جذوراً في الغائط، مثل هذا هذه الخلاصات المضاعفة هي التي تشوش وتتلوى في أرضي الأم. وهذا ما يشكل تدويراً جيداً بالنسبة إلى ريبان، الساكن في المستنقعات.

ماذا كان يفكر جدي بحفيده المقزز! وصل إلياد كامي أوليفار

إلى كوبا في القرن التاسع عشر ساحباً أخاه، الأصغر، ميغيل. خاضعين لتماثل مضحك، تزوج إلياد وميغيل مارتينا وسوكورو، أختين من كاما غوي تميلان إلى السود أكثر من السكان المحليين. وقد أنجبتا لهما أطفالاً ولدوا بتسعة أشهر بانتظام توقيع موسيقي. وصل أبي إلى مكان وسط في ذرية زرعها جدي على طول الجزيرة.

لقد حدد أبي ذريته بولد واحد، وربما كان ذلك بروح التناقض أكثر مما هو بسبب التقزز الذي كان يحسه حين يراني. إنه لا يحتملني في قلبه. وهذا ما يعين بلا ريب إمساكه الإنتاجي. وإن ضربات القدم والضربات المتصلة التي تختصر علاقاتنا، تؤكد، بمعنى ما، نظريتي، كانت أمي ترجوه أن لا يقتلني، وكان أبي يطيع، ويتوقف على العتبة التي تفرق الجسد الحاضر عن الروح الغائبة. أما أمي، فهي على العكس من ذلك، إنها تحبني. ومنذ وصولي إلى ركبها وهي تعدني أن في نهاية بضع سنين، سأكون مثل الأطفال الآخرين، وتحاول، بصبر العصفور الطنان، أن تضع قبلة فوق عنقي شبه المعدوم، وبين عيني غير المتناسقتين، وعلى كتفي الأحدب. وكما هو معلوم، فإن وعدها بأن أصبح طبيعياً لم يتحقق أبداً. ولكن العيش طويلاً على هامش الوجود خدمني بشكل هائل، وذلك عندما أغواني الكسل فيما بعد، وفي اللحظات الصعبة، أن أضع نقطة نهاية لكل هذا. ولقد تعلمت أن لا أدوخ.

انتسبت في سن مبكرة إلى الجيش الكوبي، وذلك في الوقت الذي بدأ فيه هذا الجيش يقاتل متمرّدي السييرا.

ليس شيئاً سيئاً في ذلك الوقت أن يعطي مقدمنا، وهو مقدم مهووس بالأفلام الحربية، مع البذلة العسكرية والسلاح، لكل مجند حبة صغيرة، صفراء وسوداء (ربما يكون ذلك للتأثير فينا)، تحتوي، تبعاً له، على السيانور، وأنه علينا أن نكسرها بأسناننا إذا وقعنا بين يدي العدو. هذه الحبة التي سمّيتها «نحلتي»، رافقتني على مدى السنوات، من عدو إلى آخر.

كانت مهمتنا، عندما لم نكن آخذين في الشرب أو في التلاعب في الثكنة، هي أن نذهب لمراقبة المتمرّدين الذين ينزلون من الجبل لكي يسرقوا الغذاء والذخيرة. وكنا نسمي هذا «اصطياد الضارين». وكنا نراهن من سيكون الأول الذي يقبض على فلاح. ولم نكن نجني الثروات من ذلك. وكنا نحرس الشوارع في الليل، وذلك لكي نتأكد أن جنود البحرية الأمريكان، يمكنهم أن ينهوا تناول حلوياتهم بهدوء في ميامي برادو أو في نيبتين، أو لسرقة ثائر في زاوية الشارع، والذي يجب فكه فيما بعد، فجراً، من عمود ضوء الشارع حيث كان قد شنق. لا شيء يشبه الذعر الهافاني.

ليست لدي موهبة الصياد. وعندما كانوا يرسلوننا في هذه المهمات، كنت أبقى في المؤخرة، بل في الخلف وراء عمود الشبان الجميلين المبتسمين. وذات يوم، نزلنا في كوخ على الشاطئ، حيث قيل لنا إننا سنجد فلاحاً سرق خنزيرين من مزرعة مجاورة. استقبلتنا امرأة سوداء، قصيرة القامة، بحاجبين مقطبين. سألتنا قبل أن نتفوه بكلمة: «ماذا تريدون؟» أجاب الرقيب: «إننا نبحث عن سيفيرو فرياس». «إنه ليس هنا». «وأنت، من أنت؟» «أمه». «سندخل كي نبحث عنه». قذفتنا المرأة بنظرة غاضبة.

«قلت لكم إنه ليس هنا». «سندخل، مع ذلك، لكي نتأكد يا سيدتي». «اخلعوا بساطيركم إذن. لقد نظفت الأرض لتوّي، ولن أسمح لكم أن توسخوها ببساطيركم الملوثة بالطين». أعطانا الرقيب الأمر بخلع بساطيرنا. وعندما بدأنا بالدخول، أوقفتني المرأة. قالت للرقيب «لن يدخل هذا. إنه سيسحر بيتي». انتظرت خارجاً بينما كان رفاقي يفتشون. خرجوا خائبين ولم أقل للرقيب أبداً إني رأيت زوجين من العيون تبرقان تحت الممر، بينما كان الجنود يحتذون بساطيرهم ويستأذنون المرأة بالانصراف. وقبل الذهاب نظرت إلى المرأة مبتسماً. كان حاجباها مقطبين دائماً.

غادرت كوبا قبل تهديدات الدكتور كاسترو بقليل، وذلك على ظهر واحدة من تلك البواخر التي تذهب محملة بالحلزون وتعود محملة بالأبواق وبالكرات الممرغية. فأنا لست بطلاً. ولقد قلت إن موهبتي ذات رأسين هما: السلاح والآداب. ولكنني لست مستعداً أن أموت ولا أن أكتب لكي أحظى بالنشر. فواجبنا في هذه الحياة هو أن ننقذ أنفسنا، لا أن نموت. وبهذا المعنى، فإن الموقف العسكري موقف عادل. (ليس الحقيقي هو موقف المساكين المضحى بهم في الخط الأول مثل هذه الخراف التي يضعها الصيادون في حفرة لكي يجذبوا إليها الأسود في فيلم جوني ويسميلر). وإنه ليتمثل في اختراع عدو، وتخطيط لهجوم، وتحضير الدفاع، ومعرفة الانسحاب. وبمثل هذا، فإني حضرت إلى سفارة كوبا في بوينس آيرس خلال صيف ١٩٥٢.

أجهل إذا كنت تعلم ماذ يعني أن يصبح المرء عاشقاً. إنه دخول في حال ثانية، وفي علم للكونيات يغطي كل شيء. أنا لا

أتكلم عن وهم الحب، هذا الشيء الذي نعتقد أنه يصيبنا ذات يوم أو أنه يصيبنا الآن رغماً عنا. كما لا أتكلم عن نزعة الجاذبية الخارجية، ولا عن التبرير العقلاني للافتتان. ولكني أتحدث عن حال من الأسر المطلق، وعن روح ويدين مقيدتين، وعن حال من التخلي غير المشروط، والمحتوم. عندما نقول لأنفسنا فجأة: لم أعد أنتمي إلي، أنا إليها أنتمي كلية، وأنا أحيا لأنها تحيا، ولا أحيا إلا من أجلها. وإني لأقارن الحب بالترجمة. وعلى الأقل بلغة أخرى، فهو مقروء الآن من خلال لغتها هي والتي يجب أن أفهمها من الآن فصاعداً كما تعلمت ذات يوم حروف أبجديتي. فأنا سأعرف من أكون إذا عرفت من تكون. وهذا هو ما أشير إليه.

كانت ابنة ملحقنا التجاري في السابعة عشرة من عمرها حينئذ. قبل دعوات الغداء، كان السفير يفاجئ مدعويه، غير القادرين على تخيل أهل الكاريبي أنهم يصنعون عرضاً من البروتوكول، مع وجبات منسوخة بعناية فائقة بالفرنسية، ومربيات في أواني من البورسلان الفائضة بالفواكه على نحو فاحش، وسلسلة من الأغطية المفضضة المنشورة بحجم متصاعد من جهة وأخرى للصحن، وخمور خيالية مسكوبة في كؤوس من كريستال الباكارات. كنت ألهو إذ أروي للصغيرة حكايات عن آكلي لحوم البشر الذين يأكل بعضهم بعضاً، وعن المتوحشين الذين كانت رؤوسهم تنموا فوق أكتافهم. لقد أغويت شيطانتي بصوتي.

ستكون متفاجئاً إذا علمت بأنني رجل قليل الميل إلى التغير. فأنا التزم بالمواضعات. وأنا عندما أكتب، أحترم عموماً القواعد التي وضعتها الأكاديمية الملكية، وذلك على قدر متساو مع قواعد

الأكاديمية الكوبية للغة، والتي هي ليست أسوأ من أكاديميات أخرى. وجملي تشتمل على فعل، وخبر للمبتدأ، وضمائري تعرف أن تميز المفعول به من الإضافة. وأحمل ربطة عنق. ولا أعمل يوم الأحد. وتزوجت مارغاريتا ما إن بلغت الثامنة عشرة. فقد كنا نحن الاثنين عذراوين. كانت حماتي دامعة. ولقد سمعتها عدة مرات أثناء حفلة الزواج تهمس: «لم أر قط رجلاً بهذا القبح».

قدمت عائلة زوجتي، من بين أشياء أخرى، مميزات عديدة: بيتاً برجوازياً بالقرب من غابة باليرمو، ووظيفة صغيرة في السفارة (ألغيت في السنة الحاسمة ١٩٥٩)، والصداقة الشكلية لعدد من الكتاب وعدد من شخصيات عالم النشر، وأتاحت لي، خصوصاً، علاقات ودودة مع عدد من العسكريين الأرجنتينيين الذين اكتسبوا بعض الشهرة بعد هرب الجنرال بيرون. ولقد عرفت كيف أستفيد من ذلك. يجب إقامة جسور بين الآداب والسلاح. وإننا لنعلم أن إجراء ثقب في الأولى، يتطلب وقتاً، وأرقاً، وحرماناً، وتجرؤاً، وأوجاعاً في الرأس، وعسر هضم، وبلايا أخرى. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثانية، ويضاف إلى هذا خطر إضاعة الحياة. وبالنسبة إليّ، فإني أقبل أن يكون الأمر كذلك حتى وإن لم أكابده في لحمي، وإليك كيف وضعت تجربتي الأدبية في خدمة الجيش (من غير أن أحسب الساعات النظامية، والليالي البيضاء، إلى آخره). فالعسكر يحتاجون إلى حجج، وكنت أزوّدهم بها.

كات المشكلة بسيطة، مثل معظم مشاكل الإنسان في السلطة. ويوجد، من الجهة الأخرى للقانون (وبقول آخر من جهة أولئك

الذين ليس لهم هذه السلطة أو الذين يطمعون فيها) اقتصاد موازٍ هائل. صفقات، مدفوعات، استيفاء، فوائد، إفلاس، ثروات تُصنع وتنهد في وول ستريت الظل هذه. وعندما تتواجه الجهتان (وهو أمر أقل وقوعاً مما نظن)، فإن قواعد اللعبة تقضي بأن تغير الثروات السرية اليد. وسيثير هذا التحول للسيولة، المظلم والصامت، إذا حدث في واضحة النهار، نتناً أكثر إخافة من ربيبين المسكين الذي عندي: إنه سيحرك الوحل المتراكم خلال عقود، وسيجعل الجثث والحثالات تصعد إلى السطح، والتي لا يوجد أحد يريد أن يتذكرها. ونحتاج في مثل هذه الحالات إلى شارون معتاد على الظلمات لكي يحول المال الشبحي من جانب الأحياء إلى جانب الخالدين، عند السويسريين مثلاً. والعسكر يقبلون بهذا بكل سرية. وليتك رأيتهم لابسين بذلاتهم الخريفية، مادين أيديهم مملوءة بالحب تجاه الضفة الأخرى.

خلال سنوات، ومن حكومة إلى حكومة، عملت حمالاً لدى هؤلاء الوجهاء العالين، ومحولاً من خزانة من البلاتا أو من قرطبة إلى خزائن مجهولة تقريباً لبعض البنوك الأوروبية، مبالغ لا ترى بعين الجمهور، وذلك في مقابل عمولة متواضعة. وقد كنت فعالاً، ودقيقاً، وحذراً. كما كنت متطيراً أيضاً: إن نحلتي الطلسمية، في الشك، لا تغادر جيبي أبداً. ولم أرتكب خطأ قط، ولم أصل أبداً متأخراً، كما لم أفتح فمي قط، ولم أنس شيئاً أبداً. وكنت أملأ وظيفتي بالدقة نفسها التي برهنت عليها لكي أكتب. لا وجود للترادف الحقيقي، لا في الأعمال ولا في الأدب.، ولا شيء يعادل شيئاً آخر.

في بداية العقد الأخير، بدأ ينبوع غير معروف يزيد الدفق المسكوب في قواريري أو بالأحرى في القوارير التي اؤتمنت عليها. وقد لجأ المخربون حالياً (وكذلك من يسمّون زبائني) إلى الخطف وإلى الهجوم المسلح لكي يجنوا الأموال. وكانت هذه غالباً ما تنتهي إلى يدين خفيتين لكولونيل، أو أميرال، أو جنرال. وكانت مهمتي أن أجد قنوات للتصريف. وصرت أكسب من الآن فصاعداً بلباقتي اللفظية. غير أني قررت هذه المرة فقط، أن تتصاعد المكافأة بالتناظر مع تصاعد المخاطر. ولما كنت راغباً أن لا أزعج هؤلاء السادة بلجاجتي، فقد أخذت حقي كما فكرت. وبفضل موهبتي في فن التخيل، فقد نسجت حكاية لكي أتاجر بالأرقام ولقد مضى كل شيء على نحو رائع، ثلاث أو أربع مرات. أما الخامسة فكانت شيئاً آخر. فقد أجرى كولونيل متحمس الحساب. وعند عودتي من جنيف، في المطار، طلب مني واحد من أمن الهجرة أن أتبعه. وقد ضُربت كل الليل لكي أعطي رقم الحساب السري. وفي الفجر، أعطيتهم إياه. ولم يمر في أذهانهم أنه من الممكن وجود حسابين. ولقد أمضيت عدة أسابيع في هذا المكان الذي أفضّل أن أنسى اسمه، غطاء يغطي الرأس، وقيود في القدمين، عار أرضاً، وهواء للقوى الخفية يرن على نحو دائم في الحيطان الأربعة العمياء. وكنت قبل أن أنام، أحشو أذني بالورق لكي أمنع الصراصير من الدخول فيها. ومذ هذا اليوم، اعتراني خوف الأنوار المبهرة، وصرت مضطراً لحمل نظارة سوداء.

أثناء فترة حجزي (إن كلمة التوقيف تذكّرني بالمحطة على

الطريق، وبالانقطاع المتزامن للنشاطات الجارية وليس بالفعل العنيف)، فكرت بأن شخصاً من أمة الملائكة الأدبية سيلاحظ غيابي. ولكن لم يكن ثمة شيء من ذلك. القائمة طويلة لمن يدعون بأصدقائي الذين يشكل اختفائي برهاناً على عدم وجودي. ولقد مضى وقت طويل لم تكن لي فيه صلة مع السفارة حيث استبدلت الحوصلة بالذقن ولوحة باتيستا بأبطال الثورة، من غير أن تنقى الشمبانيا ولا الصدف من أجل ذلك. وقد أصدر ناشري (لأنه كان لدي واحد، هو غاستون آسان هاجال، فضائحي في معتقده، وربوي بالفعل، وأتمنى له الجحيم النخاعي) الأمر بإتلاف كتبي سراً لكي لا يبقى أي أثر من مروري، على الأقل في فهرسه.

إن للخيانة فنانيها. يزعم بوليب، في صفحة من صفحاته العديدة والتي تبقى من عديد صفحاته الضائعة، أنه ليس من السهل أن يعرف المرء من يجب أن يعد خائناً. وإنه ليؤكد، مسبقاً، أنه لا يليق فضح الإنسان الذي يضع نفسه إرادياً في خدمة بعض الملوك أو أوصياء العرش لكي يتعاون معهم. كما لا يليق فضح ذلك الذي، في ظروف حرجة، يحرّض مواطنيه على قطع تحالفات قديمة أو صداقات لكي ينشئ أخرى جديدة. ويبدو أن بوليب يحتفظ بتسمية الخائن الشائنة لهذا الذي يعمل لمصلحته الخاصة: ذلك الذي يشي بصديق لكي ينجو بجلده أو ذلك الذي يسلّم مفاتيح المدينة لكي يشبع طموحات شخصية. ولقد كان خونتي (باستثناء واحد، ولكن سأكلمك عنه فيما بعد) يظهرون أكثر رهافة: إنهم يكتفون بأن لا يفعلوا شيئاً. أنكر هاجال

معرفتي. هذا المهترئ الذي يتعاطى الكوكايين، والذي جعل المثل مثله «لا يوم من دون خط»، تزين بالفضيلة وبالتزمت. تصنع النسيان، معلناً أن صورتي القميئة قد انمسحت من ذكرياته الأدبية وأن ناشراً من طينته ليس به حاجة ولا يمتلك المال لكي يساعد كاتباً فاشلاً مثلي، عندما يحظى هذا الكاتب بإجازة الطبع.

يعلمنا علم اللاهوت بأن الخطايا الأكثر أهمية والأكثر تعقيداً، هي تلك التي تسقط. وأنا نفسي، أنا الذي كنت على الدوام كاتباً متوارياً، وكتوماً مثالياً، إلى درجة الهوس، فقد زودت زملائي بمبررات خياناتهم. وكلهم استطاعوا أن يقولوا إن غيابي ليس سوى نتيجة متوقعة وعادية لحالتي المعروفة جيداً بالغموض والتردد.

وإني لأخشى أن لا نكون كثراً في نسج شباكنا في الظل. فخارج بعض مختارات النصوص التي اقترفها مؤلفون آخرون، وخارج قصة قصيرة، ورواية فاشلة يزينها هاجال بعنوان فاحش وبعض الأوصاف التشريحية المفرطة، فإن كتبي لم تكن منشورة. ولقد استشطت غضباً لأني كنت أرى واجهات المكتبات، شهراً بعد شهر، تمتلئ بجديد مقرف يتروواح بين الادعاء المصطنع والاحتدام التوثيقي. هاجال الذي بحث له بسذاجة بمشاعري، قال لي -والبسمة على شفتيه- إن الاسم الحقيقي لهذا الهيجان هو الغيرة. وبهذا المعنى فإنه محقّ. ويروى أنه أثناء أمسية حضرها أوسكار وايلد، كان المدعوون يتحدثون عن قضية الغيرة الأدبية. ولقد ارتجل وايلد الحكاية الآتية: لقد أوعز الشيطان إلى جِنّه أن يذهبوا لإغواء قديس ناسك. حاول الجان معه كل طريقة، فلا

الأكل الأكثر لذة، ولا النساء الأكثر جمالاً، ولا الثروات الأكثر ثراء، استطاعت أن تُلهي الناسك عن عباداته. الشيطان جزعاً قال لمتعصبيه: «ليس هكذا يجب التعاطي في هذا، انظروا وخذوا من البزار». ثم عند الاقتراب من الرجل القديس، قال له في أذنه: «لقد عيّن أخوك في منصب رئيس أساقفة الاسكندرية». وعلى وجه السرعة، شوّهت عبسة من الغيرة الغضوبة وجه الرجل العجوز.

وبما أن هذه الغيرة، وهذه الغضبة التي يجهلها ببيفيلاكا (كما قلت لك ذلك)، فقد أبنت له بصبر. وإني لمقتنع بأنه بذرة رائعة للتخيل، والتي هي، في نهاية المطاف، ليست سوى أداة بديعة لكي ننتقم بها من الحياة. ولا أعتقد بأني قد أخطأت إذ قلت إني أغذي غضبي ببراعة مقصودة، إذا كنا نستطيع أن نتكلم عن البراعة عند شخص مزوّد بسمات مثل سماتي.

ولعل هذا الاستعداد لمحاربة النار بالنار هو الذي أعطاني، خلال هذه الأيام الجهنمية، الصبر والشجاعة الضروريين لكي أحيا، ولكن أيضاً وعلى نحو متناقض، أعطياني الأمل لكي أرى وضعي يتغير. وهكذا تمضي الأشياء. ولا شيء في وجودي يتنبأ بهذا التغيير، اللهم إلا رغبتي. وأنا مقتنع، والحال كذلك، بأن الرغبة تصوغ واقعنا. وإذا كان ثمة شيء لا يحدث، فهذا لأننا لا نرغب فيه بما يكفي من القوة.

ذات يوم، نُقلت إلى بناء يسمّى البويزار. كان التعذيب يمارس فيه أيضاً، بالتأكيد، ولكن بالقرب من الغرفة المهنية، كانت توجد زنزانات مريحة، إذا كنت أجرؤ على استعمال هذا

النعت. وضعوني فيها. وربما كان ذلك لمكافأتي لإعطائي رقم الحساب، وربما لأن واحداً من هؤلاء الخسيسين فكر في إراحة ضميره إذ يمنحني إقامة على حدود الكوكب، أو أيضاً ما هو أكثر احتمالاً، لأنه في المنطق العبثي للنظام، ثمة شخص ظن أن مثل هذا الفعل من الندم يناسب مثل هذا الظفر. وفجأة، استطعت أن أغتسل، وأن أحظى بغطاء للنوم، وأن أجلس إلى طاولة من غير أن أكون مسلسلاً أو مقيداً، وأن أحمي عينيّ مجدداً خلف نظارة سوداء، وأن أعطى كتباً للقراءة وأوراقاً للكتابة. وثمة أمر آخر أيضاً لا يصدق وإن ظهر، فقد سمحوا لمارغاريتا بزيارتي. فطلبت منها أن تأتيني بنحلتي، للاحتياج، وإن كنت أعلم أنني لن أقرر ابتلاعها أبداً. فالجنة تتحدد تبعاً لما نعرفه عن جهنم.

وحباً بمارغاريتا (التي تعطي اسمها لكل شيء)، أخذت أكتب. كنت أكتب بحمية في كل الأيام، منذ ضوء الفجر الأول إلى الأمر الأول بالخروج، آكل، وأنام. وإن وجود بيفيلاكا إلى جانبي، زاد من إيقاعي الكتابي: وبكل ثقة، جربت عليه سطراً، ففصلاً، وإذا رن هذا جيداً، فإني سأسكبه على الورق. لقد كان بيفيلاكا مسودتي. وأخذ نصي يثخن على مرأى العين. (بحمية، بكل ثقة، على نحو جيد، على مرأى العين: تخون هذه العبارات حضوري. وإن كل كاتب يكتشف نفسه في تتمات الأسلوب هذه).

لقد قلت إن مشاعري شحذت حدسي، وسمحت لي بالتقدم في أنفاق المستقبل لكي أكتشف ما سيكون وما يمكن أن يكون وجودي الآتي. واستشعرت فتنبأت (باستثناء أن تنبأت تعني فكرة ارتجلت) بقدري. ويعد في مثل هذه الحالات روبان كناري. وإنه

ليشم قبلي نقص الأوكسجين. فنتنه المرعب يزيد في حالة خطر الاختناق، وإنه ليحذرني بأن عليّ أن أتحضر. وبالطبع، فإني أتبع آراءه.

كان ريبان قلقاً. وكانت رائحته توقظني في الظلمة، كما لو أن الدفق والكثافة قد زادا. ثمة شيء سيحدث. وقد حاولت مارغاريتا أن تهدّئني. وكانت، على امتداد الليالي التي سمح لها بالبقاء (كان يظهر سجان شهواني يراقب مثلما ننظر إلى تزاوج الحيوانات) تطلب مني أن أهدأ، لأنه قيل لها إن كل شيء سينتهي قريباً، وإنهم طمأنوا أباها على إطلاق سراحي الوشيك. ولكن ريبان كان يلح. وكان يجب عليّ أن أتهيأ.

كنت أنام أقل ما يمكن، وأكتب أكثر ما يمكن. وعندما بلغت الكلمة الأخيرة، كنت على حافة الانهيار. ثلاثمئة صفحة، شُغلت بعناية. أمسكت بورقة بيضاء، وكتبت العنوان بحروف كبيرة. ولقد أخذت احتياطي فلم أوقّع المخطوطة. وإن واحداً من التناقضات العديدة لهذا المكان، يتمثل في تفتيش الزائرين الذي يدخلون إليه ويخرجون منه تفتيشاً دقيقاً، وأنا ممنوع منعاً باتاً من حمل الرسائل أو الكتابات الأخرى التي يكتبها المساجين. وعلى العكس من هذا، فإن الأشخاص الذين يحررون، وهو أكثر قلة أيضاً، يحق لهم أن يأخذوا معهم كيساً أو محفظة، يفتح بسرعة قبل أن يتجاوزوا العتبة. ولقد رأيت (ولا شيء يفاجئني في الطبيعة الإنسانية) شاباً عُذّب بوحشية يذهب وهو يحمل في كيسه كلابة معذّبه الصغيرة.

طلبت في اليوم الثاني من بيفيلاكا أن يحمل المخطوطة معه،

إذا كان من المغامرة أن يخرج قبلي من هذا المكان (كنت أرفض أن أتصور إمكانية خروج أي واحد منا).

كان بيفيلاكا هو ما نسمّيه في ذلك الوقت البريء التام، والرجل الشريف. هل تعرف أنه في الأرجنيتن، في السبعينيات، صارت كلمة «شريف» المعنى البذيء للساذج، والغبي؟ لقد سمعت رجل أعمال يتلفظها بلهجة احتقار، بخصوص رجل كان قد احتال عليه: «إنه رجل شريف، ماذ تريد!» وإنه لممّا يثير الفضول أن الكلمات، في زمن الديكتاتور، تعرى من معناها النبيل، وتصاب بعدوى السياسة، وتبدأ في الكذب على نفسها. فاللغة تشبه عضلة - عظاية صغيرة تذهب حيثما يبدو لها جيداً أن تذهب. في حين أن الأنف، على العكس من ذلك، يشبه كلباً وفياً.

لقد حذرني ريبان بأن ثمة شيئاً سيحدث. وعندما دخل الحراس لكي يعصبوا عيني، علمت بأن شمامي الوفي لم يخطئ. سمعت صوتاً واضحاً، عميقاً وسائغاً يعلن لي بصيغة عزاء (تأخرت قليلاً لفهمها) بأن مارغاريتا لن تأتي مرة ثانية. لقد طن الصوت في رأسي كما لو أنني تلقيت ضربة. كرر لي الرسالة بكلمات دقيقة، ورقيقة. فهمت ما تقوله الرسالة، ولكن، ربما أكثر من الخبر المستبعد الذي هدّ كياني، كنت غاضباً من هذا الصوت البالغ التهذيب، والتلقائي جداً، والمدروس جيداً. قلت لنفسي «هذا هو إذن. لقد حدث المستحيل. مارغاريتا لم تعد هنا. ماتت مارغاريتا».

لقد غزاني غضب هائل وكواني. وتبين لي بأن لا شيء مما

حدث حتى الآن، قد أضر بي فعلاً: ليس الألم، ولا الخوف، ولا الحرمان من الحرية. فالصوت جعلني أعلم بأن ها هنا تكمن الخسارة الأولى، والوحيدة. وكان لديّ شعور بأنهم قطعوني إلى نصفين، وأنهم اقتلعوني من نصف الجسد.

صرخت، جادلت، أقسمت بارتكاب أشياء رهيبة من غير أن أعرف ما هي بالفعل. ويسرف الصوت في إعطائي جُملاً معزية بغية إثارتي، مثل شخص يتظاهر بإطفاء النار برمي الزيت فوقها. «أعطنا الرقم، وسندعك تراها للمرة الأخيرة. أعطني الرقم، لأنه لم يعد يفيدك في شيء، ما دامت الآن في علبتها الصنوبرية وأنت مغلق عليك بين أربعة جدران. أعطني الرقم وندعك تخرج، ولكي لا ندفنها في حفرة مثل كلب».

حاولت أن أقف وأن أدفع جسدي باتجاه الصوت، غير أن ضربة قبضة أجلستني مضطراً، في حين أن الدم تدفق في عيني. رأيت مارغاريتا متوّجة بهالة من النور، رأيتها تذوب في مادة مائعة لامعة، ثم ضاعت عن نظري. وحينئذ، تجمعوا عدداً لكي يقتادوني إلى زنزانة أخرى وينيموني فوق دعامة عظيمة من الضرب ومن المنوم الذي يعطى للحيوانات.

كانت الأشهر التي تلت غامضة في ذاكرتي. ظلام، وصراخ، ووجبات، واستجواب من هنا وهناك، ثم الظلام مجدداً. كسروا لي نظارتي، وعلى نحو ما فإن البقاء في شبه الظل يعدّ راحة وليس عذاباً. وكان الصوت بين فينة وأخرى يتكلم في الظل: «أعطنا رقم الحساب، وسنقودك إلى حيث تكون، ما زال لدينا الوقت، فالأجساد تأخذ زمناً معيّناً قبل أن تتفسخ».

نزل، ذات يوم، ديبلوماسيون كوبيون زنزانتي. كان يصحبهم جنرال عابس. وغادرت بعدها البويزارد للأبد. وصلت إلى ستوكهولم في وسط عاصفة. وهذه كانت تجربتي الأولى مع الثلج.

عشت في مكان هو مستشفى ودير. ولذا، فقد كان البياض المطهر للأمكنة يبرز قصوري الجسمي ويسبب لي وجعاً في العينين. ولم أستطع أن أعثر على محفز لكي أنهض في الصباح، عندما قدمت لي إحدى الأخوات فطوري. كانت ذات شعر أصهب ووجه مكوكب بالنمش. إن كل شيء ينقصني من غير مارغاريتا. فمنذ اللحظة التي أخرج فيها قدماً من تحت الغطاء، يتكوّن لديّ الانطباع بأني سأقع في الفراغ. وأنا في هذه الحال، تلقيت رسالة.

وإنه لممّا يثير الفضول أن أي قارئ لم يفهم أن موضوعي الواحد والوحيد هو الحب. كان الحب، هكذا يجب أن أقول بالأحرى، لأنني لم أعد أكتب. كنت محتاجاً لِى الوقت، ولكني انتهيت إلى الفهم بأنها تكفيني، وبأنها غير محتاجة إلى خاتمة، ولا محتاجة أن تكون مروية. وحينئذ تغيّر الزمن، بفضلها هي التي تحتل كل شيء. قبل ذلك، كان إيماني ضعيفاً، وكنت أقول لنفسي إن هذا لا يمكن أن يستمر، وإني إذا لم أفعل شيئاً، فإن عالمي سيذبل، مثل هذه الوجوه التي نسعى للحصول عليها ونحن في منتصف النعاس. الآن، رسالتها في اليد، ولست محتاجاً حتى إلى التنفس. إنها حية: في النتيجة، إن كل شيء يستمر في الوجود. ولم يعد ثمة شيء يمكن الشك فيه. ولم تعد الصباحات

قاعة انتظار لما بعد الظهر، ولا الليالي صباحات مطولة. وستصبح الشوارع شوارع، وليس مخططات لكي يذهب المرء فيها إلى موعد. وكذلك البيوت، ستصبح بيوتاً وليس جدراناً تخبئ غرفة فارغة. لقد عادت، هي التي تقيم دائماً على حافة اللامعقول. هي، من غير أن توجد كلمات لأن الحبر كان حبر عروقها، والأوراق كانت قدّت من جلدها. كنت، وأكون الفائض، وغير الضروري. أنا التكرار الغريب الشكل.

يمكنني أن أعد لكم هنا الترقب الطويل الذي عودتنا عليه الأفلام الإسبانية، ولكن هذا سيكون سيئ الأدب المختار. كانت مارغاريتا في إسبانيا. وحين وصلت بعد هذا الظهر إلى البويزار حذروها إذا كانت تريد أن لا يصبني شيء، فيجب عليها أن لا تأتي لكي تراني. وبعد هنيهة، نُصحت بمغادرة البلاد. ولقد نجحت لكي تستقبل في سفارة فنزويلا بمدريد. ولقد انتظرت أخباري فيها منذ أضعت كل شيء، وبأنه لا يفيد شيئاً أن أحتفظ لنفسي بالرقم الثاني للحساب البنكي، وبأنني قد وصلت، على كل حال، إلى الفقرة الأخيرة من حكايتي. وكما هو صديق جوب، نصحني الصوت قائلاً: اعترف ومت.

قرأت الرسالة، نهضت، ملأت الاستمارات، طلبت أن يأخذوني إلى المطار، وصلت إلى باراجاس في المساء نفسه.

تعمل مارغاريتا الآن في سفارة فينزويلا بمدريد. ولم أجد صعوبة في العثور على عمل كتابي. فعملي بالنسبة إليّ سيان. إنني بالقرب من مارغاريتا، ولست في السجن. والأمر هو كما قلت، أنا لم أعد أكتب. ولم أحس بهذه الحاجة الشديدة التي

عرفتها في زنزانتي. ولكي أسكت صدى الصوت الكريه، فقد نظمت أيامي معها، كان يلفني هدوء عميق ومندوف، ويهدهدني، فأسبح بسكينة تحت سماء مرصعة بالنجوم. ولم أكن بحاجة إلى شيء آخر. وعندما كنا نعثر ثانية على شيء جوهري كنا أضعناه، فإن هذا الشيء يحتل كل الحيز المعقول. ويتمثل هذا في حالتي.

ودام هذا المناخ من السبات المبارك عدة أشهر. ولم تفتني أي حماسة داخلية، ولا أي اندفاع خارجي. فقد كنت في حاضر نقي، بعيداً عن كل شيء باستثناء مارغاريتا. وهكذا علمت بأن أي عاشق مطلق لا يكتب. لأنه، ولا أدري إذا كنت توافق، ولكننا نحن، الكتاب، غير أوفياء جوهرياً، ونمر من هوى إلى آخر من غير أن نكرس أنفسنا تماماً لواحد منه خصوصاً.

لقد كنا في مدريد. وكان بإمكاننا أن نكون في أي مكان. نخرج لنمشي أو نبقى في الشقة التي وجدتها السفارة لنا: كان هذا غير مهم بالنسبة إلينا. وكنا نذهب في نزهة إلى توليد، وإلى ألكالا هينرايس، وإلى شانشون: لا يهم. كل شيء يجري الآن كما لو أن شيئاً لا يمكن أن يحدث أو لم يحدث. توجد حشرات تعبر في بضع ساعات من حالة تكون فيها نغفة إلى حالة تصير فيها فراشة وتموت. وهكذا كنا نحيا. وفي هذه الأثناء روت لي مارغاريتا ذات مساء أنها لاحظت بيفيلاكا.

كان الأمر مصادفة، ومفاجأة. والحق يقال، إننا نسيناه، كما أننا نسينا كل ما تبقى. ولقد أرادت مارغاريتا أن تسلّم عليه، وأن تروي له ما حدث لي، وأن تسأله عن حاله. ولكن بيفيلاكا هرب وكأنه حيوان مطارد، من غير أن تفهم مارغاريتا لماذا.

بعد أن روت مارغاريتا لي هذا، أمضيت ليلة من ليالي الغرق. أعادت إلى ذكرى بيفيلاكا ذكر كتابي، روبانسون الذي يعود إليّ، والذي ربما يكون قد نجا، بالتأكيد قد نجا. لأنني لا أكذب عليك إذا قلت، سعيد مع مارغاريتا، لم أعد أفكر بكتابي. «مديح الكذب». والآن، فإن هذا اللقاء أعاد إلى ذاكرتي هذه الصفحات المؤسسة، وكنت كما لو أني أطيع نزوة، قلت لمارغاريتا أريد أن أستعيدها.

خططنا لمشاريع وهمية، وكنا سعيدين. النشر، الجمهور، المقالات في الصحف. اعتراف، تجرؤ بتخيل مهنة، حياة جديدة، الرسو مجدداً في الزمان والمكان. طاولة، أوراق، حبر. رواية حكايات. ضم الكلمات.

تركنا بعض الأيام تمر. وحينئذ رأينا في إحدى الصحف إعلاناً عن إطلاق «مديح الكذب». المؤلف: أليجاندرو بيفيلاكا. «مديحي». كتابي. هل تدرك هذا يا تيراديلوس. أحسست أني مخدوع، ومغتصب، وأن مقماقاً، ومحزوناً مظلماً، وسكير ماء قد خانني.

قالت لي مارغاريتا: «لنذهب كي نراه».

ذهبنا إلى الإطلاق المقصود، ليس لأن لديّ رغبة في تمجيدي. أنا لا أهتم بالخالدين الممجدين الذين يفتخر الأرجنتينيون باستقبالهم. فواحد من مواطني الاستوائيين الذي لم يستطع أن ينال الاعتراف الذي يستحقه إلا على عتبة الموت، أكد أنه عاش دائماً «كما لو أنه في حالة غفران». وأنا أيضاً كان عندي هذا الشعور. وكذلك، فقد تحملت اللامبالاة بكل كرامة، ولقد

قلت لنفسي ذات يوم، إني سأتحمل الشهرة بلا مبالاة كاملة. هذا إذا كان ثمة شهرة موجودة.

وكانت لديَّ مارغاريتا.

ولكن رؤية هذا الجمهور مجتمعاً تحت رعاية ناشر مدعٍ لكي يشهر ما أبدعته باسم دجال، فإن هذا سمّم دمي. كانوا هنا، رسامو الخط، والإملائيون الفاسدون، والناسخون بالريش. كانوا هنا، المدندنون، المتلجلجون، والخطباء الرسميون. إن كل هذه النسخ المتطابقة لأولئك الذين أدانوني من أجل جهدي الرائع لجعل حوض مراحيضهم عالياً، كانوا هنا، يصفقون لما هو لي وهم لا يعلمون. شدّت مارغاريتا على يدي، ولكن ما كنت أحتاج إليه ليس الشجاعة.

لقد وضع صاحب المكتبة عدة صفوف من الكراسي. جلسنا في الصف الأخير. وعندما صعد بيفيلاكا فوق المنصة، صوبت نظري إلى عينيه مباشرة. وحينئذ لاحظني. أما البقية، فأنت تعرفها.

كان الوقت متأخراً لكي أطالب بكتابي «مديح الكذب»، ولكني محتاج أن أتكلم مع بيفيلاكا، وأن أسمع تفسيره، حتى وإن كنت أعلم أنه لن يكون مصدَّقاً. فعن أي شيء أبحث؟ أنت تسأل. أجهل إذا كنت عرفته ذات يوم. ربما أريد أن أفكك هذا الماضي الآخر، أن أنسل خيوط هذا النسيج من الأحداث لكي أعثر ثانية على ما كنت قد عريته. وفي نهاية المطاف، أليس هذا هو الذي نتمناه جميعاً؟ فأن يكون الشيء مستحيلاً، فإن هذا لا يعني أن لا

نحاول الوصول إليه. إن كل سائح أصيل يبذل جهداً لكي يذهب في مغامرته إلى أبعد من أعمدة هرقل.

علمت مارغاريتا أن بيفيلاكا قد لجأ عند هذا الأرجنتيني الآخر الذي يروم أن يكون فرنسياً بين الإسبانيين. ادعينا أن لنا موعداً لكي يدعنا الحارس ندخل. جعلني وجه بيفيلاكا عندما فتح لنا الباب أنفعل، أو أوشك على الانفعال. من عمق المكتبة، لم أتبيّن إلى أي درجة صار رفيقي في الزنزانة عجوزاً.

تعدّ اللياقة في مثل هذه اللحظات أمراً مفيداً جداً. دعانا للدخول، ورجانا أن نجلس. جلسنا. ابتسم. ابتسمت. ابتسمت مارغاريتا.

وروى لي حينئذ ما الذي جرى.

مارغاريتا وأنا، أصغينا بصبر فاجأنا. حكى لنا عن سفره من بوينس آيرس، ووصوله إلى مدريد، لقائه المنفيين الآخرين، اختطاف أندريا الساحرة له، الانتقال الأدبي من غوريه إلى بيفيلاكا.

«يا صديقي، لم يكن لديّ قصد أن أنزع ملكيتك عن أي شيء كان. وأظن أني لم أعد أتذكر أن لديّ مخطوطتك. فلقد بذلت جهداً كبيراً لكي أنسى ما جرى على امتداد هذه السنوات، وحتى ذلك الذي كان يستحق أن يبقى في ذاكرتي قد توارى. لا تحمل عليّ، أقسم لك إني لم أشأ أن أخدع أحداً مهما كان».

نادراً ما يوقظ الناس البائسون الشفقة. على العكس من ذلك، فالكلب الأجرب يحض على رجمه. ومع ذلك، فإن بيفيلاكا يثير شفقتي. لقد كان هنا، مسكيني جوداس، كل مجد قد ولى. إنه

يقدم اعتذارات كما لو أن الأمر قد تم من دون علمه. وبما أنني لم أنزع معطفي - وبيفيلاكا يفضل أن يضع الشوفاج على أعلى درجة - أحسست أن هذا الوضع القلق والكابوسي يفقدني اتجاهي، كما أحسست بالاختناق، وبعدم الراحة. ولذا، فقد طلبت أن تفتح الأبواب - النوافذ المطلة على الشرفة.

قرع الجرس في هذه اللحظات. نهض بيفيلاكا، ورجانا بحركة أن نحافظ على الصمت، وتركنا وحيدين في الصالون. سمعنا همهمة منفعلة، وسمعنا كلمتين أو ثلاث كلمات تلفظ بها بيفيلاكا، ثم لا شيء. بعد بضع دقائق، عاد وجلس بالقرب منا، ومن غير أن يقول لنا من زاره، قدّم اعتذاره.

تكلم عن كتاب «مديح الكذب» بطريقة ضئيلة البراعة: لم أتعرف في أقواله على مؤلفي. فقد كان كما لو أنه يستدعي قراءة من الماضي. وإنا لنحسب أنه يحيل إلى مرجع من الكلاسيكيات العظمى التي تجعل أي تعليق يبدو مبتذلاً وحشواً من الكلام. انسلخ هو نفسه من «المديح» أكثر مما سلخني منه. وكرر لي إلى ما لا نهاية أنه ليس له، وأن كل الناس سينتهون إلى معرفة هذا الأمر، وأن صورة المؤلف التي ستزين ثنية الطبعات القادمة ستكون لي، وأن هذا التفصيل، من غير شك، لا يهمني أيضاً.

إنك لم تسمع قط بيفيلاكا وهو يتكلم. كما لم تسمعه وهو يتوه في قصة. إنه ليس رجل أدب. أريد أن أقول، لا عمق خطابه ولا طرفته هما ما يشدّ انتباه مخاطبيه، ولكنه نوع من الغناء التكراري والأحادي الوتر، الإيقاعي، المؤخر نبراً، ومن الموسيقى قبل كل شيء. نحن ذهبنا نستفسره، فكان هو الذي

استفسرنا من خلال طرقه. ولقد نقول إنه كان يتلذذ بعباراته. ولكنه ما كان يبتسم، فقد كان غير قادر على الابتسام. وعندما كان يحاول في ذلك أو يشرع في مط شفتيه مما كان يفترض أن يؤوله الآخرون بشبه بسمة، فقد كان وجهه ينقسم إلى قسمين، أما أنفه فيتمدد، وأما عيناه فتتغضنان كما لو أنه كان يستهدف حلق مخاطبه. وكان رأسه كله جميعاً، العظمي، والكئيب، يميل ليس إلى الخلف، ولكن إلى الأمام كما لو أنه يستعد للهجوم وليس للطرب.

لا أبالغ: تصطبع بلاغته بجدية سحرتنا. ونحن ذهبنا نراه لأننا نريد أن يعيد إليَّ ما هو لي. وعندما انتهى من الكلام، لم يكن ثمة ما يعاد. و«مديح الكذب» لا ينتمي إلى أحد آخر سوى إلى قرائه. ومارسيلينو أوليفار الذي سيوقعه في المستقبل لن يكون سوى شخصية إضافية في هذا العمل المخصي. وأما بيفيلاكا، المفترض أنه قرصان، فقد كان مزوراً مسكيناً من غير قارب يرفع فوقه علمه. وهكذا، فإن حكايتنا المشتركة لاإرادياً، قد ذابت في بحر الغموض وسوء الفهم. وكما أنا، فإن سارقي قد غدا ضحية. وها أنا أواسيه ومارغاريتا، عزيزتي، تشجعني على ذلك.

قرع الجرس مجدداً، قاطعاً بهذا ما كان يعد بتحول إلى مشهد محزن. رجانا بيفيلاكا مجدداً أن نخلد إلى الصمت. أغلق الباب من خلفه، واستعددنا نحن لكي نصغي. وحينئذ، سمعت الصوت كما لو أنه يخرج من غرفة بعيدة، منسية تقريباً. كان الصوت دقيقاً، وعذباً، ومحبوباً. وكان الصوت يريد أن يعرف ما الذي حدث. كان يقول إنه إذا كان يظن أنه قد خدع كل الناس، فيجب

أن يفهم بأنه لم ينجح معه في هذا، وأن اللحظة قد جاءت لكي ينطق بالحق، وليوقف إذن رذائله، وليقل ما خططنا له، بيفيلاكا وأنا بالذات.

أجاب صديقنا المسكين: «لا أدري عن أي شيء تتكلم. ولكن اطرح عليه السؤال إذا أردت».

إنك لم تلتق غوروستيزا من قبل، ولا أدري إذا رأيت له صورة. أنا، بكل تأكيد، لم أره قط. له هيئة شاعر روسي: شعر مسدل من جهة الجبهة، معطف أسود ثقيل، يمسك دائماً كتاباً بيده الفلاحية الكبيرة، وإن كنت أشك في أنه كان نصيراً متحمساً للعمل اليدوي. لقد قدموا لي كيتا، ولكن ليس هو.

قال الصوت تاركاً كيسه المليء بالزجاجات المسروقة يقع على كرسي: «مرحباً، غوريه». «صباح الخير يا سيدتي. سعيد بأن أرى أنكما قد بتما أحياء مجدداً.

أجابته مارغاريتا:

- نحن على أهبة المغادرة.

ثم أشارت إليَّ، واتجهت نحو الباب.

«ابقوا، هذه قضية تخصنا جميعاً. لقد سألت الرفيق بيفيلاكا كيف تفكر في توزيع الأموال السويسرية.

قال بيفيلاكا:

- لا أعلم عن ماذا يتكلم.

- أكلمك عن المخزون، عن المال، عن الحزم الصغيرة من الأورق الخضراء في بنك بزوريخ. اسأل صديقك كالكير الذي يعرف الموضوع جيداً. هيه، غوريه؟».

ذهب إلى البلاب-النافذة وفتحه، كما لو أنه كان في بيته. وبقفزتين ذهب بيفيلاكا ليغلقه. وحينئذ، أخذت نحلتي الوفية ودسستها في حقيبة زجاجات غوروستيزا، منتهزاً فرصة أن الديكين يتصارعان فتحاً وإغلاقاً للنافذة المطلة على الشرفة. وهكذا، فإن الكتب تأخذ مصائرها.

أكدت آخذاً مارغاريتا من ذراعها: «أجل، إننا ذاهبان».

قبل أن يغلق الباب، التفت بحضور ذهني قائلاً لبيفيلاكا إنني أهنئه، وإن كتاب «المديح» كان رائعاً. بيد أني ما إن صرت في الشارع، حتى أحسست بضيق في نفسي.

هل تفهم لماذا لم أعطك عنواني البريدي يا عزيزي تيراديلوس. فبفضل مارغاريتا (وعائلة مارغاريتا الوفية)، فإن غوريه قد تحول إلى حيوان أقل توقعاً. لا يهم تغير الاسم، والجنسية، والقناع. فخلف صيغ الآداب، واللياقات التي تعد جزءاً من مدونة مختلفة، لا أزال أيضاً ذلك الرسم الكاريكاتوري لهذا الطفل البرميل الذي يتخبط في وحل كاماغوي.

ألم أقل لك إني أومن بالتناسخ؟ أنا لم أتحول لا إلى حشرة ولا إلى شجرة. إنني من الآن فصاعداً سويسري محترم بطقم من ثلاث قطع، وعليَّ معطف من شعر الجمل ووشاح من الحرير الأبيض. ولقد صارت لي هيبة إلى درجة أن ريبان قد ذهل ولم يعد يجرؤ أن يمثل إلا نادراً.

قالت الجنّية الزرقاء لرجلها القلب: «كن طيباً وشريفاً وستكون سعيداً». كذب مريع، على الأقل إلا أن يسمحوا لنا بإعادة تحديد الصفتين «طيب» و«شريف». وأعتقد أنه في حالتي

أستطيع أن أعزو الصفتين لي. فأنا لم أخن إلا شخصيات تستحق الخيانة تماماً، ووزعت طيبتي على أولئك الذين لن يبددوها. وغوريه، مثال على ذلك. فهو لم يبدد اللآلئ.

لست متأكداً فعلاً أن هذه كانت حال بيفيلاكا. فعنده، كان الشرف يختلط مع الجهل، والطيبة مع النزعة الشعورية. وليس هذا هو الشيء نفسه، إنك توافق، أليس كذلك؟

لم يكن بيفيلاكا سعيداً، على الأقل بعد اختفاء زوجته، الوحيدة، والحقيقية. أما أنا، فنعم، وربما يكون ذلك لأن مارغريتا عادت إلى جانبي مرة ثانية. وعلى العتبة، أو على شاطئ البحيرة الزرقاء الصافية، والمحفوفة بجبال منظمة جيداً، ارتفع ظل ممشوق فوق خيالي المكرش: إنها هي، علامة تعجب حطت فوق نقطة نهائية هي أنا، وذلك كما قال هذا ذات يوم أبوها حين رآنا معاً.

لقد بلغنا من العمر عتياً. احتفلت البارحة بسنواتي الثمانين، سواء اعتقدتم بهذا أم لا. مارغاريتا أصغر مني باثنتي عشرة سنة. إنها لا تظهر مساوية لعمرها، ولكن الواحد كما الآخر نستطيع أن نعد فصول الربيع التي بقيت لنا كي نعيشها. وإني لآسف يا تعويذتي النحلية العزيزة، بسبب الشخص الذي أودعتك فيه مع عدم اهتمام أملي الأقصى بالسلام. إن ضياع شيء ما سيصبح ضرورة بالنسبة إلينا ذات يوم، ليعد هو ثمن الثأر.

لقد بلغنا من العمر عتياً، ولكننا لا نشكو من ذلك كثيراً، في الحقيقة. أما مارغاريتا، فعلى الإطلاق، وأما أنا، فقليلاً. ولا يزال ثمة أشياء أريد أن أفعلها، والتي أحببت أن أفعلها على نحو

آخر، ولكن الأمور هي هكذا، وإنها ستكون كذلك مهما حدث. فأثناء سنواتي الأولى للمنفى البنكي، تلقيت بوساطة شخص وسيط تقريراً من شخص يسمّى مانديبتا، وهو مفتش شرطة محال على التقاعد. اليوم، يجب عليه بلا شك أن يجري تحقيقاً مع رئيس الملائكة بيفيلاكا. وتظاهرت بأني لم أفهم، كا هو بدهي، ولكن هذه الأسئلة تظهر أن هذا الإسباني المجهول والمثابر قد حزر الحقيقة. ولقد يعني هذا أننا لا نمضي في فعل شيء حتى النهاية. فكل فنان يعلم أنه منذور لعدم الكمال.

أتمنى أن هذه الكتابة ستكون ذات فائدة لك أو أنها ستساعدك على كل حال كي تستشف هذا الرجل الجاف والضعيف الذي لا يزال يعبر بين فينة وأخرى أحلامي. وبهذا سيكون لديّ شعور باقتسام حضوره الشبحي فلقد احتل، من غير أن يريد ذلك، مكاني في الكون خلال فترة من الزمن. فليحتل في الحاضر قليلاً المكان الذي يعود إليه. فلنبتعد عن الحقارة، يا عزيزي تيراديلوس. إن جزئياتنا (أرواحنا، كما يقول أجدادنا) تختلط، وفي الكون الواسع الذي هو كوننا، إنه لمن المستحيل معرفة إلى من ينتمي كل جزيء مما كان ذات يوم شمساً أو نجمة.

مع بالغ المودة،

إن هذا الذي هو هناك، منذ زمن طويل جداً، كان

مارسيلينو أوليفار.

I V
دراسة الخوف

إذا كان من حسن الطالع أنك تلتذ
باسم الحاذقين لكي تحمل إلى الإنسان
موتاً وإن كان جديداً عليه، فأسند
إلى دراسة الخوف التي تعطله، هذا
الفن الذي توزعت الموت البارد معه
للضرب على جسد ضائع.

فرانسيسكو دي كيفيدو
مخترع قطعة من المدفعية

لا شيء. لا أرى شيئاً. ولا أسمع شيئاً. ولا أشم شيئاً. أتقدم في وسط ضباب كثيف ومترب يشبه الماء القذر. ولست متأكداً أن هذا الضباب واقعي. وعندما أرفعه (أو أعتقد أنني أرفعه)، فإني لا أصل إلى رؤية يدي. وإذا حاولت أن أتحسس الوجه، فلا شيء يؤكد لي أني فعلت ذلك. فأنا لا أحس بأصابعي، ولا أحس بوجهي. أما الآن مثلاً، فإنه يبدو لي أنني أتكلم بصوت مرتفع حتى وإن كنت لا أميز أي صوت. أشد شعري، أعض لساني، أخمش جبهتي: ليس ثمة أقل أثر للألم،

ولا للانزعاج. أمشي، أتمدد، أنام، أتحدث مع نفسي في عدم الإحساس الأكثر كلية. لا شيء.

بدا لي أن ثمة شخصاً طرح عليّ سؤالاً.

مستحيل. هنا، لا يوجد، ولم يوجد صوت قط.

يوجد، وقد وجد. لا أعرف أيضاً ما الذي يحصل لي، ولا ما الذي حصل لي من قبل.

قبل ماذا؟

قبل هذا العدم.

لديّ الانطباع مجدداً بسماع هذا الصوت الذي لا أسمعه.

أتقدم.

في الخلف، نحو الجوانب، في دائرة، كل شيء يعود إلى ما كان عليه.

ودائماً هذا الضباب بلون الدم الناشف.

أتذكر الآن.

لقد حدث لي هذا صغيراً، عندما وجدت نفسي فجأة وسط عاصفة رملية. اختفى كل شيء في دوامة هائلة تشك العينين، وتجلد الوجه، واليدين، وتملأ الفم والأنف. لم نكن نستطيع الرؤية، ولا الكلام، ولا السمع. لقد أصبح العالم رملاً، وإن المرء ليخاف بدوره أن يصبح رملاً. ولقد خرج أبي حينئذ يبحث عني، وأدخلني إلى البيت ضرباً على رأسي. لم أتوقف عن تخييبه. وكان يقول لي: «حتى الكلاب تعرف أنه يجب عدم الخروج عندما تنهض الرياح».

ذات يوم، ضائعاً في العاصفة، وقعت فوق الهيكل العظمي

لحيوان كان الرمل قد جلاه. ظننت أني قد تحولت إلى هذا. عظام بيضاء أكثر، وأكثر وضوحاً. وبعد ذلك، لا شيء.

كان صوتي ناعماً ومتزناً. وقيل لي إنه لطيف. أما أبي، فعلى العكس، فقد كان صوته يأتي في الآن ذاته من ضربة الرعد ومن نباح الكلاب.

كان صوت أبي يصدى في رأسي. ففي الصمت الذي يحيط بي، كنت لا أسمعه. لا أسمع شيئاً، ومع ذلك فلديّ انطباع بأنه يكلمني. صوت أخرق، عدواني، تهكمي، معتاد أن نطيعه. وقد أكسبه تدريبه العسكري اطمئناناً لا تملكه الأصوات الأخرى في قريتي، ولا حتى صوت القسيس. وقد كان تميزنا يعود إلى صوته.

لمست (حتى وإن كانت أصابعي لا تحس به) شيئاً بارداً من معدن مضغوط. إنه غمد سيفه. يتذكر جلدي هذا.

كان الأطفال الآخرون يظهرون جنودهم الرصاصيين، ودراجاتهم. أما نحن، فكنا نظهر سيف أبينا، الذي نتناوله بنعومة في الصالون المظلم، في وسط الأثاث المغطى بالقماش. وبالمقارنة مع سيفه، فإن ساطور الحارس ليس سوى مدية رديئة. ولقد كان هذا (يدي غير الحساسة تنزلق فوق السطح الخاص للثقل وللكثافة) هو الشعار الأعظم ثمناً لقريتنا. وتقول الأصوات التي لا أسمعها: إنه سيف الكولونيل غوروستيزا. هل سبق لك أن ذبحت أحداً؟ أجاب الآخر. ويبدو أنه يمكن للمرء أن يرى أثر الدم على حده، وذلك تحت إضاءة معينه.

عندما كنا أطفالاً، كنا نروي في الليل أن الدم على السيف

كان يزعق بصراخ يصم، وحاد جداً، وأن الكلاب وحدها تستطيع أن تدركه.

إن فروة واحدة من كلبات أبي الخمس تمس تنورتي. وكانت جميعها خليطاً من سلالة كلب الحراسة الألماني، ومن السلوقي الروسي، ومن عروق أخرى غير محددة، مثل تلك الذئاب الكبيرة ما قبل التاريخية التي اكتشفتها ذات يوم في أكد الدكاكين. أحاول أن أداعب واحدة بيدي اليمنى غير المرئية، وكان ذلك كما لو أني أداعب الريح. وكنت أناديها: بشارة، زيارة، ميلاد، تقديم، تغطية. ولكن أي واحدة ما كانت لتجيب.

أبي ذو نزعة ماسونية. وكان مقاوماً شرساً للإكليروس. وكان يقول إن الإله الذي يلزمنا أن نمدحه بلا توقف هو إله محتقر (بالطبع، فإن المترجم يستنكر هذا بشدة، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر)، يقول هذا للكاهن المسكين.

كانت أمي تتوسل إليه باكية لكي لا يعطي كلباته الصغيرة أسماء الأسرار السعيدة الخمسة. ولم يكلف نفسه الجهد لكي يجبيها. لم تجرؤ أمي قط أن تناديها بأسمائها المقدسة. كانت تقول: هنا، هنا، وذلك عندما تريد منها أن تأتي، خائفة أن تجدف. ويبدو لي في الوقت الراهن أن هذا هو صوتها، صوتي هو الذي يشكل رجع صدى لصوتي.

«تعالي معنا»! كانت الكلبات تنبح في الفضاء القطني. إنها تركض الآن، بلا شك، كما كانت تركض في ذلك الوقت، رهط من كلبات الصيد المشعرة، تثير غيمة من الغبار الأحمر. ما كان يوقفها سوى صوت أبي.

كان أبي يحب أن يرتدي بذلته العسكرية، وبسطاره اللامع جيداً كما لو أنه ديك من الإبنوس، وحزامه المشدود على البطن. وبعد أن جلس أمام باب البيت لكي يشرب المتة، كانت الكلبات تنام عند قدميه. بُخار شوربة الذرة تملأ البيت (يبدو لي أنه يستنشقه)، أنا وأخواتي، بقمصاننا المنشاة، نحييه باحترام خفيف قبل أن نذهب إلى المدرسة. يلتصق الرمل الأحمر بكل شيء، حتى عندما لا توجد ريح. أما هو، فقد كان مستثنى احتراماً. إذ ما كان يمكن لحبة أن تلامسه.

عمل في شبابه لصالح مالكة إيرلندية، كانت تريد أن تنظف أراضيها من السكان المحليين. وبمثابة ذكرى لمثل هذه الأعمال الشاقة، ثمة جديلة من الشعر سوداء كانت معلقة على جدار صالة الطعام إلى جانب سيف وعلم. ويروون أن أبي علق، قبل ولادتي، على الجدار أيضاً أذنين تعودان للسكان الأهليين، ولكن أمي قالت له إنه إذا لم يرفعهما، فإنها لن تدخل إلى البيت. وقد صاغت قولها بحزم غير مسبوق جعل أبي يرفع كتفيه ويرمي الأذنين من النافذة. «الجديلة تبقى»، كان هذا هو تعليقه الوحيد.

كانت الكلبات تلح، وتنبح. إنها تريد أن أتبعها، وتطلب هذا بنباحها الحاد. وفي هذا الحلم (الذي ليس حلمي)، كنت أحسها تركض نحو شيء ستمزقه. وعندما استرخت بالقرب من أبي (داعب بطونها زمناً طويلاً بيد، في حين أن يده الأخرى كانت تمسك بالمتة)، نظرت إلى رؤوس أنوفها السوداء المقلوبة، وإلى أنيابها الرهيبة المعوجة العارية وتصورتها مغروسة في اللحم، خالعة الجلد، ومهشمة العظم. كانت الكلبات تتأمل أبي بعيونها

البنية الناعمة. وسألت نفسي: كيف يمكن لهذه العيون وهذه الأسنان أن تعد جزءاً من الرأس نفسه؟ كان أبي يبتسم حينئذ، يزم حاجبيه عابساً، وسن ذهبية تلمع بين شفتيه، وتحت شاربيه.

إن الممسك بكابوسي يرتعد خوفاً.

وإني لأعلم الآن أن الكلبات في الطريق إلى الوصول إلى فرائسها. إنها لم تعد كلباتي، إلا إذا كانت على الأقل حيوانات أخرى، أكثر وحشية، ومزودة بأنياب عاجية هائلة. وإني لأراها الآن في مزبلة هائلة منقضة على شاب يسقط فوق الأقذار. ثمة شخص قال لها أن تتوقف، ولكن فات الأوان. حاول الفتى أن ينهض، كان قميصه ممزقاً، ينقصه جزء من خده الأيسر. تلفظ الكولونيل ببعض الشتائم (إنه كولونيل آخر، غير أبي، لقد حدث هذا فيما بعد، في حينها كنت بالغاً): «في المرة القادمة، يجب الإمساك بها بيقظة، هذه الحيوانات». وأبعد مجموعة من الجنود رهط الكلبات. أجاب صدى في رأسي غير القادر على قياس الوقت: «في المرة القادمة». وكان يجب على هذه التجربة في المزبلة أن تفيدني. إذ ربما أتسامح الآن مع هذا على نحو أفضل.

أتقدم.

إنها أشياء لا نتعلمها، ولا نفعلها، ولا نفعلها إلا إذا تذكرنا.

فمن يطرح السؤال؟ وماذا يريد؟

«لا تزال محشوراً في البيت، إنك ستمرض، مع هذه الكتب، يا تيتو. سأضع لك نوراً آخر». كانت أمي تمضي جيئة وذهاباً، قلقة. وأما أنا فكنت أقرأ كل ما تطاله يدي: قصائد كابديفيلا. بيليكان. قاموس سوبنا. «نزهة في بلاد الرنكل». وكانت أمي

تحمل الإرهاق فوق وجهها. وكان يجب عليها أن تعتني بإخوتي وأخواتي. فنحن سبعة. لا، ثمانية. لقد ولد سانتياغو بعدنا بزمن طويل إلى درجة أننا صرنا لا نحسبه. وأبي لم يناده قط.

كان لدى أبي أمر واضح من المالكين. «أولاً الأصدقاء، ثم الوطن، والعائلة أخيراً». هكذا كان يقول. ويشير لنا منبهاً: «إنه لأمر سواء أن تبولوا وأن تخلقوا أنفسكم».

ويضاف إلى صوت أمي صوت أبي: «قولي لابن المنحط إني لا أريد أن أراه في البيت قبل حلول المساء. فليذهب حيث يشاء، ولكن ليذهب حيث الشمس». والشمس لا تظهر إلا بعض الساعات خلال أشهر الشتاء. وإني لأنتهزها فرصة لكي أكرر الأبيات التي ألفتها، ولكن الأبيات الأخرى تفرض نفسها، تلك التي حفظتها عن ظهر قلب بفضل الكتب التي تعيرني إياها السيدة آمليا، مدرستي. جو آكان. ف. غونزالي، ريبين داريو إسبرونسيدا.

«سافر من غير خوف، آه يا شراعي». وكتبت على دفتري: تستلزم عبارة «من غير خوف» أن يكون المرء خائفاً. أتعلم قراءة الشعر.

ولكن الكتابة أمر تافه. أبي يعرف ذلك، وأنا لم أصدقه.

فاصل قصير في السيرة. درست الآداب في ريو اغاليفوز، وتسجلت في درس عن الأدب الأوروبي، وإن هذا لا يفضي إلى شيء. فالدروس جميعها بعضها أكثر إملالاً من بعضها الآخر. وقد حاولت أن أشترك مع طلاب آخرين. «أجل، أنا أيضاً، بالطبع، أوقع أين؟ جميعاً، حتى النصر أو الموت». إننا نحتج

ضد كل ما يحدث، ونطالب بحقنا في الصراع. ولن نتراجع مقدار أصبع. وسألت نفسي: لماذا نصنع هذا؟ ولكني لم أجرؤ أن أطرح السؤال. أنا أكتب في الليل. «دعني أغني أرضي، والأشياء التي أعتقد أني أحبها». ونظمت أيضاً شعارات. من أجل الكفاح المسلح، وضد النمور العدوة. أغانٍ، وأناشيد، وقطع عسكرية للسير. وقبل أن أسافر إلى بوينس آيرس، نشرت مجموعة صغيرة على حساب المؤلف في مطبعة الحي. سحبت ألف نسخة. «المريخ الأحمر». إنه طفولتي ما حلمت بها، وهو كذلك تمجيد لهذه الثورة التي لم أرها قط، والتي قليلاً ما عبثت بها. أما صاحب المطبعة فهو فوضوي من أستوريا. وقد كافأني بمعانقة وبحسم. كما شرح لي أن الشعر أيضاً يعد من السياسة. وأنه من أفضل الأنواع، في نسخته الأكثر قوة. حملت كتبي مصرورة في أوراق الصر، ومربوطة بحبل رفيع. تركت في بوينس آيرس حزماً صغيرة فوق طاولات المكتبات، بعيداً عن الأنظار. سارق على المقلوب. وفي هذا الوقت، بدأت أعمل في شركة للتأمين.

وأعترف لك، لم يكن عندي أقل قارئ، ولا أقل ناقد. ولم يلاحظ أحد الحضور، الحي، لكتبي. وذات يوم، أمام باب المكتبة، رأيت إلى جانب الكارتون وأكياس الزبالة، نصف دزينة من كتبي تنتظر وصول شاحنة النقل. عبرت طريقي كخائن، لقد أنكرتها. قلت لنفسي «إلى الأبد». «إلى الأبد. لقد خدعت. لقد انطلقت فيما لم يجب». كيف أبرر أملي في أن أكون مقروءاً؟ احتفظت ببعض النسخ في عمق الخزانة، كما يحتفظ المراهق بالمجلات الفضائحية.

سجلت توقفاً.

انقضّت عليّ أسماء في الضباب. أمكنة عملت فيها. وأمكنة عشت فيها. أصدقاء ماتوا. كتب قرئت على نحو سيئ. لاحقتني وجوه مجهولة. ومدن لا أذكر أني زرتها. ومحطات قطار. وملصقات إعلانية. وتظاهرة عظيمة غير مرئية الأسماء، مثل قطيع من الممسوسين يرفعون لافتات. كولونيا ماريانا. تأمينات جيرستان. إلزا. فيلا بلاسيدا. «أغاني الحياة والأمل». مجمعات. خوان إيغناسيو سانتاندر. أوفيديو غولدانبيرغ. بويدو. «والنحاس مبلل». شالا مونداسيلي. الأصم. الكرونيستا التجاري. مدريد دي لوس غاتوس. بلانكا. مخيم فيجار. بيلباو.

تعاود الحروف توليفها، وتفكيكها، وانبثاقها. ثمة كلمات تصرخ على نحو غير محسوس، وتعتصرني. والنباح مجدداً.

من يناديني؟

أريد أن أقتلع هذا الجلد الذي لا أحسه، وذلك لكي أحس من جديد.

أتقدم.

إن هذا الذي أنام الكلمات على الصفحة، لم يعد يتوقف عن الكتابة، حتى وإن كان لا يكتب. يستمر فن الخط، مسلحاً بنمل لا يستطيع شيء أن يوقفه. وتتراكم الكلمات خلف الأهداب المغلقة، ينادي بعضها بعضاً، تتزاوج بعضها مع بعض. منملة من الكلمات تطاردني، وكتائب سود وحمر تهاجم بالتناوب، وتختلط مع الرمل، وتتسلق فوق الكلبات، وتغزو شعرها. الكلبات

تعض، تتقدم فتهدم كل شيء بمرورها. الكلبات تصرخ. وقع قاموس فوق هذا المكان غير المتصور الذي يستقبل خطواتي.

الزيارة. التقديم. اللؤلؤة. الدون فيليب بيرا. الكولونيل آنيبال شارتييه. كاراسلكو. ميرادلوس ليريوس دل كامبيو. ليليانا فريسنو. المقاومة. مل أماديا. كاسيريسي. هانداي. بيليم وابن. أنجيليكا فيريستان. بيير كيلميسي.

يكفي.

بعد أن دخلت إلى شركة التأمين، لم أكتب قط أو تقريباً. ولمرة وحيدة بعد عدة سنوات، قرأت في مجموعة من المنتخبات، كانت ممنوعة حينئذ، هذا المؤلف المنسي الذي هو مانويل. ج. كاستيلا. وقد أحسست مجدداً بالدافع لكي أبني شيئاً بالكلمات. كتب كاستيلا:

إن هذا الذي يتقدم في هذا البيت الميت
والذي يتذكر في الليل، تحت الرواق،
ذاك بعد الظهر الممطر
بينما كان يدفع الباب الثقيل.

ولكن لا، لم يعد هذا ممكناً.

في زمن آخر، عندما كنت مراهقاً، كان كل شيء يجعلني أنفعل. الأرض المنبسة لقريتي. والهضاب الحمراء في العمق. والشتاء والبرد في أكواخ الفقراء الصغيرة. وبؤس أولئك الذين يعملون في المزارع الواسعة. وآلام الآخرين والتي كنت أحاول أن أتخيل أنها آلامي. أغني ليدي المعماري، ولعيني الأرملة،

ولأبطال توليستوي وسيرو آليغريا التائبين. وحاولت أن أكون شاعرهم.

«لكن لا، أيها الشقي. لم يكن عليك أبداً أن تنطلق في الكتابة». لا أزال أحس العار.

لقد منعت نفسي من المحاولة مجدداً، وبقصد، حتى وإن كنت، في الليل، وأنا في حالة نصف النوم، أستمر في تأليف كلمات لها إيقاع بعض الألحان. وسألت نفسي ماذا ظن الكولونيل بهذه الخيانة المضاعفة. والكتابة بدلاً من العمل، والكلام بدل الكتابة؟ كان لا يعجبه أن واحداً من أولاده كان شاعراً بدل أن يكون جندياً، ولكن أيضاً، فإني لم أثابر في المهنة التي اخترتها. ومن غير شك، كان سيحس بغيظ أكبر إذا علم بعقيدتي بيهوذا الاسخريوطي، الذي كان المسيح بالنسبة إليه، والذي لا يؤمن به، رجلاً مقداماً تائهاً قليلاً. «إن أباه، بالتأكيد، هو الذي دفعه كي يرى نفسه إلهاً: برأيي، لو أنه انخرط في الجيش الروماني، لكان خيراً له».

تقدمت مثل مختلس في الحديقة والليل في ذروته، أتحسس في الظلال. وأتخيل مالك الحديقة في البعيد، ينقلب في سريره بسبب كوابيسه، فحاملي يتألم. وهذا أنا، أريد أن أقول له. لا تخف، مهما كنت. استمر في النوم، لن أطالك بأي سوء، وليس لدي أي قصد، لا سيئ ولا جيد. أريد فقط أن أكلمك، فقط هذا.

Somnilocuo: لا أحد يتكلم أثناء نومه. (القاموس الجديد المصور للغة الإسبانية سوبينا).

وحتى بعد أن توقفت عن الكتابة، ثابرت على عادتي في قراءة القاموس. هدية من أمي. سوبينا، وأضيف، تحت حكم الإعدام. «متوازي السطوح. نثري. دعارة. بروستات. مبحث الأمثال (تعني دراسة الأمثال). تعادلي التمثيل. وشًى». كانت الكلمات تتابع في انتظار أن أمسك بواحدة. «بيت كاهن الرعية. عصارة. ذرية. عميق. أسرف».

لا. لم تعد لي علاقة بهذا الكون اللغوي. فأنا أريد أن أغلق كل هذا الإجهاض الفقه لغوي في مكتبة كبيرة وأضع فيها النار. أريد أن أحيل الكون إلى رمادِ أمي. فلنمر إلى شيء آخر.

فوق الهياكل البيضاء للكلبات الفانية، تركض الآن كلمات لم أعد أحاول أن أتابعها، ولا حتى بعيني. فلندعها تركض بآلاف أرجلها، وبأجنحتها الليفية، وقرون استشعارها الهوائية. لم يعد ثمة شيء للالتهام. ولقد حدث لي، في مزبلة مثل هذه، أن أمسكت برأس طفل رمي في حفرة من الكلس. ولم أسأل لماذا. فالكولونيل لا يريد أن نطرح أسئلة. وإن جمجمة البالغ تساوي حجم جمجمة العجوز. وقلت لنفسي، وإنها لتساوي حجم جمجمة الأحمق. وكذلك التجربة، والذاكرة المحتشدة؟ كيف يمكنهما أن يقوما في وعاء صغير كهذا أيضاً؟ أعلم أيها السيد الممسك بكابوسي بأني كنت عاطفياً.

أنا الآن أكثر فطنة. الآن، بعد أن لم يعد لي عظم ولا لحم، أظن أن لا شيء من كل هذا يمكن أن يحتوي: إن هذا يدخل ويخرج مسام الصخر، مثل جدول، مثل الهواء، مثل هذا الغيم الدائم من الرمل، من غير بداية ولا نهاية.

ذكرى أولى، أو ذاكرة قصوى. من يعلم؟

لنحسب. واحد، اثنان، ثلاثة، خمس وعشرون، سبع مئة ألف ذكرى.

تضاف الأرقام في الوقت الحاضر إلى جيش الرسائل. أبجدية الأرقام.

كل شيء شرعة.

أحس بالتعب.

وأعلم أن الغزو الحقيقي لم يبدأ بعد.

ربما لن يبدأ أبداً.

السهرات هي الأكثر التي تخشى دائماً.

أتابع. أستمر.

يندد كاتب الواقع الذي يراه.

الخيال يصفي.

يشجعه الإلهام.

ولكن يجب أن يعرف أين يتوقف.

أن يعرف كما عرفته عندما يكون ما يكتبه عاراً.

هذا، لا. هذا زبالة.

اشطب، مزق.

في نهاية المطاف، ماذا يبقى؟

أنا لا أبحث لنفسي عن عذر، إني أفسر. فلنعط الكلمات استعمالاً جديداً. ولنرو ما يفعله الآخرون. والسبب لأن كل أخبار تعد تنديداً.

كان أبي يقول إن قوة الجيش تكمن في أسراره. وها أنذا،

أيها الكونيل، أروي لك. لقد عشت هذا. وسمعت هذا. فهذا قال هذا الشيء إلى ذاك. فلان يكذب: لقد سمعته يقول هذا وذاك. فالفارق بين الوشاية والخنزرة، هو فارق مهني. أما الثرثار، فيكتب الروايات. أنا أصوغ التقارير. فأي نشاط هو الأكثر نبلاً؟

إلى الأمام.

تلتهم بوينس آيرس كل شيء. وبالنسبة إلى طفل مسكين من الجنوب، كانت تمثل لعبة شطرنج هائلة ذات أحجار من الغرانيت عظيم الحجم، المليئة بالخلوات الفاسدة، وبالشقوق الفاحشة. نزلت فيها. غرفة في الطابق الثالث تطل على شارع السينا. كانت المالكة لطيفة، كانت تقدم شراب المتة والبسكويت مع دهن الخنزير. وكان يوجد في الغرف المجاورة، زوجان شابان أصلهما من شاكو ومن قرطبة، وموظفو بنك، وأخوات عازبات. والحارة، في الصباح وفي الظهر وإلى نهاية النهار، تمتلئ بالبالغين الذين يذهبون إلى المدرسة ويعودون منها. وإنهم في الثلاثين وغبار قليلة، صرت عجوزاً. فأنا أعمل في مطبعة بيليم. وبين فينة وأخرى أكتب قصيدة كنت قد نظمتها، وذلك لكي أتخلص منها، فلا أحتفظ بها في رأسي.

كنت وحدانياً. إن أولئك الذين لهم إخوة كثر يتعودون بيسر أن لا يكون لهم. وكذلك كان من السهل في ذلك الوقت أن يحمل المرء قناعاً. إذ لا شيء كان متيناً، ولا شيء كان يبدو حقيقياً. ولا حتى البضاعة، ولا حتى الخبز والنبيذ. هذا الصباح عشرة آلاف بيزو، بعد الظهر خمسة عشر ألف. ويجب على المرء

أن ينفق راتبه في الأسبوع الأول لكي لا يضيع نصفه.

تلقيت رسالة من أبي. الأوقات صعبة. إذا كنت بحاجة إلى عمل، اذهب لرؤية صديقي الكولونيل شارتييه. صديق راق. وفي حالة إخباري له بأنك ستذهب لكي تراه، إلبس لباساً جيداً واحلق شعرك قبل ذلك.

صحيح أني لم أكن أعرف كم من الوقت سأمكث في عملي. أي عمل؟ تابع في وضع الأصفار، والسبب لأن كل شيء يفوق السعر. فالاستيراد كان متوقفاً، وكذلك التصدير أيضاً. ومن غير المفيد إرسال الفاتورة لهم: حولها إلى دولار، وسترى أن المدينين إن هم إلا نحن.

ذهب أولاد السيد بيليم كي يقيموا في ساو باولو. وكان العجوز بيليم يقول، مجعداً كأنه خوخة: سأغلق في اليوم الذي سأموت فيه. إن مكانك ها هنا إلى أن يأتي هذا اليوم. أما أمي، فقد كانت، على العكس من ذلك، منغلقة في بؤسها، وقد كتبت لي قائلة بأن لا شيء تغير.

ينقصني الهواء. فالرمل غير المرئي يغور في فمي وأنفي، ويملأ رئتي، ويتحرك في الهواء، والهواء يتحرك في الدم، والدم في الطين. كان كل شيء يجرني. العودة إلى البداية. ومجدداً، يعود الضباب، والظلام. أتقدم مجدداً.

وإليك كيف حدث هذا.

ذات مساء، وعند الخروج من سينما لورين، وقعت على فتاة ذات شعر أسود ومسدل، وجبهة عريضة، وجلد بالغ البياض. بدأنا نتكلم عن لا أدري ماذا، ودعتني إلى شرب كأس. لم يكن

الاقتراب من النساء قط سهلاً بالنسبة إليّ، ولقد علمني صوت أبي. فالعالم ينقسم بداية إلى كلاب، وثانياً إلى عسكر، وثالثاً إلى رفاق، ورابعاً إلى أمور شخصية، وأخيراً إلى نساء.

لم تكن لدي، في سن المراهقة، أي مبادرة. كانت في العشرين من العمر، مع الأخت البكر لرفيق من رفقة الصف، وذلك في ريوغاليغوس. إنها ليليانا فريسنو. وذات مساء، إذ كنت أنتظر صديقاً وأنا جلوس على كنبة منزلهم، أخذتني إلى غرفتها. قلت لنفسي: ها نحن، بدأنا، لقد حدث الأمر.

ثمة فتاة، في شركة التأمين، ميرتا، تبتسم لي كتبت لها قصيدة. وذات مساء، مع صديقات لها، أخذن يضحكن وهن ينظرن إليّ. علمت بأنني كنت سيئ التصرف وتافهاً، وأنهم سخرن من أبياتي. فكففت عن توجيه الكلام إليها. التقيتها بعد سنوات في بوينس آيرس. تظاهرت كما لو أني لا أعرفها.

كانت فتاة لورين تضحك كثيراً، ولكنها لم تكن لتسخر مني. إنها تراني مثل رجل ناضج، وهي كانت في العشرين من العمر، أما أنا ففي الخامسة والثلاثين. وفي ذلك الوقت ، كان عمر الخامسة والثلاثين، عمراً محترماً. وإني لأبدو في أيامنا أقل شيخوخة وإن كان عمري أكبر مرتين.

سألتني الصبية ماذا أقرأ. كان في جيبي كتاب المنتخبات الممنوعة. أظهرتها لها. ضحكت أيضاً. «هيا، اقرأ لي شيئاً». لا أعلم ماذا قرأت لها، ولكني تلذذت في تقديم صوتي لها، وفي النظر إليها نظراً دقيقاً أثناء تطوافي القصيدة فوق الصفحة. «أحب أن تقرأ لي القصائد في السرير». حدقت فيها وكأني لم أفهم ما

قالته لي. «أحب أن أنام وأنت تقوم بالقراءة لي». دفعت ثمن القهوة وذهبنا.

الآن، وأنا في الضباب الأحمر، كنت أصطدم بأوراق من الصحف معلقة للريح مثل الغسيل. صحف ناشفة، خشنة، كتلك التي تستعمل في منشورات أوسترال، والتي لا تمتص الحبر جيداً. كانت الأوراق لا تتمزق كلما تقدمت. إنها تقاوم ثقلي، بيد أن الضوء والزمن وحدهما هما اللذان يضرانها. ليس لأني أحس بها (فأنا مستمر بعدم الإحساس بشيء)، ولكني أعلم بأنها هنا، معلقة، وكأنها تريد أن تقطع عبوري. ثمة شيء مطبوع عليها، ولكن لا أعلم ما هو. فأنا لا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً.

«قال لي صوتها: أنا لا أحب القراءة، ولكني أحب أن يقرأ أحد لي. أي شيء. دليل الهاتف إذا أردت. أحب أن أراك تحرك الشفتين، وأحب لون لسانك».

أسماء أيضاً. أسماء أيضاً. وكاستيلا أيضاً.

انبثقت منك.

أنا ورقة شابة تلامسها الريح برفق.

أنا في هذا الصيف. . .

حزرت الحروف فوق الأوراق، كما فوق اللوحة الضبابية عند طبيب العيون. أقرأ من الكتاب المفتوح، وأنا ممدّد فوق السرير، في حين أن المرأة الصبية تداعب ثدييها على إيقاع صوتي.

أنا في هذا الصيف تلك التي تحس بأن ثديها
ينتفخ بالثمار
ويقع فوقك، فيخصبك.

نجحت في استعادة قراءتي، ثم استأذنتها في أن أراها ثانية. قالت لي: «لديّ شخص في حياتي. ولكن ربما نلتقي مجدداً». وبعد هذا، مدت إليّ ثيابي.

لا أدري إن كانت الأشياء مختلفة بالنسبة إلى شخص معتاد على المفاجآت. بالنسبة إليّ، أنا الذي كانت حياته حتى الآن تعاقبات منتظرة من الأحداث الرشيدة إلى حد ما، فإن الوقوع في الحب يمثل اقتحام المستحيل. ويمكنني إلى الآن أن أشرح كل شيء. إن لكل حدث سبباً، ولكل قرار نتيجته. ولقد كان عالمي منطقياً ومتماسكاً، ودقيقاً مثل جرس، على الأقل مثل مقطوعاتي الغنائية، حيث البيت الأخير، المفاجئ إرادياً، يخفق في تأثيره. «انتبه، إنه سوف يأتي»، كانت تخطر رباعيتي الشعرية. «ها هو قد حدث». يعلن عن ذلك المقطع الثلاثي الأول. «تسوس قوانين الجاذبية والحركة عالمي الخارجي والداخلي. لقد كان هذا هو لقائي الأول مع ما لا يفسر.

عدت غالباً إلى لورين، خلال تلك الشهور، أملاً في العثور عليها ثانية. وذات يوم، لاحظتها بذراع رجل ضعيف ومبتسم. ولا أدري إن كانت قد رأتني. وأعتقد أني كنت غير مرئي بالنسبة إليها، باستثناء بعض الساعات التي أمضيناها معاً. أما هي، فعلى العكس من هذا، إنها لم تغب قط عن بصري. وكنت أتذكرها في كل الليالي، وكنت أعرف كل قطعة من جسدها عن ظهر قلب. وقد حاولت أن أسلك مسارات تقع على جغرافيتها التي أصبحت بالنسبة إليّ مألوفة أكثر فأكثر. أما اليوم، فأنا غير قادر أن أقول ماذا كان لون عينيها.

كنت، بعد العمل، أذهب طوافاً مكتبات شارع كوريانتس. أبحث عن كتب شعرية قديمة لمؤلفين أشباح، وذلك في دور نشر تعيسة. كان ذلك من أجلي، لكي أشعر بالوحدة على نحو أقل، ولكن من أجل أن أقرأها لها أيضاً.

ذات يوم، بينما كنت أقلب الكتب على طاولة في إحدى هذه المكتبات، دخل رجلان ركضاً واقتادا بالقوة شاباً كان يقرأ إلى جانبي قبل بضع دقائق. وأثناء دفعه إلى داخل السيارة، سمعت صوتاً يناديني. «هيه، يا غزير الشعر! ألست ابن الكولونيل غوروستيزا؟ رجل يرتدي بذلة هجينة ونظارة سوداء، شدني من الكتف. «لقد كتب إليّ أبوك يخبرني بأنك ستتصل بي. فمتى يكون هذا؟» ابتسم لي، أعطاني بطاقة، ثم صعد الشارع. تابعت البحث عن كتاب.

تعلقت برؤيتها وسماعها أقل من ملامستها. فالجلد حيز يحل بديلاً عن العالم. وعندما نلامسه، فإنه يقبِّل كل شيء. وبينما كنت أتقدم في الضباب، كانت أصابعي تتقدم في أوديته وهضابه مثل حجاج مجهولين، يتوقفون بالكاد قليلاً، يتراجعون القهقرى طرفاً من الطريق، ويسلكون آخر، مكتشفين دروباً مجهولة. والآن، بما أن الملامسة ممنوعة عليّ، فإن مشهد هذا الجلد يدخل عميقاً تحت ثقلي، فيغلفني ويخنقني. أقع في كيس ينغلق عليّ، رطب وإسفنجي، وقد صنع من جلدي أنا. كانت أصابعي تريد أن تزحف فوق خصري هذا الجسد المنحدر أكثر ومن لحظة إلى أخرى. وكان من المستحيل عليّ أن أتعلق. كان الجلد الآن رطباً ولاصقاً، ويغلقني، أنا وغيم غباري الصلصالي. لقد صار الريح

طيناً، ملأ عيني، وفمي، ومنخري. صار الطين ماء. إني أغرق. إنه يحرق حنجرتي. صار الماء هواء. توقفت الفوضى. أتنفس. مجدداً.

أنا لا أستطيع أن أحتفظ بهذه اللحظة الأولى من الذكرى. فلا شيء يبقى على صفائه، ولا شيء يبقى على سعادته، ولا شيء إلا ويصبح قاتماً.

والظلام هو بوينس آيرس أيضاً. فأنا لم أجد أبداً مدينة أكثر منها ظملة، بشوارعها التي تتفرع من شارع عريض مضاء لكي تضيع بين أشجار سرية وجدران أحزرها إذ أتحسسها. هنا، على الأقل في بداية هذه السنوات، كانت الظلمة لا تخيف. وإني لأتبع تعليمات كلمتها الصغيرة غير الموقعة، والمخطوطة بكتابة متأنية من لدن تلميذ نموذجي. «تعال كي تراني غداً في الحادية عشرة. اقرع الجرس مرتين، وسأفتح لك». أطعت. وصلت، قرعت الجرس، فتح الباب المشبك، صعدت، دفعت الباب. لم أشعل النور، ولكني حزرت الطريق. نشم رائحة الصيف، والمشمش، والمطر. يد أخذت يدي ورمتني فوق الفراش. سقطت غاطساً، ولكني لم أغرق. تنفست بعمق. لم نقل شيئاً.

أحب أن أكلمك فماً لفم، ورأساً لرأس.

وأن أقول لك كل ما تسكت عنه.

ثمة وضع للعشق أكثر إرهاباً من الأوضاع الأخرى. مكتسح، استبعادي، غيور، أعمى إزاء كل عقل. لغته بذيئة، وفظة، وشتائمية. تصرفاته، تكون ناعمة في بعض الأحيان، وتكون في أحيان أخرى ذات عنف مرعب. والحب لا يقول الحقيقية أبداً

لأنه يخاف حتى من نفسه. إنه يكذب لكي لا نعتقد بأنه كل هذه الأشياء. فهو مخلوق من جسد متخيل في تمامه تقريباً: إنه يدان هائلتان، وعينان هائلتان، ولسان هائل، وجنس ضخم. أما الأعضاء الأخرى، فتضمر وتصغر حتى الاختفاء كلية تقريباً. ليس للعاشق ساقان ولا ذقن. أنفه يظهر ويختفي، وكذلك أذناه. فالدوخة والأنين تكيدانهما، فيعودان إلى العدم. وثمة، في هذا الواقع العاشق، جيوش أكثر دموية من تلك التي كان أبي يقودها، ورهط من الكلاب أكثر ضراوة من الكلاب الخمسة لأسوأ كوابيسي. إنك تشتكي الآن من الوساوس التي أفرضها عليك، يا حالمي. اشكر الله لأنه لم يُحكم عليك بهذا الكابوس الآخر.

أعرف هذا الإحساس بالاختناق الذي أكابده، وهذا الانطباع بالغوض في الطين. فقد كنت هنا من قبل، ولكن في هذه اللحظة، عندما كان لحمي موجوداً وكان دماغي يعمل، كان الوضع أسوأ. فالخوف من سماع (ومن عدم سماع) الجواب المأمول كان مرعباً أكثر أيضاً. «متى سأستطيع أن أراك؟» نظرت إليَّ بعينيها المازحتين وقالت لي إنها لا تعرف، ورجتني أن لا أقلق، وأن أستفيد من اللحظة.

العيش في الحاضر: تعريف جهنم..

سأذهب، الثياب مضمخة بعطرها. لن أستحم. في المكتب، وفي الحافلة، الليل، وتحت الأغطية، كان لديّ الانطباع بأنها هنا. ولا يجعلني أشرد عنها. أمشي من غير هدف. وأتناول طعام الغداء في أي مطعم يقدم الأغذية المسلوقة، فوق أغطية منشأة. أقلب كتباً ليس لدي أي نية في قراءتها. أذهب إلى سينما لورين،

ولكني لا أعير الفلم انتباهاً. بل على العكس، كنت أريد أن ينتهي الفيلم لكي أقف في المدخل وأرصدها بين النساء اللواتي يخرجن، وحدهن أو مثرثرات مع صاحبهن، أو مع صاحبات يضحكن بحنجرة مفتوحة. إنها ليست هنا، بالتأكيد وأعود ثانية إلى ظلمة شارعي، وأبحث عن القفل متلمساً. لقد أصبحت خبيراً في فتح الأبواب في الظلام.

تكرر روحي: هي، هي، هي، هي. وكنت أحاول أن أسكتها: مستحيل. حلزونتان متماثلتان تذوبان في خط لا ينتهي، ومتكرر إلى ما لا نهاية: هي. المدينة معمورة بأعمدة إيونية واقعة، مثل واجهة عريضة لمعبد يوناني مقلوب. كل شيء صار هي.

لقد مات لدون باليم. عاد واحد من أبنائه لكي يغلق الشركة. عرض عليّ وظيفة في ساو باولو، ولكن كيف أستطيع أن أسافر بعيداً جداً عنها؟ لم يفهم الرجل وعدني جاحداً. وعندما قال وداعاً للمستخدمين الآخرين، نسيني. وأثناء العودة إلى بيتي، مررت بالدائرة العسكرية وتذكرت أن مكتب الكولونيل شارتييه يوجد هنا. دخلت وطلبت أن أكلمه. تحقق رقيب من أوراقي وأدخلني إلى غرفة حيث يتربع مكتب ضخم أمام مرآة ذات إطار مذهب. ثمة ملائكة صغار يطيرون نحو السقف.

في الجيب المشيمي الذي غطست فيه، ثمة شيء (سكين، سيف، مخلب) مزق الجدار وجرني حالياً نحو الخارج، في موجة لزجة وعفنة. كان الرومان يمارسون تعذيباً يقضي بجعل السجين يشرب خمراً قبل أن يفتحوا بطنة بالضربة القاضية. شبيه الخمر في

هذه المعدة الرومانية. إنه نهر لا أراه يسحبني. درت عدة مرات حول نفسي. لا أسمع شيئاً، ولا أحس شيئاً. لقد لمست العمق.

خررت، في الظل المائي، ثلاثة خيالات عسكرية كبرى، الصدر مدروز بالميداليات التي تطلق لمعاناً مشعاً. الأول، لم يكن له وجه، كان فقط دائرة هائلة من الأسنان المفولذة، والتي نلاحظ بينها لساناً أرجوانياً ضخماً. وأما الثاني، فقد كان كرة من الشعر الخشن مثل أعواد الحديد، قاطعة كأنها الأسلاك الشائكة. وكان للثالث سمات الكولونيل شارتييه، فالخدود جيدة الحلاقة، والشارب صغير أسود، والنظارات سوداء، والقبعة عسكرية. وانبثق من أمامهم اثنتا عشرة شخصية عارية، ترفع الأذرعة نحو الثلاثي الرهيب. وبدأت الأسنان حينئذ بابتلاع اللسان، والنار كرة الشعر، وراح وجه الكولونيل يتفسخ، تاركاً حزماً من سرافة الذباب تنفذ. أطلق الثلاثي عواء داعياً للوحدة قبل أن يختفوا، تاركين وراءهم بقايا نسج أبيض يشبه البصاق.

خرج الكولونيل شارتييه من خلف المكتب ومدّ لي يده. لقد كلمه أبي عني. «كيف حال صديقي القديم؟ لا ينجو أحد من الألم القطني. هل تعتقد بأن الحياة خالدة. ما عمرك، أنت؟ أربعون؟ قل لي إذن! ألا تريد قهوة؟ أيها الرقيب، أعطنا اثنين بالقشدة. تعال لنرى. أين كنا؟» ثم اقترح عليّ عملاً.

لم أحقق أبداً عن الاسم الرسمي للقسم الذي يديره شارتييه. فيما بيننا، كنا نسمّيه خدمة التواصل. والملفات كانت مدموغة بالحرف «C»، ولها سلسلة عددية. وثمة سكرتيرة تُعنى بأرشفتها. ولم أعرف أبداً من يستعملها، ولا متى، ولا لماذا.

قرر الكولونيل شارتييه: «كل ما عليك فعله، هو أن تكون منتبهاً. فلقد قال أبوك لي إنك تملك موهبة خاصة من أجل ذلك. له شم الضِرو، هكذا قال لي صديقي القديم غوروستيزا. وهذا ما نحتاج إليه بالضبط هنا. نحتاج إلى أناس يعرفون استنشاق الهواء، وملاحظة ما لا يُرى. إننا نعيش أياماً خادعة، يا صديقي الشاب. وكل شيء يمكن أن يكون فخاً. فالعدو في الظاهر هو مثلك ومثلي. فإذا لم نحذر منه، طق، السكين فوق الرقبة. الحضارة ضد الهمجية. ولا فائدة أن نسألك من أي جانب أنت».

تقضي مهمتي بالحضور في الثامنة صباحاً إلى المكتب ومتابعة التعليمات. بعد قهوة بالقشطة (لا يقدم في مكتب الكولونيل شارتييه قهوة سوداء على الإطلاق)، تلقينا، أنا وزملائي السبعة أو الثمانية، وكلنا رجال، قميصاً (C 89711، C 27658) يحمل عنواناً، ساعة، أو يحمل اسماً في بعض الأحيان. أمضيت أياماً لا حصر لها، جالساً في مقهى بالقرب من الكونغرس، أو واقفاً على رصيف محطة باسيفيكو أنتظر أن يحدث شيء ما، أن يصل شخص، كان لديّ كتاب صغير من الشعر في أحد الجيوب، وذلك لكي أروح به عن نفسي، وكان يوجد في الجيب الآخر اللوحة المعدنية التي أعطوني إياها، والتي يذكر شعارها المعدني المطرَّق بلمسة سيف أبي. وسواء كنت جالساً في المقهى أم قائماً في المحطة، كنت أقرأ، ممسكاً كتابي بيد وحاكاً الشعار باليد الأخرى، إلى أن تسخن أصابعي، وأعود في نهاية النهار إلى المكتب لكي أقدم تقريري. وكنت أقوم، في بعض الأحيان، بخدمة ليلية.

وعندما رأيت ما جئت لكي أراه، أشرت بيدي لرجال الشرطة لكي يتدخلوا. ولقد تعمدت أن لا أتعرف عليهم: إنهم هم من كان يراقبني، أنا. ولم أشأ أن أعرف أيضاً أولئك الذين كنت أراقبهم. فتنوعهم يدهشني، ومن المستحيل تصنيفهم. إنهم خليط من كل شيء. سادة بمعاطف. عمال. متقاعدون مع الجريدة تحت إبطهم. رجال من أصل بلدي. نساء عجائز أولات شعور زرقاء. مراهقون بثرون. طلاب شباب أو عمال شباب كما كنت كذلك أتمرن في شركة مظلمة للتأمين. نساء صبايا. بعض القسس، وبعض الممرضات هنا وهناك. وبعض المعلمات.

ذات يوم، كان عليّ أن أراقب زميلة سابقة من أربعين عاماً في مكتب المحاسبة عند بيليم، وهي تدعى شيلا لا أعلم ماذا. بالكاد كنت قد لاحظتها في قلب الشركة. محافظة، ومتأنقة لباساً، ومنتصبة دائماً فوق كعبين عاليين، وثمة من قال لي إنها أرملة وأم لطفلين. إنها الآن مضطربة، وكأن شعرها في معركة. وهي تحمل محفظة لا تكف عن فتحها وإغلاقها. عرفتها منذ لحظة نزولها من القطار فرفعت يدي مباشرة. وأعتقد أنها رأتني وظنت أني أسلم عليها. وعندما اقترب رجال الشرطة منها، أطلقت صرخة وراحت تركض، لكنها كسرت كعباً وأوشكت تسقط فوق الطريق. ثم ما إن صارت في الأرض حتى نظرت إليّ، أو أنها نظرت باتجاهي على كل حال. غادرت قبل أن يأخذوها.

إن الخطوط السميكة والدبقة للبصاق لصقت في جسدي، وإنها لتمنعني من الحركة. كما لو أنها كانت مزودة بالحياة، فمجساتها تجول فوق ذراعي وساقي، ورقبتي ووجهي. فكنت كما

لو أنني سجين فانوس البحر، وكما لو أن جسداً آخر قد نما فوق جلدي، حارّ ولعابي. وكأني ألتفت مثل قفاز، الأعضاء معروضة، الأمعاء معقودة بهذا الشيء المقرف والليفي. إنها تحزم حنجرتي، وتشنقني بأصابعها الجلاتينية، وتخنقني بطريقة غير مألوفة. تتسلل فوانيس البحر في خياشيمي وفي فمي، وتملأ رئتي إلى درجة الانفجار. اختفت البصقة. وإن لأتقدم في مكان لا أراه.

لو أنني أستطيع أن أتوقف عن التفكير ولو للحظة، فأستريح، وأستردّ قواي. لو أنني أتوقف للحظة عن تقيؤ هذه المسبحة من الصور، واللكلمات، واللحظات الماضية.

أهتم بالتركيز على نقطة مظلمة، ليست أكبر من وخزة دبوس في العدم. مستحيل. إن النقطة تمتد، تومض بألف لحظة معاشة، محفوظة في ذاكرتي. وإني لأعاود البدء. بيت أهلي. الكلبات. إخوتي وأخواتي. المدينة، الليل. محبوبتي الهاربة. الدم والعظم المسحوق. تقاريري. هي.

يحدث لي أن أكتب تقارير عن فتية وفتيات صغار جداً. قال لي الكولونيل شارتييه: «تلك طريقة لحمايتهم. إنه واجبنا بوصفنا آباء للوطن». أن أراهم يلتقون عند الخروج من المدرسة (لا أزال أسكن في الغرفة الصغيرة من شارع ألسينا) وأبقى واقفاً بالقرب من بائع السكاكر، متظاهراً بالشراء أثناء مراقبتي لهم. وإني لأراني مثل نوع من أنواع الستير(*) أرقب الحوريات، مختبئاً خلف الدغل. أو أراني مثل هؤلاء العجائز الذين يفترسون سوزان بنظراتهم، يحنون

(*) ستير: شخص خرافي، نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز.

إلى ماضٍ من الانتصاب. شبيه بعارض يفتح مظلته الملونة والمصمغة في الحدائق الصغيرة العامة للأطفال.

أنظر وأسجل. وأستطيع أن أسمعهم في بعض الأحيان. إنهم يرون تفاهات، ويمزحون، ويخترعون عالماً بلاغياً وعصراً ذهبياً جديداً. مظاهرت، تظلمات، إعلانات، مجموعة من عبارات الرايات الصغيرة وخطابات نهاية السنة. كنت في الخامسة عشرة، أنا أيضاً.

أرفع قوائمي. أسأل حراس البنايات، وبعض رجال الخدمة، والشرطة الرسميين الذين يفهمون بالكاد أسئلتي. وبعد كل هذا، أعيد نسختي في الوقت المحدد، فأنا لا أخلف موعداً أبداً. يقول لي الكولونيل: «أنت والدقة توأمان».

ونبدأ مجدداً.

كنت أراه من وقت إلى آخر، على فترات غير متحققة، والطويلة جداً. إننا نلتقي مصادفة، أستقبل كلمة حيث تعطيني موعداً. وقد كنت أتجرؤ بمهاتفتها إلى عملها، لا أدري في أي مكتب من مكاتب الجامعة. وفي يوم ما، تركت لها كتابي فوق طاولة النوم. ولم أعلم أبداً إذا كانت قد قرأته. ولم أجرؤ أن أسألها. كان يكفيني أن أعرف بأنه هنا، إلى جانبها. وحينئذ كنت هنا، أنا أيضاً، كلامي فوق شفتيها، ولساني في فمها.

أرى أن قصتي تثيرك، يا حالمي، وأنها تجلد لك الدماء، وتجعلك تفتش في ذاكرتك بحثاً عن ذكريات العشق. حذار أن تتبعني. فأراضي صيدي خطيرة. لقد بدأ كل شيء في حديقة حسنة الرعاية، وتحولت فجأة إلى غابة، وإلى أرض ملغومة،

وإلى رمال متحركة. وإنك لتغرق فيها معي. إنك لم تبلغ الطرف الآخر.

ثمة لحظة أولى (وإننا لنجهل أن المقصود هو الأولى)، عندما نطأ عتبة غرفة ممنوعة حيث ما كان علينا أن ندخل أبداً. وإن هذا ليحدث من غير أن نفكر فيه. المفتاح في القفل السيئ، والباب الذي ينفتح من غير أن نفتحه قصداً، وقطرات الدم أرضاً وما كان يجب أن نراها، كما في حكايات الجنيات.

يوجد حدثان متلازمان قلبا كل شيء.

حدثان: قالت لي عند الاستيقاظ: لم أعد أستطيع أن أراك. أبداً. وفي الصباح ذاته، في الظرف الذي يحتوي التعليمات، كان اسمها على رأس قائمة جديدة للأشخاص الذي يجب مراقبتهم.

إنها لم تعد تريد أن تراني لأنها تريد أن ترى الآخر. واحد آخر، لأني لست الوحيد. واحد من اثنين، واحد بين عديدين. وأريد أن أعرف من هو منافسي. من له الفضل عليها. من هو الذي بسببه تحرمني حضورها. «أنت لا تفهمين ذلك. ما الذي يهمك؟» ضحكت. رفضت. صرخت بقوة أكبر. وتتابع راحتي المفتوحة ضربها. انتهيت هذه المرة، أنا في الطرف الآخر، وقد أغلق الباب.

ثمة وضع غرامي أكثر إرهاباً من الأوضاع الأخرى: وإنني لأكرر هذا مثل صلاة. وأفعل هذا، لكي أقول معلومتي الوحيدة. في بعض الأحيان تكون محتجبة، كما لو أنها أفعى نائمة تحت الشراشف. وإنها لتلتهب في معظم الأحيان، مدفأة محترقة بالنار التي صنعتها. وإني لأعرف الغول في تفاصيله الدقيقة. له ثلاثة

رؤوس، وثلاثة ظلال ثأرية. وحتى لو أردت، فإني لا أستطيع أن أوقفه. ولكني لا أريد. إنها بصورة خاصة، هي التي تطلق صرخات مخنوقة.

أحب أن أكلمك فماً لفم، ورأساً لرأس.

أن أقول لك كل ما أنت تكون.

إن الاسم الذي أتلفظ به ليس على القائمة. آخذ قلمي. آخذ قلمي وأضيفه، على نحو مميز، إلى جانب اسمها. عدت إلى بيتي، استحممت، ارتديت ثيابي، ثم غادرت إلى العمل. وفي الظهر، أقمت في باب كازاغولد. تعلن خواتم الخطبة في الواجهة الزجاجية عن الخطب، وعن أعياد الميلاد، وعن العرس الفضي والعرس الذهبي. لم أعد ذلك الذي يراقب لحساب الآخرين، خاضعاً لقدر مهني ومحايد. فما أفعله الآن يخصني شخصياً، إنه عملي. سألت نفسي: كيف يمكن للمرء أن يخان على هذا النحو، في حين أن الناس يمضون ذهباً وإياباً من غير أن يصطدم بعضهم ببعض على الإطلاق تقريباً، وهم في مسالك ملتوية، وبالكاد يلامس بعضهم بعضاً؟ غابت رؤية الجمهور. فهذه الصور تتراكب فوق أخرى، صورة الجزار، والجسد المقطع، ومخطوبات «اللحية الزرقاء» بالبطن المفتوح وبالأعضاء المقطوعة الدامية. وقلت لنفسي: لِيَنتهِ كل شيء لكي تنتهي هي أيضاً. وتابعت الانتظار.

بدأ عدد من الأشخاص في التجمع. وإني لأجهل لماذا هي تتظاهر. ولا أريد أن أعرف ذلك. أنا لا أقراء اللافتات، ولا أسمع الهتاف بالشعارات. وإني لا أراها كذلك في الكثرة التي

تتعاظم، ولكني أعلم بأنها هنا، وإني لأشمها. وهو أيضاً، السبب المشترك. اثنان مذنبان. اثنان محكوم عليهما. العاصفة الإنسانية تخفيهما من غير أن تحميهما. ولو أني مددت يدي للمستهما.

أخذ الجمهور يمشي على طول شارع دياغونا، باتجاه ساحة مايو. وملأ المشاهدون الأرصفة. وفي عمق الشارع، كان الخيالة، السيوف لا تزال في أغمادها. مشيت بين المتسكعين بهيئة غير مبالية. وأمام بن باستون لاحظت عناصر شارتيبه. وكانوا هذه المرة ظاهرين. قمت بحركة صغيرة، فالتحموا بالمسيرة.

عندما وصل الجمهور إلى الساحة، هجم الخيالة، كما هو متوقع. وحينئذ رأيتها، متوهجة بين الجمهور المظلم. بحثت بالعينين عن العناصر، ولكنهم اختفوا في تشابك الأيدي، والسيوف، ورؤوس الناس، والخيول. كان الصراخ مصماً. انفجرت القنابل المسيلة للدموع فوق الرصيف المقابل. ركض الجمهور نحو شارع فلوريدا. وإني لأراها ثانية، يقودها ذراع الرجل الضعيف. كانت يده على وجهه المغطى بالدم. وكانت هي تقوم بعلاجه.

غبار، ضباب، طين، ماء، مزاج ثخين وغير محدد، بحار بلا عمق ولا شكل، عالم نصف صلب ونصف مائع، دبق، بصاق، دم. أنا، مخدوع إلى الأبد. هي تنظف جرحه إلى الأبد، وتميع دمه في الماء، سر القربان المقدس الفاحش والرخيص. كانت حالتي تخضعني لهذه الرؤية، اضطرار مهني، مخاطر المهنة. أنا لم أأتلف. وهذا عذاب أيضاً.

رأيت العناصر، فأشرت لهم عليهما. كان الاثنان جالسين

خلف الكوة الزجاجية التي تعلن «خدمة كيلميز». فلنحذف الضوضاء، وإطلاق النار، والصراخ، والدخان، والناس الذين يركضون، والماء، والدم، والنادل العصبي، ماذا بقي؟ عاشقان حول طاولة في مقهى، يداً بيد، ورأس مائل نحو رأس آخر، الحبيب والمحبوبة.

كيف تجرأت على استبعادي؟ هذه الجنة لي.

رأيتها تنهض وتغادر. أما هو، فقد بقي. أشرت إلى العناصر كي يتبعوها. وقررت أننا سنعالج شأنه فيما بعد. إنها كابدت (راجعت الممارسات العملية التي يهتم بها شارتييه قبل كل شيء) كل الاستجوابات، وكل العقوبات، وكل الموتات. وإن واحدة لا تكفيني.

أجهل إلى أين اقتادوها. ولم أشأ أبداً أن أعرف، مفضلاً تصور القائمة بتمامها. ولم أشأ أبداً أن أستخبر، حتى وإن كنا في الملفات (C 56908، C 99812) نوزع كل شيء، كل قبض على جماعة، كل سجين، كل محلي وإلى حيث يقتاد، كل محاكمة، وكل استنتاج. يقول الكولونيل شارتييه: «يجب التعامل مع هذا كما لو أنه دفتر حسابات. لا يوجد فلس إلا ونحن نستطيع أن نكشف حسابه».

مرت الأسابيع والشهور. انتقلت من كتابة التقارير إلى جمع المعلومات، ودائماً في الدائرة نفسها. في وظيفتي الأولى، كنت أراقب. وأما في الثانية، فأنا أطرح الأسئلة. وثمة صديق لأبي، عالم نبات هاوٍ، يدّعي بأنه يكتفي بتصنيف ما يجده مصادفة في الريف في دفتره الكبير. أما المتى، والكيف، والماذا، فيتركها

للأضواء الأكاديمية. بيد أني، على العكس من هذا، لم أحس الانتقال من عمل المراقب إلى عمل المفتش بوصفه تكريساً. كان وجهاً جديداً للعمل نفسه، أستعمل اللسان فيه عوضاً عن العينين. قال الكولونيل مازحاً: «بهذا تريح نظرك قليلاً».

إننا نعتاد على كل شيء (ما عدا هنا، ما عدا بعد، ما عدا في العدم). إننا نعتاد أن نرى الآخر محكوماً عليه بالنار، وبالدموع، وبالصراخ، وبالجروح الإرادية، وبالتقيؤ، وبالدم. ونعتاد كذلك على تخيل ألم الآخر كما لو أننا نصنع لك رسماً بصراخ الألم. الساعات تمر، ثم ننسى، أو نتظاهر بالنسيان. ويجب أن نبذل جهداً لكي لا ننسى.

أتذكر.

كان هنا، الذي كان يمشي هادئاً في الشارع، القاطع الطريق على مؤثراته، السارق جلده، الغازي لرصيفي. كان هنا، الشيطان المسكين، الجاهل تماماً بحضوري. ومن أجل سؤال اعتباري، كان يجب عليّ أن أقنع نفسي، وأقنع الآخرين، بأنه لم يكن متجمهراً، ولا عجوزاً أبله في قلب جيش العدو، ولكن على العكس من كل هذا، لقد كان قائداً مجيداً، وفارساً يجب علينا هدمه مستخدمين كل حيلنا وكل قوانا. ولقد وعدته أيضاً، بعد الجحيم، بفصل في المطهر، وبحياة جديدة في أوروبا، وذلك بغية أن أطيل متعتي بالحلم بنهايته. لم يظهر أحد أي فائدة كهذه إزائي.

إني أجرؤ أن أقول لقد عملت جيداً. ومن غير أن أترك نفسي تشرد بالمشاعر أو بالأدب، قد نذرت نفسي كلية لواجباتي. فالنبل يُجبر.

دعيت إلى احتفال رسمي في السلك العسكري، لا أعرف تشريفاً لأي شيء. كان استقبالاً للميداليات وللسيوف تحت أنوار بكرة القمار والنتوءات الذهبية التي لا يستغنى عنها. ألقى الكولونيل شارتييه خطاباً. وتبعه آخرون. تصفيق. ويوجد في الصالة عدد من الصفوف للعسكر من أصحاب الأوسمة وزوجاتهم. وثمة امرأة هائلة وضخمة مثل جبل تشغل كرسياً أو عدداً من الكراسي في الصف الأول. وكان ثوبها، وهو من الحرير الأزرق، منشوراً فوق بطنها كأنه شراع ضخم، وعلى مؤخرة موجة من الألبسة العسكرية. ولقد قدم إليّ الكولونيل، بعد الحفل الرسمي، رجلاً صغيراً له شارب وحواجبه كبيرة. «سيدي الجنرال، إليكم الفتى الذي حدثتكم عنه. ابن الكولونيل غوروستيزا». تفحّصني الرجل الصغير من القدمين إلى الرأس دون أن ينبس ببنت شفة.

ثمة شخص قدّر جهودي، لأن الكولونيل استدعاني إلى مكتبه يوم الأحد، بضعة أيام بعد الاحتفال. «هل تذهب إلى الصلاة؟ لا؟ هذا جيد. هذا شيء للتخنيث. سأخبرك بخبر طيب، أنت تستحقه». قال لي إن الجنرال (الأخير) يريد أن يرسلني إلى إسبانيا. قال الكولونيل: «إنه تغيير في الزينة، ولكنه تغيير إيجابي، كما أعتقد. فكل هذا القذر الذي نقوا بتنظيفه هنا، آخذ في السفر إلى الخارج، عند اليانكي، وعند الفرنسيين، وعند الريتال. ولكن بالخصوص عند الإسبانغوان، تصور هذا. والجنرال هنا يريد أن يتجنب بأن الجنرالية هناك تضجر من هذا الدفق. ولذا، سنذهب لكي نلقي نظرة هناك، لكي نرى ماذا يفعل كل هؤلاء اللصوص

في البلد الأم. ستنفّذ لي في مدريد العمل نفسه الذي تقوم به هنا. يجب أن تكون منتبهاً، وأن تعرف كيف تتعرف، ومتخفياً، وتقرع جرس الإنذار. يجب عليك أن تتخذ الأذن أداة، لأن اللسان الذي يتكلمون هناك ليس لسان الكاستيلان. ويجب أن تضحك بحنجرة واسعة».

كانت مدريد هي المكان المثالي بالنسبة إليّ. فهي في الآن نفسه ممتحنة ومستقبلة، وهي نوع يشبه المدرسة الداخلية. ألا وإن الحذر العام يناسبني. ولقد كان العمل على نحو من الأنحاء أكثر سهولة. فرئيس الشركة، حيث كان يجب أن أعمل (وحيث ظهرت بكنفي فقير مثل الآخرين)، كان عجوزاً صاحب رأس هوائي، يمضي لياليه في رؤية أفلام ساريتا مانسييل. وأما السلطة الحقيقية، فقد كان يمارسها مستخدم من وزارة الداخلية، ضامر وصامت، خاض الحرب في أفريقيا مع الجنرالية. في المرات الست أو السبع التي رأيته فيها، كان يكرر لي على نحو ثابت: «كل شيء يمضي جيداً. تابع هكذا».

إن الاعتقاد المسلم به والذي يقول إن الزمن يشفي الجروح، هو اعتقاد مغلوط: إننا نعتاد عليها، وهذا ليس هو الشيء نفسه. وهكذا، فقد استطعت أن أقبل سنواتي الأربعين بالصبغة الشمعية، والعطف من كيتا الرقيقة من غير أن يكون لديّ انطباع بأني أحلها محل الأخرى، والوحيدة، والغائبة. كنت أبسط كيتا وأحيرها. كما كنت فارسها الخادم. وهكذا كانت تسمّيني عندما كنا وحدنا. أما أنا، فقد لقّبتها ببيضائي السوداء. ولو أنها لم تتمسك إلا بي، لما ذهبت إلى لقائها. ولقد كان أن جاءت هي نحوي، بنظارتها

اللامعة، وفمها الذي يوشك أن يبتسم على الدوام، الزغب المرتجف قليلاً فوق شفتها العليا. ولقد أظهرت أنها كريمة إزائي، أكثر مما كان يجب مع شخص مثلي، ضحية مزورة، وعاشق غشاش، ودجال تماماً.

نلاحظ الآن ضرباً من الإشعاع في الباب، وظلاماً مضيئاً على نحو غامض، وضوءاً قذراً. أتقدم. أسمع صوت كيتا العسلي يرجوني أن أبقى معها، وأن لا أغادرها. ثمة شيء مقذع، وبذيء في كلمات الحب التي تلفظ بها شخص لا نحبه. وإننا لنلاحظ مباشرة اللعاب في زاوية الشفتين، والعرق الصغير منفجراً فوق الأنف، والأهداب الرمضاء تطرف بدلال. يلح صوت كيتا، وأنا أتقدم، أتقدم.

أريد أن يختفي كل شيء منها: صوتها، نظرتها، يديها. ولكنها تبقى، ويختلط نواحها مع نباح الكلبات، وأسنانها مع أسنانها المعوجة، وأظافرها الحمراء مع مخالبها. وإني لأريد أن أوجّه ضده هذا الرهط من الحيوانات والنساء. وإني لأريد أن أحرضهم ضده. كل هذه الحيوانات ذات الفرو الغريب والعيون المشتعلة. وضده أوجّه غضبي، ولكني لا أصل إلى شيء. لا أستطيع إلا أن أتقدم من غير أن أحس بأني أتقدم. كما لو أني أمشي ضمن إطار يضيق عليّ، ولولب أجد في مركزه ليس الآخر، ولكن أنا نفسي، الإنسان الذي كنته قبل مجيء هذا الذي أكونه اليوم.

إلى الأمام.

إن من بين اللاجئين الذين كانوا يمرون عبر مارتان - فييرو،

كانوا نادرين أولئك الذين يهموننا. فمعظمهم كانوا من المساكين الفقراء الذين استسلموا للهروب مثل الكلاب المطرودة بضربات المكانس. وأما الآخرون، المناضلون السابقون، فقد كانوا في الوقت الحاضر ينزفون حتى النخاع، عقم، وغير قادرين أن يبدوا أقل معارضة. وثمة عدد قليل من بينهم قد أصبحوا، أو هم في طريقهم كي يصبحوا طائعين وسادة وسيدات، ويحنون إلى أخلاق سنوات شبابهم، وعندهم استعداد لكي ينسوا كل شيء. إن هؤلاء وقعوا على هامش عمود الدين. ولكن يوجد أيضاً أولئك الذين ظلوا في عمود المدينين. وإنهم ليستمرون بالزعيق. ويطالبون بالتعويض، وبالثأر العام، وبالعدل المستقبلي. وإنهم ليجمعون الشهادات، والوثائق السرية، والإحصاءات الخاصة. وإنهم ليصنعون الذكريات. ويوزعون دور الملائكة المفوضين. إن هؤلاء كان يجب أن لا يعزبوا عن العين وأن تسجل أسماؤهم على سجل من البطاقات.

ومثل أي عمل رسمي، فإن للوشاية وظيفتها البيروقراطية. في أعلى السلم، يوجد غير المعروفين، أولئك الذين يأخذون القرارات الأولى والأخيرة، أولئك الذين ليس لهم حياة خاصة، فنانو الوظيفة العامة، أسياد التاريخ. ثم يأتي بعد ذلك الوسطاء، أولئك الذين ينقلون الأوامر، والذين يمتلكون هيئة هامة، واسماً، وحرساً. وأما من في الأدنى، فأولئك الذين ينفذون، أولئك الذين ينظفون، أولئك الذين يطلقون الرصاصة. وأخيراً، يوجد التابعون، أولئك الذين يصيخون السمع، ويفتحون العيون، ويسجلون الملاحظات، ويعيشون التجسس وإفشاء الأسرار. وأنا

من هؤلاء الأخيرين. فأنا أرى، وأسمع، وأنقل. وربما لهذا السبب لم أعد أملك من الآن فصاعداً لا أذنين، ولا عينين، ولا صوتاً. لم يعد لشيء وجود إلا في ذهني، وفي أذهانكم، أنتم الذين تحلمون بي.

ذات يوم، رأيته في مكتب البلانكا وعرفته. عرفت وجهه الرهيب بسماته الناعمة، وجهه الذي هو وجه نجم لمسلسل تلفزيوني، وجهه الذي هو وجه لإعلان دعائي، وجهه الحالم والخبيث في الآن ذاته، وجهه الذي ينبثق بالقرب من كتب مارتان - فييرو كما لو أنه قمر هائل من الدم. إنه هنا، جهنمي، مغرور في عيني مثل قطعة من زجاج، وجهه المتطابق مع ألف وجه آخر، ألف وجه آخر هادئين مثله ومبتسمين، ألف وجه لم يكونوا سوى واحد عندما مالت فوق أذنه المدماة لكي تنظفها له. إنه هنا، في هذا اليوم الذي طلب مني بلانكافيه أن أمر على مكتبه لكي أشير إلى رجل بالأصبع، واقفاً بالقرب من المكتبة، يشبه هذه التماثيل الصينية القديمة في أرض مليئة بالجذام. ينتظرني هنا، كما أنتظره، كنت أنتظره، منذ ذلك المساء الشهير. تصافحنا. وبينما كان يقول لي اسمه، كنت أقول لنفسي: كيف أجعله يتألم.

وأثناء الشهور التي تتابعت، تقاطعت طرقنا مئات المرات، قدرياً. يتكرر تعاقب لصوره: في المقهى، في الشارع، عند مارتان - فييرو، عند الخروج من مسرح، في أمسية من الأماسي. كنا نرى بعضنا في الاجتماعات، وفي لحظات الخروج مع الأصدقاء، وفي شارع في الصيف، وفي الشتاء في المقهى، كلمة من هنا، صباح الخير من هناك، ولا شيء أبداً يستطيع أن يشك

بهذه الحميمية التي نتقاسمها سراً، هذا الماضي المشترك. نحن متنافسان من غير علم منا: هو يجهله، وأنا لا أعرف كيف أنساه. وفي حين أن صورتها كانت تتلاشى، فإن صورته، هو، كانت تفرض نفسها، واضحة وخفيفة السرعة كما في رواق من المرايا.

لننظر إلى الوجه التقني للأشياء. ترسم إبرة كاشف الكذب فوق بكرة الورق خطاً متعرجاً يبدو أنه لا يتبع أي هدف: إن الخط المرسوم لا يصبح مستقيماً وبيناً إلا في لحظة الحقيقة المطلقة. وهذه السمة الدائمة والمستقيمة هي أيضاً تلك التي يرسمها راسم الدماغ عند وفاة المريض. ويجب مراقبة الاثنين أثناء الاستجواب: إنهما لا يشيران أبداً إلى الحالة نفسها. ومهمتي هي الحصول على الحقيقة من غير وضع نهاية للحياة. ولقد وضعت لقاءاتنا منذ الانطلاق تحت مؤشر الإبرة لملاحظة الرياء. فأنا ألهم الآخر الاستقامة وما لا يمكن تجنبه.

وما من مشهد إلا ويؤديه متنافسون وممثلون صامتون يذهبون ويجيئون بين خشبة المسرح والممرات الخلفية. وإننا لنجد فيهم بيران الذي لا يحتمل، المضحك، الشاعر المزيف، أو الكوبي السافل، السارق والمثقف، وإني لأسأل نفسي ما هو أسوأ من هذا. ومن بينهم أيضاً المرأة التي يقال إنها كوبية والتي هددتها ذات يوم لكي تتكلم. وكذلك كاميلو أوركييتا المولّد، والذي يجلب إلى العالم مسوخاً من الحبر. وأصدقاء مجهولون. وأعداء ضروريون. وبعض السيدات الشغوفات. وصغار التابعين. وأعضاء من الفرقة. والمتهتكات.

كانت النساء تشفقن عليّ دائماً. وهذا ليس هو المثال الذي

يوحي بحب متأجج، كهذا الذي انتظرته دائماً، أنا، الشاعر المحروم. وما حاولت أن أكتبه في موضوع الأدب، خانني بلا رحمة. وهذا أفضل، فالعار أصغر حجماً. وكانت النساء يواسينني عندما كنت أرغب أن يمتن من أجلي وهن يشددن الخزامى على صدروهن. مواساة بائسة تشبه مواساة المريض الذي يعلم بأن معشوقته، بعد أن بللت بحنان شفتيه، وجلست على طرف سريره، ستركض في نهاية الزيارة لكي ترتمي بين ذراعي رجل آخر.

هو، على العكس من ذلك، لقد كان معشوقاً من غير أن يحتاج أن يحرك أصبعه الصغير. لماذا؟ وحدها أندريا قد نجحت في احتفاظها به قريباً منها. وكان يجب رؤيتها مختالة عندما تقول: إنه عندي، نأكل معاً، ونتقاسم الحمام، ونستيقظ في السرير نفسه. كان بالنسبة إلى أندريا طبعة نادرة لعمل كبير وشهير جداً.

أنتظر.

الانتظار فن. يجب على المرء أن يدرس، وأن يتمرن. كنت أراقب، وأسجل، وأنقل الخبر، وأتوقع. ذات يوم، سمعت رجل ميرسي يقول: يمتلك غوروستيزا صبر الأفريقي. وفهمت ماذا يريد أن يقول. مثل السفنكس. ومثل الأهرامات. وقائع من رمل.

وجاءت قصة «مديح الكذب». إنه عمل تافه. قرأته، بكل تأكيد. ولما كنت مندهشاً من كم النفاق الغبي، وغاضباً ضد سدنة الأدب، فقد حظيت برضى تافه إذ علمت أن عدوي قد أخفق. فـ«مديح الكذب» كتاب مدعٍ، وبلا رونق، ولا حياة. فكيف استطاعوا القول وإعادة القول إنه رائعة من الروائع؟ لقد استمعت

إلى الثناء من اعتراض، لأنه ليس ثمة من يعير كلامي انتباهاً، وليس ثمة من يسمع انتقادي، في وسط هذا الموكب من الملائكة العابدة؟

وليس ما تبقى سوى نكتة محضة: مغامرات من الكاتب، انقلاب في النشر، دلال من الجمهور. واحتجاجاتي ضرب من العبث. فالكتاب، هذا الكتاب يوجد الآن كما يوجد كوكب أو نهر، لا أهمية لمن يعود مجراه أو لمن يغطس فيه. كتاب «مديح الكذب» يقع خارج زمانيتنا البائسة. ولقد عزونا إليه تسمية العمل غير الزمني. سيكون عملاً خالداً، تماماً رغماً عني. فالأرض منبسطة والشمس تدور حولها.

ولكن ليس هو. هو، يجب أن يفرم فرماً دقيقاً، وأن يحترق كما لو أنه كومة من الزبالة، وأن يتفسخ في البالوعة. وعندي وسائل هذه الرغبة. فلقد جمعت حول شخصه ملفاً مليئاً. ويكفي الآن الكشف عنه. شلكانية محضة. فرجل مورسييه، لما كان متعطشاً إلى عظائمه الماضية، وإن كانت مكذوبة بكل تفاصيلها، فإنه سيعطي ضمانة. وأي لحظة أفضل من يوم تتويجه الفني؟ تلقيت دعوة للإطلاق متناسبة مع بعض الكلمات المدغدغة للمشاعر كتبتها يد أوركييتا. ذهبت باكراً.

إن ملف الاتهامات الذي نملكه عن مكتبة أنطونيو ماشادو كان ناتجاً له. كتب ممنوعة. ومجلات محظورة. ومؤلفون مزعجون. وقراء لا يشمئزون أمام السياسة ولا أمام الفضائح الجنسية. مكائد مع الجمارك، والحرس المدني، والكنيسة. ذهاب وإياب من بعض غير المرغوب فيهم. أحاديث، وحتى قراءات، غير مقبولة.

كل النخبة الثقافية المتعجرفة والمستنيرة كما يقال، كانت حاضرة. وكل أولئك الذين كانت تحيط نفسها بهم كانوا هنا. وكان يجب التحرك.

ذات يوم، وقبل الإطلاق بعدة أشهر، والأمر سري أيضاً، فقد رجاني رجل مورسي بأن أذهب لكي أرى النتائج. وصلت في الصباح باكراً. كانت واجهة المكتبة متفحمة، والزجاج قد تطاير قطعاً. ثمة أوراق سوداء تتطاير في الهواء، وجاء عدد من الفضوليين لكي يروا الحروف الناجية. وقليل من الخراب كان في داخل المؤسسة. وطبقات الكتب لا تزال فوق الطاولات، والمجلدات مصفوفة فوق الرفوف، والكل مغطى بطبقة من الرماد الفحمي. وقلت لنفسي: ليس بالغ السوء، وذلك إذ رأيت امرأة تبكي قريباً من الباب. وسأل رجل يرتدي قميصاً أبيض: من أولئك السفلة الذين فعلوا هذا؟ قلت في نفسي: إنهم مقاتلو المسيح - الملك. إنهم أولاد زنى مدعون، مكتبيو الله. ولقد أحببت أن أقول لهم إن مثل هذه التصرفات لا تقود إلى شيء، الأغبياء. كما لو أن لهذا أهمية ما فيتحمس الأطفال من أجل مجموعات شعرية صغيرة. رأيت غلافاً محروقاً وحاولت أن أتذكر الأبيات التي اعتقدت أنني نسيتها. ولكني لم أنجح. اتجهت نحو المرأة وسألتها إذا كنت أستطيع أن أساعدها. وبما أنها لم تقل شيئاً، فقد بدأت أجمع الكتب التي نثرها الانفجار. حشوت واحداً في جيبي. للذكرى.

كنت أفطر، ذات يوم، مع كيتا، قالت لي إننا سنذهب غداً إلى إطلاق كتاب. حزرت ما هو المقصود. ذكرت عنوان

الكتاب، والمؤلف. نظرت إليها في حين أن فكيها كانا يهرسان قطعة من اللحم، والزغب الذي يشرف على شفتيها يلمع بالزيت. أنا لا أحتمل أن أراها تأكل. إنها تقطع الخبز، تحمل قطعة إلى فمها، وتعيد قول الاسم فكان كما لو أنها تبلع بصقة في الوقت نفسه الذي تبلع فيه قطعة الخبز. وبعد ذلك، أخذت تفاحة وعضت فيها. وتوضع خليط من الرغوة واللعاب في زوايا شفتيها. كانت تتكلم عن لقاء الغد وهي تمضغ الفاكهة بحماسة. وعندما كانت تفتح فمها، كنا نرى كرة بيضاء كبيرة تطفو فوق لسانها الملون بخضار الأرض. إنها تتكلم وتأكل، تأكل وتتكلم. إن كيتا التي يخيفها الصمت، قد اختفت الآن، غصت في الضباب.

ينتصب في الضباب مثل عمودين الشخصان اللذان يهمانني، هي وهو، متخاصرين، ينبثقان ويكبران تحت عيني. وأمام ما ستكون عيناي إذا كانتا تستطيعان أن تريا. هو مع موكبه المختفي من النساء، هو الذي كان معها. هو الذي اصطفته. بقيا هنا، إنهما منبثقان، متحدان، اثنان في واحد. والسبب لأنها حتى عندما لا تكون هنا، فهي دائماً معه. وأنا لم أستطع فصلهما الواحد عن الآخر.

إلى الأمام.

الحفل الرسمي حيث يقدمان، هو وكتابه. حمقى يكلمونه، الرجال يعجبون به، النساء يرغبون به ويحمونه. إنه مثل ملك، صامت. لماذا الكلام عندما يشهرك الناس جميعاً؟ ومن غير كثير من الدهشة، أرى بين الجمهور رجلي الكوبي وزوجته، تلك ذات القبعة الخالدة، تلك التي من المفترض أنها ماتت. فإذا نجحت

في حصارهم، الثلاثة جميعاً، فأي احتفال أدبر، وأي تقديم أعد، وأي محرقة للشيطان وللملك - المسيح أحضر؟

هو، في الواجهة. هو الذي لم ينبس بعد ببنت شفة. هو، المفزوع فجأة. هو، الراكض باتجاه الشارع. الحضور متحير، من غير صوت، مكلل بالعار. اتخذت القرار بالسير خلفه. يصل أمام باب. يدخل. أرى نوراً يضيء. أنتظر. انبثقت كيتا، مضطربة، غير متكتمة. كيتا التي تخرج بالدموع، المسكينة الحمقاء. قررت حينئذ أن أدخل بدوري. أقرع الجرس. جاء يفتح. دخلت إلى البهو. تحدثنا. حاولت أن أفتح الباب الذي وراءه وحاول أن يمنعني. لاحظت الكوبي المقزز. قلت له: مرحباً الغوريه، ثم وضعت حقيبتي فوق كرسي، كما لو أني قد دخلت إلى بيتي بعد أن انتظرت هذه اللحظة طويلاً. قلت لصاحبته الضعيفة العائدة للحياة: صباح الخير، يا سيدتي.

نظر الكوبي إليّ، لم أستطع أن أفك شفرة نظرته. اتجهت المرأة إليّ ببرطمة، نصف - احتقار، ونصف - دلع. قالت لي: نحن على وشك المغادرة.

أجبتها: ابقيا. أو ربما أمرتها، لا أهمية لذلك. رويت لهما أني سأسأل الآخر كيف يفكران في توزيع المال الموضوع في سويسرا. وذلك لكي يعرفا بأني على علم بالأمر. وأيضاً، لكي يخافا أكثر. ولكي يرتجف، هو، فريستي، أكثر.

ولكنه تظاهر بعدم الفهم، وبعدم المعرفة عن ماذا أتكلم. أقترح عليه أن يطلب تفسيرات من صديقه المكرش. في الواقع، لا يهمني أن يعرف أو لا. ليس عقدة الذنب هذه ما يهمني.

أحسست حينئذ أني أختنق، وأن الهواء ينقصني. ذهبت إلى الباب - النافذة للشرفة وفتحته على مصراعه. حاول إغلاقه. حجزت ممره. ألح. أثناء هذا، استأذن الكوبي ودجاجته بالذهاب، وهما بلا ريب يموتان خوفاً. وقبل أن يخرجا قالا له إن كتابه رائع. ولقد كذبا حتى النهاية. لا يهم. إنه لم يكلف نفسه حتى بالنظر إليهما. إنه ينظر إليّ.

انبثق ذراعان من عمق الضباب، رفيعان ومشعران. أحاط الذراعان بي. انغرزا في جسدي. انبثقت من اليدين جذور تعلقت بجلدي، وغرست فيه مجسات صغيرة، حافرة اللحم حتى نخاع العظم. الذراعان تحيطان بي، ولديّ انطباع بأني أتوارى تحت انتشارهما.

أريد أن أفتح الباب - النافذة. ويريد أن يغلقه. تصارعنا. أضاء نور في البناية المقابلة. وحينئذ جمعت قواي وأزحت ذراعه. أحسه يتمايل على درابزين الشرفة. وثبة في الهواء، سقوط يشبه قفزة، وصوت مرعب لجسد ينهرس على بلاط الرصيف. وخلال لحظات طويلة، لم أدرِ إذا كنت أنا الذي سقط أو هو.

أغلقت الباب - النافذة، وأخذت محفظتي، وخرجت إلى قرص الدرج، وهبطت الدرك ركضاً. وتابعت في الشارع ركضي من غير أن أسترد أنفاسي تقريباً. في الأعلى، أمام أضواء المسرح، توقفت، متحمساً. قلت لنفسي: لقد انتهى الأمر. ها قد انتهى. لم يعد هنا، ولم تعد هي هنا، لم يعد سواي، هنا، واقفاً، حراً، بعد كل هذا الوقت. وإني مستعد أن أبدأ من الصفر، وأن أتخلص من جلدي القديم، أغتسل، أتطهر، صفحة واحد، كان

ذات مرة. قلت لنفسي: لن أقابله أبداً، لقد غادر إلى الأبد. لم يعد بالإمكان انتظاره، إنه في مكان خارج هذا الأفق الذي لا أدركه والذي يبتعد كلما تقدمت.

تغشى الرطوبة كل شيء في مدريد، مثل بخار تزفره الأحجار. والليل يرخي سدوله على ضوء الفوانيس الصغيرة. والهواء يغدو رطباً، ويفوح بالجذام. أمشي خلال الباب الرطب، وصولاً إلى بيتي، من غير أن أميز الأشجار من الرجال. أصل أمام باب العمارة، أصعد، أجلس إلى طاولتي. قبل الصباح، عندما سيصبح كل شيء مختلفاً، سأكون بحاجة إلى النوم.

أسكب كأساً كبيرةً من خمر جيريز الذي أعطتنيه أوركييتا. ثم كأساً ثانية. وأخرى أيضاً. أنهيت الزجاجة، وبدأت أخرى جديدة. لقد كان من لطف أوركييتا فتح الزجاجات قبل تقديمها، وذلك لكي يستطيع الجمهور أن يخدم نفسه بحرية. ولكن لم يحدث التقديم. فالنجم هرب. وأي عار عانت منه إذ رأت بطلها يهرب مثل دجاجة مبللة. أي خيبة، أي بلية. في الوقت الراهن، الفنان هو أنا، البطل المنتصر، والفارس الوحيد الذي يؤدي عمله. وإني لأشعر بما كان يجب أن يشعر به كبار الممثلين عندما ينزل الستار بعد عرض رائع. ثمة تعب متجدد، ونشوة مرهقة. ولكن ثمة عقدة في الحلق.

هناك احتدام، واختناق. شيء ما يتمزق في أعماق فمي، يفجر عروقي، ولحمي. كل شيء نار ودخان. أحتاج إلى الماء والهواء. تلتهم ألسنة اللهب حالياً أحشائي. ولقد أصبحت أصابعي تحت أظافري متأججة، وحمراء، ثم سوداء. رئتاي تتخبطان،

إنهما طائران كبيران مذبوحان. وجناحاهما ذواتا القشور تسوطان الهواء لكي تعيش. ولا شيء يمكنه أن يملأهما، لا شيء إلا دم حار مثل الحمم.

الصراخ مستحيل، ومستحيل إعطاء صوت لهذا الاحتضار المتفاقم. وكثير من الألم لا يمكن تصوره في هذا اللحم الذي يتفتت، وهذا الرأس الذي يتهشم، وهذه الأعضاء التي تتفكك وتتحول إلى جمر. أحس أن وجهي يذهب قطعاً، وأعضائي تتفتت. الألم. أختفي في عاصفة متأججة.

وفجأة، لم يعد ثمة ألم. ولا جسد. ولا شيء، إلا في ذكرياتي.

أريد أن يستيقظ حالمي. وأن يأخذ كل هذا حداً.

لا أرى شيئاً.

لا أسمع شيئاً.

لا أحس شيئاً.

V
قطع

إذا سألني الله وفي يده اليمنئ كل
الحقيقة وفي اليسرى البحث عن الحقيقة
فقط، ومبيناً بدقة بأنني سأخطئ
دائماً، ثم يقول لي بعد ذلك: اختر!،
فإني بتواضع سآخذ يده اليسرى، وسأقول
له: أيها الأب، أعطني هذه! فلك وحدك
تعود الحقيقة المطلقة

غوتهولدا إفرام ليسينم

هنا تنتهي القصة. والقارئ الحقيقي لم تعد به حاجة لكي يتابع القراءة. فكل شيء قد تم قولاً، على الأقل ما هو مهم. ومعرفة من قتل من، وكيف، ولماذا، هذه قضايا لا تهم إلا البيروقراطي أو مفتش الشرطة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم لن يقرأوا هذه الصفحات. والشخصية التي استطعت أن أعرضها بوساطة شخص وسيط لم يعد لها وجود تقريباً. وهي تتراوح بين فرضية وأخرى، وذلك تبعاً لموافقة صورتها مع ثوابت وأحكام

مسبقة معينة. إنها تغير من هيئتها مثل هذه التماثيل في الحديقة التي، تبعاً للضوء، تتحول بشكل خفي خلال النهار. وهذا ما لا يمكن تصوره بما هو تمثيل للحقيقة. فهذا لا يعد إلا جزءاً من العمل الصحفي.

ومهما كان اعتقادي متواضعاً، فإنها لا تستحق أن أخونها. والصحفي لا يقف على أثر كلية هؤلاء البيفيلاكا المختلفين. إذ إن كل وجوه الواقع لا تهمه. فقط ثمة وجه، لو كان صادقاً - بل لا يوجد واحد. وإنه ليكتب من أجل هذا. من أجل أن يعرضه من زاوية خاصة، شخصية. وأعتقد اليوم أن هذه الرغبة هي التي دفعتني نحو الصحافة. فأنا أعرف اسمي في أسفل عمود مطبوع. وأعلن أني مسؤول عن هذا الأخير. وأنا أقول ما أحس به، وأبني قصصاً، وأعيد ربط خيوط غير مرئية. ولذا، فأنا حين أوصل رؤيتي للعالم، فإني أسعد سراً.

وربما يكون هنا تعريف الصحفي، على العكس من ادعاء هذه الموضوعية التي نعيره إياها. إن جدي، الناجي من الحرب، كان يقول لي انظر دائماً إلى الجانب المخبوء من الحجر، هنا حيث الصلب يترك مكاناً للأرض، وللطحالب، وللحشرات. كان جدي إسبانياً، من قرية ساحلية حيث لم أذهب قط والتي تسمى القديس فيلبو غيكسول. وكان أبي يمنعنا من طرح أسئلة عن هذه السنوات على جدنا، ولكني وأختي، كنا نهمس له في أذنه: «قل، يا جدي، هل قتلت أحداً أثناء الحرب؟» أو أيضاً: «يا جدي، هل صحيح أنكم كنتم تأكلون الفئران لكي لا تموتوا من الجوع؟» كان يبتسم حينئذ، وكان جوابه بالإيجاب حتماً. وبعد موت جدتي،

جاء به أبي لكي يعيش عندنا، لأنه حاول أن يضع حداً لأيامه مرتين. ونحن، لن نتركه وحده أبداً.

كنا نمضي وقتنا معه، ومع ذلك ما كنا نعلم شيئاً كبيراً عن حياته. ولقد علمت مصادفة فقط منذ بضع سنوات بفضل أستاذ عجوز يعمل في مدرسة فيكتور هيغو، كيف وصل إلى بواتييه. فالأستاذ عندما سمع اسمي، روى لي أنه عرف شخصاً يدعى تيراديلوس في عام ١٩٣٩، أثناء سنوات منفى الإسبانيين، وحينئذ كان الاثنان في الثامنة عشرة من العمر. وعلمت أن جدي قد عمل بنّاءً في برشلونة، وأنه التحق، لا أدري بأي ظروف، بجماعة قومية، بفرانكيين، ومع ذلك، فأنا أظن أن جدي كان لديه اعتقاد سياسي حقيقي. وأتصور أن الأصوات الضخمة كانت تجذبه، وكذلك العقيدة البسيطة، وشيء من إيمان خرافي رافقه تقريباً إلى نهاية حياته، وحضه كي يرسم علامة الصليب في كل مرة يمر فيها أمام كنيسة.

وعندما علم الناس بأن القوميين قد وصلوا إلى أبواب المدينة، خرج جدي وأصدقاؤه من مخبئهم لكي يلعبوا لعبة الفارس التائه وينتظروهم في مشفى الكلينيكو حيث كان لديهم ما يشبه معجزة إخراج اللحم، نقانق وخمراً. فمنذ أسابيع لم يتغذَّ الشعب إلا بالأرز. ولقد سكر جدي إلى درجة أنه راح يتقلب تحت الطاولة.

استيقظ في اليوم الثاني عارياً تقريباً، وذلك في الحديقة خلف المستشفى. كان ثمة صف طويل يتقدم صامتاً، ماشياً أو في عربات تشدها البغال أو حتى الرجال. مدهوشاً، اعتقد بداية أن

القوميين قد وصلوا. ثم فهم أنهم جمهوريون هاربون نحو الحدود. وخوفاً من أن يعرف، تدثر بغطاء والتحق بالموكب. كانت المسافة بين برشلونة والحدود الفرنسية طويلة. ولقد وجدها جدي بلا نهاية.

عندما رأوا أخيراً الجنود الفرنسيين يأتون للقائهم، رمى السلاح أرضاً أولئك الذين كانوا يحتفظون بسلاحهم. وضع الفرنسيون الحليب في طناجر كبيرة لغليه، وكلما مر الإسبانيون، كانوا يعطون كل واحد منهم طاسة ساخنة وقطعة من الخبز. فُصل الرجال عن النساء وعن الأطفال، ثم أُرسلوا إلى مخيمات مختلفة للحجز. وتبع جدي الحركة.

راح في هذه الليلة يسعل ويختنق. رأى ممرض فرنسي فيه أعراض ذات الرئة وسأله اسمه. جدي قاله له، ثم ملحاً بطريقة مثيرة للريبة، أعلن أنه ينتمي إلى كتيبة من القوميين الذين كان الإسبان يسوسونهم على نحو شبه كامل، وذلك قبل انحلالهم في خريف ١٩٣٩ (كما شرح لي الأستاذ هذا). لم يكن الممرض أكبر من جدي بكثير، ومن غير أن يرمش سجّل معلوماته على الوثيقة الرسمية. وبعد بضعة أسابيع، وتحت هويته الجديدة بوصفه لاجئاً جمهورياً، أُخرج جدي من مخيم الحدود وأُرسل إلى مركز قريب من بواتييه. وهناك تعرف على جدتي التي كانت تعمل في مزرعة قريبة. وُلد أبي بعد ثلاث سنوات.

كانت عائلة جدتي وعائلة الأستاذ جيراناً. وحكاية القادم الجديد رويت ثم أختنقت. وبواتييه هي تقليد طويل من الحكايات السرية، والتي بدأت من غير ريب منذ ذلك الصباح البعيد حيث

صد شارل مارتيل المور (العرب)، وحيث غرس عشرات من الرجال المتعبين جذورهم السمراء في هذه المنطقة المأهولة اليوم بالمورو، موران، موريسه، موريسون. . .

أجهل إذا كان مثل هذا الكتمان يفسر من نحن. وأجهل كذلك إذا كانت حكاية جدي مسؤولة عن فضول إزاء السمة الريبية، غير المحددة والغامضة لبعض الشخصيات. والأمر هو أني تهيأت لكي أكتب السيرة الذاتية لكائن متباين، والذي تؤلف عناصره المضاعفة خلا قراءتي هذا الأليجاندرو بيفيلاكا الوحيد والمتماسك والذي ينتمي إليّ.

عندما جاءتني فكرة الكتابة عنه، تخيلت دراسة طويلة متعددة الموضوعات وموثقة جيداً، سيرة ذاتية ذات نمط روائي مخفف بقصد القارئ الحساس، مليئة بالملاحظات العالمة الموجهة للباحثين. لقد كان قصدي أن أجمل صورة لهذا الرجل الخفي، هي أن أصعد إلى أصوله، في الروشيل، نحو نهاية القرن التاسع عشر، وراوياً الحكاية الأسطورية لعائلة غيتون، وللفتاة مرييتا، وللانتقال المتعب بين أوروبا وأمريكا الجنوبية، واللقاء مع البيفيلاكيين الريفيين، وذلك لكي أنتهي بعد بضع من الصفحات حول العمل الرائع وموت الكاتب المزيف.

ولكن هذا، كان من قبل. أما الآن، فأنا إذ أعرف (أو أعتقد أني أعرف) حكاية أليجاندور بيفيلاكا، فإني أعرف أيضاً أني لن أكتبها.

وهذا يعود، جزئياً، لأنها غير موجودة بوصفها هكذا، أي بوصفها الحكاية التي ينتظرها قراء «مديح الكذب» بمثابة تمهيد (أو

خاتمة بارعة) لهذا الكتاب الشبح، السيرة الذاتية لهذا الطيف المجهول الذي يغتصب اليوم عنوان المؤلف في مكتبات العالم كله. وهذا يعود، في جزء آخر أيضاً لأني، بسبب عدم كفاية في الذكاء وفي الموهبة، أخاف أن أكون غير قادر أن أرويها كما يجب أن تكون. ولكن أيضاً لأني أجهل أيها الحقيقي حتى ولو وصلت إليها، وذلك بين مختلف النسخ التي جمعتها عنها.

هذا هو التناقض الذي ينقض عزمي. فالصحفي الصادق (إذا كان هذا موجوداً على كل حال) يعلم أنه لا يستطيع أن يروي الحقيقة كاملة: كل ما يستطيع أن يرويه في الأغلب هو مظهر للحقيقة، عرض تبدو فيه شبيهة. ولهذه الغاية، فإن السيرة الذاتية يجب أن تعطي انطباعاً بأنها غير كاملة، وأن تتوقف قبل أن تصل إلى الصفحة الأخيرة، وأن تتخلى عن الخلاصة. ولكن إذا كان حقيقياً أننا في الواقع، نقبل أن تكون انطباعاتنا غامضة براحة ومتناقضة، ففي مؤلف صحفي، خصوصاً إذا كان يريد أن يرسم لوحة لشخص من لحم وعظم، فإن الأسلوب الورع سيكون غير مقبول أيضاً.

إن أي طالب (على كل حال، إن أي طالب من طلاب مدرسة فيكتور هيغو) يعلم أن نظرية النسبية العامة تفسر ظواهر الكون الكبرى هنا حيث المادة تلوي المكان والزمان. وإن نظرية الكم المحدود تبين لا نهائية الصغير هنا حيث المادة والطاقة تنقسمان إلى أجزاء صغيرة جداً. وإن كل نظرية من هذه النظريات، في ميدانها الخاص، ذات فائدة واسعة. ولكن إذا حاولنا أن نطبقها معاً، فسنكتشف أنها لا تتلاءم معاً على الإطلاق. ولذا، فإنه

ينقصنا نظرية وحيدة، تفسر العالم في كليته. وإذا كان ذلك كذلك، فكيف أستطيع أن أقترح واحدة تفسر على نحو كامل هذا الجزء الصغير من العالم والذي هو أليجاندرو بيفيلاكا؟

ومع ذلك، فإن حوافزي ليست أدبية وعلمية فقط. إنها شيء آخر، أكثر حميمية وعمقاً. وسأشرح.

لقد أحببت اللعب دائماً، وخصوصاً القديمة منها: ألعاب البناء الخشبية مع المكعبات، والأقواس والأعمدة المصبوغة بالأحمر والأخضر الحائلين. وكذلك الحيوانات المصنوعة من الرصاص، والذي يحث وزنها اليد لكي تزنها بالخيط الهندي فوق السجادة. وأيضاً لعب الوز النبيل مع مغامراته ومخاطره المرئية. والكيلبيتو الخرافي الذي يبدو أنه يتحدى قانون الجاذبية. والمشكالات التي تحاول أن تعطي تماسكاً لنظرية نشأة الكون المضيئة والمجزأة. وقد كان من عادة جدي أن يذهب إلى حانوت بعينه، لم يعد موجوداً اليوم، لكي يشتري لي شيئاً من هذه الأشياء النادرة والمثيرة التي يصنعها متقاعدو المنشرة القديمة خلال أوقات ما بعد الظهر التي لا تنتهي لديهم. ولم يحاول قط أن يستميلني بألعاب أكثر إغواء.

ثمة واحدة من هذه الألعاب فتنتني دائماً على نحو خاص. إنها لعبة من النوع الذي يتعب الرأس. إنها توضع ضمن علبة مربعة صغيرة، غطاؤها مزين بمشهد صيني مزعوم. ويشتمل اللعب فيها على سلسلة من الأشكال الهندسية التي يجب وضعها فوق ورقة مربعة من أجل تقديم موضوعات مختلفة: موظف كبير، أرنب، برج، سيدة ممسكة بمظلة. ويبدو الشيء سهلاً،

ولكن لا أبداً. إذ يجب تغطية الشكل المرسوم بمساعدة الأشكال السوداء. وقد كان من النادر أن أنجح في جعلها تتطابق تماماً. كان ينقصني دائماً أو تزيد دائماً قطعة.

تعدّ حالة بيفيلاكا واحدة من هذه الألعاب المخفقة. والمحيط السلبي للرجل يرتسم متميزاً في مخيلتي، ولكن لكي أملأه، لديّ ما يكفي أو ليس لديّ ما يكفي من العناصر المعلوماتية. ولقد حاولت -عبثاً- أن أنظم الشهادات، وحاولت أن أشذبها أو أن أقلبها، ولكن كان يوجد دائماً شهادة لا تنسجم مع الشهادات الأخرى، فهي إما أنها تتجاوز أو أنها لا تغطي تماماً ما سأسميه النسخة الحقة.

ليست هي المرة الأولى التي أفشل فيها في تحقيق من هذا النوع. وفي مثل هذه الحالات، فإن على الصحفي الذي يحترم نفسه أن يعرف كيف ينقض وعده. بكرامة. ولا يوجد عار في هذا. وأنا لا أجد غضاضة في قبول فشلي: إن اللوحة الوفية لأليجاندرو بيفيلاكا تنتظر أياديَ أكثر مهارة من يدي.

ومع ذلك، إذا كان عليّ أن أدافع عن قضيتي أو أن أبرر جهدي لكي أصف شخصية بالغة الغموض والعتمة، فسأقول، مهما كانت استيهامية، إن بيفيلاكا يجسد بالنسبة إليّ نوعية مرعبة في إنسانيتها. إذ لا يوجد شيء بطولي في هذا، ولا جرأة، ولا حتى شغف، ولكن يوجد شيء أقل فخامة، وأكثر تفاهة. نوعية قائمة في منتصف الطريق بين الضلال والرغبة، بين ما نقوله خطأ وما نحاول أن نؤكده زيفاً. إذ ليس الكذب هو الذي يفترض وجود فعل مقصود وشكلاً فنياً، وكذلك اعترافاً بالحقيقة التي سنخونها. لا، إن المقصود هو

نوعية أكثر إزعاجاً، وأكثر مأساوية، وأكثر حساسية، وأكثر جوهرية. وأريد أن أتكلم عن هذه النوعية التي، في أيام معينة من أيام القيظ، تبدو لنا بأن الزفت المعدني قد أصبح ماء، وتجعلنا نضع يداً على كتف امرأة نخلط تنورتها مع تنورة صديقة ضائعة، والتي تجعلنا نصعد إلى طابق نعتقد بأنه طابقنا، فنقرع باباً يقف خلفه مجهول يستعد لارتكاب عمل لا يمكن إصلاحه.

قلت إني أبحث، أو كنت أبحث، عن النسخة الفريدة، النسخة الحقة. وفي الحالة التي يمثلها بيفيلاكا، فإن هذه النسخة ربما يكون قد كشف عنها، من غير علم مني، واحد من شهود حياته ممن كان له ثقة بي. ولكن من أجل معرفتها (أنا الصحفي، من يعترفون إليه) كان يجب أن أكون قادراً على التحقق منها ومعرفة مزاياها مقدماً كما الأعمى الذي يحزر تدرجات اللون أو الأصم الذي يسمع نغمية الموسيقى. وأريد أن أقول بهذا: كان يجب أن أعرف من هو بيفيلاكا لكي أعرف إذا كانت اللوحة التي تقدم إليّ عنه وفية أو لا.

وسأذهب حتى إلى أبعد من هذا. وأسأل نفسي إذا كان بيفيلاكا نفسه يعرف نفسه في مجموعة هذه التأويلات للسيرة الذاتية. إذ كيف نعرف بين كثير من الصور التي ترسلها لنا المرايا، أيها يعكسنا على نحو وفيّ، وأيها يخوننا؟ وكيف، من مكاننا البالغ الصغر في العالم، نلاحظ أنفسنا بأنفسنا من غير أن نحشر أنفسنا في الخيال، وكيف نميز الرغبة من الواقع؟

أثناء طفولتي البواتيفينية، كنت ذات يوم شاهداً لحادث يظهر هذه المعضلة على نحو غامض. كنا نعيش، أهلي، وأختي،

وجدي، وأنا، قريباً من حديقة بوساك، في واحد من الأبنية التي بنيت في الستينيات تحت «برج العصفور». وكانت مدرستي قريبة جداً، بالضبط قبل جسر القديس سيبريان فوق نهر كلان. ويمتد الطريق الذي يؤدي من بيتي إلى المدرسة، في جزء كبير منه، على ذراع النهر. وكان جدي الذي يصاحبني أحياناً رغم كبر سنه، يمشي في هذا اليوم أمامي. ولقد جعلت أمطار الربيع المياه تصعد، وتهدد بالغرق وكر عشرات القطط الأهلية. وفجأة، على صعيد المنشرة القديمة، رأيت جدي يرفع كتفيه قليلاً ويقفز في الماء. كنت غير قادر أن أصرخ ولا أن أتحرك. ولقد أخطرت أصوات الساكنين على شاطئيه شرطياً كان يسكن في المنطقة. وإني لأتذكره جيداً. إنه امرؤ كبير هزيل، بطيء الحركات، ويرتدي دائماً زياً رسمياً رائعاً. عندما اقترب من الضفة، نزع سلاحه، ووجّهه نحو المنتحر صارخاً به: «اخرج من الماء أو سأطلق النار». امتثل جدي للأمر وعدنا إلى البيت صامتين، هو يزرب ماء، وأنا مذعور. وأعتقد أن بيفيلاكا كان سيطيع على الأرجح أيضاً.

لقد قررت أن لا أكتب صورة بيفيلاكا: عاشقاً، وبطلاً، وصديقاً، وضحية، وخائناً، وكاتباً مزيفاً، ومنتحراً عرضاً، وأشياء كثيرة أخرى. وهذا كثير بالنسبة إلى رجل واحد. وأنا أعرف حدودي. وفي الوقت نفسه، فإني إذ أستسلم لعدم كتابته، فإني أحس أن شخصيتي تسترد الحياة، وأن بيفيلاكا يؤكد ذاته. ويكتسب بيفيلاكا بتخليَّ جسداً، وصوتاً، وحضوراً. فهل أكون أنا قارئه، وتفاؤل مدون أخباره، أنا، جان لوك تيراديلوس، الذي وارى نفسه.

كل البشر كاذبون

ألبرتو مانغويل

البرتو مانغويل الارجنتيني الأصل والكندي الجنسية والمقيم بفرنسا ، المثقف الكوني الذي يجيد عدة لغات، والشغوف بالكتب والمكتبات والقراءة، والناقد والروائي أيضا. استلهم من قراءته للمبدع الكبير بورخيس حياة الكتب والمكتبات، وأكمل الطريق بعد ذلك محققا أقصى درجات الذيوع والإبداع والانتشار حتى حصد ١٨ جائزة منذ ٢٠٠٧ .

بدأ مسيرته الكتابية عام ١٩٨٠ بكتاب (أطلس الأماكن المتخيلة (، وصل أقصى تحدياتها في كتاب (تاريخ القراءة) وجسدها روائيا في هذا العمل (كل الرجال كاذبون) والتي تعتبر، بجدارة، رواية الروائيين حيث اللغة الماكرة والكذب المراوغ والأحداث الغامضة وحيث مانغويل يكتب سيرة الأحياء كما يحبون أن يكونوا.

هذه الرواية أكثر من حياة أكبر من كتاب أنها الأسطورة كما يجسدها مانغويل عبر شخوصه الأقرب للواقع كما يتخيله عبر عوالمه الأحب إلى ذاكرتنا القرائية المتخيلة.

كل الرجال كاذبون...رواية يجب أن تقرأ إنها فعلا رواية كل الروائيين



للثقافة والنشر والإعلام

cover dsign by:
رواق